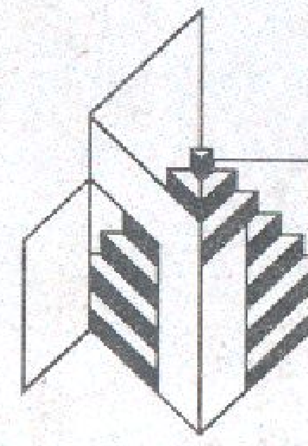
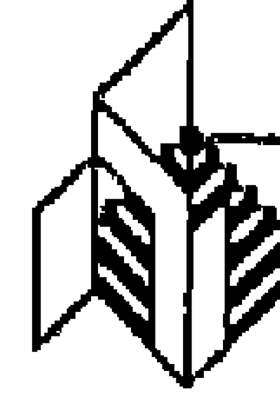


مطبوعات
الهيئة العامة لقصور الثقافة

تجديد الفكر المصرى عند قاسم أمين

د. عزت قرنى



الهيئة العامة لقصور الثقافة

تجديد الفكر المصرى عند قاسم أمين

د. عزت قرنى

مطبوعات
الهيئة العامة لقصور الثقافة

٤٧

سلسلة
مطبوعات الهيئة

رئيس مجلس الإدارة
ورئيس التحرير
علـى أبـو شـــادى

أمين عام النشر
محـمـد كـشـيك

المشرف العام
د. حـسن عطيـة

مستشار التحرير
سـمـيـر نـدا

الإشراف الفنى
د. محمود عبد العاطى

مدير التحرير
محـمـد أبو المجد

• المراسلات :
باسم مدير التحرير على العنوان التالى :
١١٦ شارع أمين سامى - القصر العينى
القاهرة - رقم بريدى ١١٥٦١

تصدير
هذا الكتاب: لم ؟ وكيف؟

نبعت فكرة هذا الكتاب منذ سنوات طويلة، حين كان صاحب هذه السطور يسطر بحثا بعنوان «الدفاع عن المرأة وإعادة البناء الوطنى والثقافى. تطبيق على حالة قاسم أمين»، فى عام ١٩٨٢م(١)، ولكنه لم يبدأ العمل الفعلى المنتظم فيه إلا منذ منتصف عام ١٩٨٧م. وكان يختار أفضل أوقاته ليتفرغ له، حتى لقد سأل نفسه: «ولم تكتب هذا الكتاب؟ وتتعلق به كل هذا التعلق؟ فلا هو كتاب طلبه إليك أحد، ولا أنت كلفت بكتابته، ولا هو كتاب مدرسى تحتاج إلى أن يكون بين أيدى الطلبة الذين يعتمدون على المطبوع أكثر مما يلتقطون من المسموع، ولا هو بحث تنال به تقدمة أكاديمية من نوع ما، بل هو من نوع الدراسات التأريخية التى أصبحت تريد لها أن تحتل من اهتمامك أقل قدر ممكن، لتتجه بكلك ما استطعت إلى عرض الرأى والاقتراح؟ «واندفعت الإجابات عن هذا التساؤل، واحدة بعد الأخرى، وكأنها كانت تختفى وراء

ساترٍ ما، ولكنها كانت قائمة هناك على كل حال. فقد قال الكاتب لنفسه: «أولا: نحن نكتبه لمتعة استجلاء أمر وضعناه على هيئة سؤال يقول: ما دور قاسم أمين فى حركة الفكر المصرى الحديث؟ ويتطلب هذا الإجابة المسبقة عن سؤال أولى: ماذا قال بالفعل قاسم أمين وماذا أراد أن يقول؟ وفى استبيان الإجابة عن هذا السؤال الأخير (فى هذا المجلد الذى بين يدى القارئ)، وعن السؤال الذى يسبقه (ربما فى دراسة تالية)، متعة أى متعة، يعرفها كل واحد حين يمضى فى استكشاف حقيقة أمرٍ ما وحين يجدها، أو يظن أنه وجدها، بل هى متعة قريبة من المتعة الفنية عند الفنان الذى ينتج أعماله لا لشىء إلا لأنه «يريد ذلك»، ولا يعرف ماذا سيكون مآلها والمستقر. وربما تلخصت هذه الإجابة الأولى فى الكلمات القصيرة التالية: إنما نحن نكتبه لأنفسنا. ولكن تظهر إجابة ثانية: فنحن نكتب هذا الكتاب أيضا محبة فى قاسم أمين وإيفاء بحقه. أما عن المحبة، فإنها لا تؤتمر، بل تكون تلقائية، وهكذا كنا منذ أول لقاء مع أفكار قاسم أمين عام ١٩٧٦ - ١٩٧٧، ومنذ أن تبينت لنا تقاسيم شخصيته، فظهر لنا مخلصاً نبيلاً جسورا صريحاً مباشراً، فأحببناه. وأما عن الإيفاء بالحقوق، فإنه واجب وطنى إلى جوار أنه واجب إنسانى: ذلك أننا وجدنا فكر قاسم أمين ذا تأثير بالغ فيما

تلاه، ولأمدٍ بعيد، بينما لا ينالِ هذا الفكر من التعريف به والاعتراف بفضله، أو بأهميته على الأقل، ما يتناسب مع تأثيره الحاسم ذاك. وهناك ثالثا دافع علمي أو معرفي أو منهجي: ذلك أننا لا نجد، من بين العدد القليل من الكتابات التى خصصت عن قاسم أمين وفكره، إلا دراسات نادرة تستحق التقدير العلمى، وأغلب هذا النادر ينظر إليه من حيث هو موضوع للدراسة الأدبية أو موضوع لتأريخ الحياة، فأردنا أن نتوفر على دراسة فكر قاسم أمين ذاته دراسة دقيقة منهجية علمية. ونعنى «بالعلمية» هنا الدراسة التى تحترم الوقائع ولا تقفز عليها إلى نتائج لاتنتج منها .

وقد نضيف أننا أردنا لهذه الدراسة أن تكون علمية لا أيديولوجية: فهى لاتصفق ولا تهاجم ولا تمجد ولا تُقَدَّمُ لمحض غرض التمجيد أو القدح، أى أن تكون دراسة غير تقويمية بالمعنى الساذج للتقويم، والذى لا هم له إلا أن يقول : أحسن وأخطأ، إنما هى محاولة للفهم الشامل لظاهرة موضوعية، وإن لم يكن من السهل تغطية شتى أطرافها بله إدراك هذه الأطراف، ألا وهى ظاهرة الإنتاج الفكرى لشخص معين نبغ من بين أقرانه فى فترة تاريخية محددة. بعبارة أخرى: لقد أردنا أن نقدم محاولة فى دراسة تاريخ الفكر لعلها، إن نجحت ووفقت، أن تكون نموذجاً لأخريات، نموذجاً يشير إلى ما

ينبغى أن يكون عليه موقف المؤرخ وما لا ينبغى عليه أن يكون. ثم هناك إجابة رابعة : ذلك أن توجهنا الخالص نحو المستقبل لن يستقيم على طريقه بغير معرفة دقيقة صحيحة بالماضى، بل بالماضى القريب على الأخص، ومن هنا فإن بيان أصول الفكر المصرى الحديث، أو إنتاجه السابق على كل حال، بيانا وافيا مفصلا هو شرط هام لحسن الانطلاق فى المستقبل أخيراً وليس آخراً، فإن أسلافنا هؤلاء، الذين يكونون ماضى فكرنا القريب، هم الأولى أن نتحاور معهم، وأن نتفق معهم ونختلف، وأن ندعو الشباب والطلاب إلى درسهم للتدرب عليهم، على الأقل، وذلك بدل أن نغالط أنفسنا بأن نظن أننا ننشغل بدرس هذا المفكر الغربى أو ذاك، وهو الغريب الغريب عنا ، بعبارة أخرى: نمو الفكر يتم، من بين أنحاء شتى، بحوار الخلف مع السلف، فلابد من التحاور مع أسلافنا، وشرط هذا التحاور حسن المعرفة ودقيقها، ثم فلنتفق معهم أو نختلف من بعد ذلك. فنحن ندعو إلى قيام دراسات دقيقة مفصلة علمية عن شتى مراحل وشخصيات ومواقف الفكر المصرى فى عصره الحديث، حتى يتحدد لنا «التراث» الحى حقا، الذى نستطيع بالفعل أن نتحدث معه، وحتى ننطلق من الاتفاق معه أو الاختلاف إلى تحديد المواقف الجديدة التى ستكون هى بدورها

تراثا يتحاور معه الخلف». هذه إذن «دوافع» الانخراط في هذه الدراسة.

ومن المهم أن نحدد معالم الطريقة التي اتبعناها في البحث وفي تكوين الفصول، ومن حيث الإجراءات وطرائق التناول معا.

لقد أردنا لدراستنا هذه، كما سبق وأشرنا، أن تكون علمية لا أيديولوجية. علمية، أي تحيط وتستقصي وتستهدف الشمول والتدقيق، وتراعي، قبل كل شيء، واجب الموضوعية، الذي ما هو في النهاية إلا الترجمة الخاصة في ميدان المعرفة لقيمة عظمى أخلاقية، ألا وهي قيمة الأمانة، كما أنها تجتهد في ألا تنسب إلى المؤلف ونصوصه معاني أو أهدافا أو دوافعا إلا مع تقديم الدليل، أو على النص، في غير هذه الحالة، على أن ذلك يكون على سبيل التساؤل وحسب. وليست أيديولوجية، أي أنها لا تلوي نصوص المفكر موضع الدراسة لتأويلها على وجهة يبتغيها الباحث من حيث هو صاحب اختيارات في أمور الاجتماع بعامة، ولا تهتم باستهداف التمجيد أو انتزاع التصفيق أو إلصاق مراتب وألقاب، ولا تنغمس في محاولة تبرير مواقف المفكر وكأنه محل للدفاع أمام هجوم عليه، ولا تقوم على الأخص باصطناع مواقف بالإيجاب أو السلب عن طريق ليِّ النصوص.

إن هذه المثالب لهي مما هو معروف في كثير من الكتابات المزعومة «علمية» وتاريخية، وما هي بذلك. ومعروف فيها أيضا مثالب أخرى، من حيث طريقة العرض، ونحن نريد لدراستنا هذه أن تنأى عنها. فليس من طريقتنا عرض المواقف والآراء بوسيلة إيراد ألفاظ بألفاظ، ولا بالتخليص، الذي هو ساذج دائماً، لمحتوى كتب قاسم أمين، ولا هو، على الأخص، وما يمكن أن نسميه بطريقة «نثر المحتوى » (وهي المقابل لما يسمى في اللسان الأجنبي Paraphrasing)، وهي طريقة انتشر استخدامها، وياللأسف، في العقود الأخيرة على أيدي ضعاف الطلاب في الرسائل الجامعية، وسكت عنها ضعاف الأساتذة المزعومين «مشرفين» علميين، وهي طريقة تُمثِّل لها منذ البداية في أوائل القرن الميلادي الحالي، كتابات جرجي زيدان التي تعرَّض فيها لأعمدة الفكر ولخص فيها أفكارهم، وأصبحت تلك الكتابات كالمنارات الزائفة، لأن جرجي زيدان كان مجرد صحفي يريد ملء أعمدة مجلته، ولا هو بالباحث العلمي ولا هو بالمؤرخ ولا هو بالعالم.

فكيف كانت طريقة البحث والعرض، من حيث الإجراءات والتناول، في دراستنا هذه، أو، على الأقل، ماذا أردنا لها أن

تكون؟

إننا ننطلق من مبدأ أساسى: أن فكر قاسم أمين وحدة واحدة، وجدت تعبيراً عنها فى العديد من الكتابات وفى آلاف الجمل، وبالتالى، وهذا هو المبدأ الثانى، فإن مؤلفاته ينبغى أن ننظر إليها، هى الأخرى، فى مجموعها، وكأنها وحدة واحدة (ولكن مع وضع كتاب «المصريون»، المنشور عام ١٨٩٤م فى موضع خاص، من جهة لأنه كان كتاباً «دفاعياً» قصد به مؤلفه الرد على اتهامات ألقاها كاتب فرنسى على قومه وديانته، ولأن بعض مواقفه سيتراجع عنها المؤلف فى كتاباته اللاحقة، على ما سنرى). وينتج عن هذين المبدأين معا أن أفكار قاسم أمين متداخلة بالضرورة، وذلك بمعنيين على الأقل: الأول، أن نفس الفكرة أو النص أو القضية يمكن أن تكون ذات مغاز بالنسبة إلى عدة ميادين أو أطر معاً، وبالتالى فإنها يمكن أن تستقبل تفسيرات متعددة، أو على الأقل استخدامات متعددة، لأنها تحمل معانى متعدة، وكأن للقضية أو للنص أو للفكرة «مستويات» معنوية متشابكة أو متتالية أو متصاعدة، الثانى، أن نفس الفكرة يمكن أن تجد تعبيراً عنها فى عديد من النصوص المتناثرة، فيلزم جميع ما يرى الباحث، بعد فحص وتأمل، أنه نصوص تتناول نفس الفكرة، من أجل أن يقوم

باستخراج بنيتها، بنية الفكرة، وجوانبها وعلاقاتها، من سائر هذه النصوص، المتناثرة فى الأصل، ولكن تجمعها وحدة موضوعية وقصدية واحدة (نفس الموضوع، نفس القصد). ثم ينتج عن هذا كله أمر ثالث: أن أفكار قاسم أمين المركزية تظهر وتعود إلى الظهور تحت أشكال منوعة، وبين كل حين وآخر، تماما كاللحن الرئيسى فى العمل الموسيقى، يظهر فى المقدمة ويلخص فى النهاية ويعرض عرضا رئيسياً حيناً ويظهر فى التضاد مع اللحن المناوئ حينا آخر، تعزفه الفرقة الموسيقية كلها حيناً وهذه الآلة ثم تلك ثم ثالثة أحيانا مختلفة. وهناك أمر رابع: حيث أن قاسم أمين مفكر متمكن، فإن ما يقوله يصبح ذا أهمية مطلقة، وعلى ذلك فإن كل ما نجده فى نصوصه، حتى ولو كان يظهر عرضا أو سريعا، بل وكل ما نستطيع أن نستظهره إلى الوجود مما هو «بين السطور»، كل ذلك تكون له أهميته وينبغى أخذه فى الاعتبار. هذه هى بعض المبادئ العامة الأساسية التى وجهت إجراءات البحث وطريقة التناول والعرض جميعاً، على ما سنرى على الفور.

ففيما يخص إجراءات البحث، بمراحله المختلفة، وجدنا أنه لا مناص من النظر الى نفس النص من جوانب مختلفة (مثلا الطريقة العلمية، الأخلاق، التربية...)، ليس فقط لكشف تعدد جوانب

نصوص قاسم أمين وإظهار خصوصيتها، بل وكذلك لأنها هكذا بالفعل. وقد تجسد هذا المنحى فى إمكان إعادة تفسير نفس النص على أوجه شتى ومن جهات متعددة. ولكن ربما كان أعظم ما أهمنا إجرائيا استيفاء شرطىْ الشمول والتدقيق. ومن نافلة القول أن هذين شرطان بديهيان لكل تناول علمى لأى موضوع كان، وإنما الذى دعانا إلى التأكيد على ذكرهما هنا هو أننا لا نكاد نجد تطبيقا لهما فى الدراسات التى أعدت عن فكر قاسم أمين، وخاصة بالجمع بينهما معا، أى بإضافة احترام الدقة إلى مراعاة النظر فى شتى نصوص قاسم أمين والانتباه إلى كل شىء فيها على التفصيل وليس على الإجمال. وقد ساير هذا محاولة استكناه العلاقات الممكنة بين شتى الأفكار والميادين، ومحاولة إثارة كل الأسئلة المتصورة، والبحث فى التأثيرات الممكنة والمقاصد غير المعلنة.

وانطلاقا من المبادئ العامة المشار إليها فى الفقرة الأسبق، فإننا قمنا، فى مرحلة جمع المادة، بتناول كل إنتاج قاسم أمين جملة واحدة ابتداء من منظور واحد معين، فقرأناه هكذا عشرات المرات، نقرأه مرة كله من منظور الطريقة العلمية، أو الانتقاد الاجتماعى أو الأخلاقى، أو السياسى أو التربية، أو غيرها وغيرها،

وكأنه لم يكتب كل ما كتب إلا ابتداء من هذا المنظور. وقد أدى هذا إلى إدراك أن نفس النص يمكن أن ينظر إليه من كثير من هذه الزوايا على التوالى، فالنص واحد ولكن أوجهه كثيرة. ويمكن تشبيه هذا بالمكعبات، ومنها ما يلهو به الأطفال، فلو فرضنا ستة مكعبات، فى مقابل ستة نصوص، لكل مكعب ستة أوجه، وعلى هذه الوجوه حروف مختلفة، وإن يكن بعضها أظهر من بعض، فإنه بدلا من أخذ كل مكعب على وجه حرفه البارز أو الظاهر وحسب، فتكون لدينا فى هذه الحالة جملة أو قضية أو فكرة مكونة من ستة حروف وحسب، ويقابلها مثلا القول المشهور الذى يراد به تلخيص كل فكر قاسم أمين: «هو محرر المرأة»، نقول بدلاً من هذا فإننا حاولنا تقليب شتى جوانب كل نص، أى، فى المثال الذى نمثل به، تقليب كل مكعب على سائر أوجهه، وكل المكعبات على سائر الأوجه، لنرى، فى كل مرة، إن كانت الحروف المجمعة تصنع معنى مفيداً أم لا، وذلك فى كل الاحتمالات الستة والثلاثين (٦×٦)، وهو ما يؤدى إلى غزارة فى النتائج وثروة إدراكية عظيمة فى فهمنا لحقل فكر قاسم أمين، ويؤدى على الأخص إلى إدراك الجوانب غير المتوقعة لنفس النص إذا نظر إليه من مناظير متنوعة ولكنها متكاملة بسبب واحدية مرجعها، وهو النص الواحد ذاته. ويمكن التعبير عن المعنى

السابق بعبارة أخرى، بالقول إنه يمكن قراءة نفس النص قراءات مختلفة من حيث موضوعات مختلفة ومن زوايا مختلفة (مثلا: سلباً وإيجاباً، رداً على ... ، تحضيراً لـ ...) .

إن هذه الطريقة فى النظر أدت، من حيث المبدأ، إلى رفض الانطلاق مما هو مشهور عن مواقف قاسم أمين الأساسية أو مركزيات فكره، والذى أخذ فى الظهور منذ عصر وفاته ذاته، وبالذات حكاية «محرر المرأة» هذه التى أشرنا إليها، وإنما تركنا النصوص، فى قوتها الظاهرة وفى علاقاتها وتداخلاتها ومتضمناتها، هى التى تهدينا، فكان اكتشاف عالم فكرى كامل، وكان اكتشاف ميادين جديدة عالجها قاسم أمين بتفصيل واضح، ولكنها حُجِبت عن الأعين تحت تأثير واحدية التفسير التقليدى المباشر، والساذج فى نهاية الأمر، على ما سنرى. كذلك أدت بنا هذه الطريقة فى النظر إلى الانتباه، ليس فقط إلى ما يقوله قاسم أمين، بل وإلى ما لا يقوله، إلى ما يقبل به وإلى ما يرفضه على حد سواء. ثم هى أدت بنا إلى إدراك وجود «مستويات» قصدية متصاعدة لكل نص، وربما كان القصد الأعلى ليس هو الظاهر لأول وهلة على وجه النص. أخيراً، وليس آخراً، فقد دفعنا هذا الثراء فى المعطيات إلى محاولة إدراك البنية العامة لفكر قاسم أمين وإلى

محاولة تحديد مراتب للاهتمامات وطبيعة العلاقات والتسلسلات بين المواقف والقضايا، وإلى محاولة استكناه الرئيسي من بين ما هو فرعي. إن هذا لا يعني أقل من ضرورة الابتداء من النص ولكن مع تعديه إلى ماوراءه، أو قل إن الفهم للبنية العامة لفكر المفكر لا يمكن أن يتم إلا «من الداخل»، أي من تكوينه الداخلي (بما يحمله من أولويات ومقاصد وعلاقات وترابطات)، ولكن مع احترام النصوص وأخذ معانيها الظاهرة في الاعتبار. لقد كان واجبا دائما البدء من المعنى للوصول إلى القصد، ومن الجزء للوصول إلى الكل، ومن التفاصيل والفروع للوصول إلى المبادئ.

فإذا أردنا الآن تحديد طريقتنا في تناول المادة بعد جمعها وبعد إعادة ترتيبها على هذا النحو، وفي عرضها النهائي من بعد تناولها ومعالجتها بوسيلة محاولة إدراك الترتيب والتأسيسات والتأييدات والتطبيقات وغير ذلك، فإننا سنجد أن طريقة التناول والعرض مرتبطة هي الأخرى أوثق الارتباط بما قلنا عن إجراءات البحث ومن قبله عن المبادئ العامة. لقد كان همنا الأول هو إعادة ترتيب عناصر كل ميدان معين تحدث عنه قاسم أمين، إعادة ترتيب تحمل معنى وتكون قابلة للضبط بإشارات نصية إن أمكن هذا، وتكون مقبولة منطقياً، وتؤدي إلى الاحاطة بشتى عناصر الموضوع على

نحو شمولى ومنظم بقدر الإمكان. وهكذا تناولنا وعرضنا ميادين اهتمامات قاسم أمين وكأن لكل ميدان بنية فكرية كانت واضحة فى ذهن قاسم أمين، ولكن التعبير عنها تفتت فى مئات القضايا التى تناثرت فى شتى كتاباته. لقد كان هدفنا فى كل فصل من فصول هذه الدراسة أن «نوحد» عناصر فكر قاسم أمين فى هذا الصدد، بوسيلة إعادة ترتيب أوراق نصوصه، تماما كما نعيد ترتيب أوراق اللعب.

إن طريقتنا فى العرض لا هى طريقة تحليل النصوص ولا هى طريقة تحليل المضمون، وإنما هى تستخدم هذه وتلك من أجل إبراز ما نعتقد أنه البنية الأساسية أو التنظيم المنطقى لميدان ما أو لموضوع محدد. وعلى هذا فإن تناولنا لكل موضوع كبير من موضوعات فصول هذا الكتاب ينطلق من هيكل تنظيمى عام نقوم باقتراحه، ليس اعتباطا ولا تعسفا، وإنما بالاعتماد على الاشارات النصية كلما أمكن ذلك، مع إعادة تفسيرها بالضرورة واظهار مضامين فيها ومعان لم تدركها قراءات سابقة. ثم نقوم من بعد ذلك بتغذية هذا الهيكل التنظيمى بالمادة المستمدة من النصوص المتناثرة مع إعادة ربطها معا (راجع مثلا فصل «النظرة العلمية»). فهناك إذن إضافة هيكلية يقترحها الباحث، وهى ليست مختلفة، بل

تضبطها النصوص الصريحة، وبذلك يتوفر فيها قدر معقول من الموضوعية. ويمكن القول إن طريقة التناول التى اتبعناها تحليلية وتركيبية معاً، تحليلية بإزاء استنطاق النصوص، وتركيبية بإزاء إعادة تفسيرها، ثم إعادة توزيع علاقاتها وإظهار روابط موضوعية بين نصوص متناثرة ثم إعادة تنظيم الكل فى تنظيم هيكلى عام يشير إلى البنية العامة وإلى المنطق الداخلى. وربما يجد دارس المناهج العلمية هنا، كما لاحظنا نحن فى لحظة كتابة هذه المقدمة، شيئا يقابل ما يسمى «المنهج الفرضى التجريبى» فى العلوم الطبيعية، حيث ينطلق الباحث، من بعد جمع المعطيات، من فرض عام مفسر يتم التحقق من صوابه، أو من مناسبته أو من فائدته أو غير ذلك، بوسيلة مدى نجاحه فى إعادة تنظيم الميدان موضع البحث تنظيما ذا معنى تجد فيه سائر الظواهر أماكنها المتناسبة وتصبح بفضله، من بعد ذلك، «مفهومة».

من جهة أخرى، فإننا حصرنا أنفسنا، قصدا، فى هذا البحث، فى داخل إطار نص قاسم أمين، وأرجعناه الى ظواهر العصر باقتصاد وبغير تفصيل، ولعلنا نقدم كتابا آخر بعنوان: «قاسم أمين فى عصره». ولابد من كلمة هنا عن زوج «النص والعصر»، فهناك من يهتم بالنص، وهناك من يهتم بالعصر، ويأخذ بالمنحى الأخير

المتأثرون بما يسمى باسم «علم اجتماع المعرفة»، وغلاتهم يظنون أنهم قد عثروا على الكلمة الأخيرة فى منهجية دراسة تاريخ الأفكار. وليس من عاقل يرفض أن النص دائما إنسانى، موجه من شخص وإلى أشخاص هم مجتمعه، وفى إطار بيئة وعصر لا يفهم إلا بالاشارة إليهما، ولكن من هنا إلى القول بأن البيئة والعصر تستغرق كل شىء يكون ممكن الخطأ: والواجب هو الاهتمامُ ثلاثىُ الجوانب: بالنص وبصاحبه وبالبيئة والعصر. ثم إن المناهج متكاملة، وكذا نتائج الأبحاث. وأيضا، فإن بعض الموضوعات تستلزم طريقة دون أخرى، بل أن بعض مراحل الدراسة تستلزم استيفاء معطيات معينة من قبل الدخول إلى تطبيق طرائق مختلفة. ثم أن البيئة وحدها لا تفسر كل المفكر. نعم، هى تؤثر فيه بوضع مشكلات بعينها، وتحديد أطر مُوجِّهة وتوجهات وواجبات، ولكن للعقل حرية التحرك من بعد ذلك، ولذا تكون البيئة واحدة والنظم الفكرية لمفكرين متعاصرين متباينة، هذا فوق أن الإنتاج الفكرى خلق وإبداع، وعالم الفكر يكوِّن بالضرورة عالماً خاصاً ذا حياة مستقلة. أخيراً، فإن هناك النص: يقف شامخاً قائماً بعد انقضاء العصر وبعد فناء الشخص المنتج للنص، فهو كيان قائم بذاته، وهو بمعنى ما مستقل عن شخص منتجه من كثير من الجوانب. لذلك

كله، فإننا لن نقتصر على الانتقال من البيئة إلى النص حينما يكون ذلك واجباً، بل سننظر فى النص ملياً، ونخرج منه، بين كل حين وآخر، لننظر إليه من خارجه وفى إطاره الاجتماعى والثقافى.

قلنا إن النص كيان قائم بذاته. والنص يُقصد به هنا إما مجموع إنتاج المؤلف، أو كتاب معين ككل، أو فقرة متصلة، أو حتى جملة واحدة أو جملتان تعطيان معنى كاملا. إننا سننظر فى النص، وأحيانا كثيرة ما سنخرج من نص إلى نص آخر، لكى نعود إلى الأول، ثم نخرج من النص إلى العالم الفكرى العام للمؤلف الذى نحن بصدد دراسته، من أجل أن نحدد ليس فقط ماذا قال بالفعل، بل وكذلك ماذا أراد أن يقول.

إن المبادئ العامة وطرائق الإجراء والتناول التى أشرنا إليها تمكّن من قراءة نص قاسم أمين قراءة جديدة تماما، متحررةً من تعسف القراءات السابقة، وأكثرها قراءات سريعة غير متعمقة، كُتبت على أيدى أصحاب قلم سريع لسبب أو لآخر. وسوف يرى القارئ أننا سنثبت كثيرا من النصوص. وما كان أسهل علينا أن نعرضها بألفاظ مختلفة بعض الشىء. وإنما قصدنا قصداً إثبات النصوص لأسباب كثيرة وجدِّية، ومن أهمها أن القارئ اليوم ليس على صلة بنص قاسم أمين، ولذلك فإننا نضعه تحت أعينه، وإذا

تكرر البحث والحديث عن هذا المفكر قلَّت الحاجة إلى إثبات نصوصه واكتفى بالإشارة إليها بموضوعاتها أو بمحتواها. كذلك، فإن كثيرا من تفسيراتنا قد تبدو غريبة على القارئ المعتاد على الصورة التقليدية لقاسم أمين، فكان لابد من إثبات النصوص للتدليل الحرفى على ما نقول. أخيراً، فإن نص المؤلف يجُبُّ كل نص سواه. وفى المقابل، فإن القارئ الكريم سوف يلاحظ أن هذه الدراسة ليست تجميعا لنصوص، بل لربما ينتقدها البعض بأن جانب تدخل الباحث فى الجمع والربط والتفسير وإعادة التفسير وتقديم الهيكل التنظيمى، كان بارزا. وقد راعينا، على كل حال، الاجتهاد فى التقليل من إثبات النصوص مع تقدم الفصول فصلا أثر فصل، ولكننا لم نتردد فى إعادة اثبات النصوص، التى لا تمتد فى العادة إلى أكثر من سطر أو سطرين، والتى لا حد لخصوبتها ولا ينفذ ثراؤها: ألم يقل القائل إن الأشياء الجميلة ينبغى أن تقال مرتين؟

هذا كله عن طريقة البحث والتناول والعرض، من بعد الحديث عن دوافع الدراسة. فماذا عن الأهداف المعرفية التى استهدفناها على وجه التخصيص؟ أن نعرف وأن نفهم: هذان هما الهدفان الكبيران فى كل عمليات المعرفة. لقد أردنا أن نعرف ماذا قال

قاسم أمين على الدقة، وماذا كانت آراؤه في صدد شتى الموضوعات التي تعرض لها، وأن نعرف ما قاله على سبيل التصريح وعلى سبيل التضمين على السواء، وأن ندرك ليس فقط المعلن من مواقفه، بل وكذلك شبه المعلن وغير المعلن ولكنه مما يكون واردا بين السطور. ثم أردنا أن نعرف مقاصده الحقيقية، والمركزى والفرعى بين آرائه، واستهدفنا محاولة اكتشاف بنية فكره العامة من جهة وفى كل ميدان مخصوص من جهة أخرى. أخيراً، فإننا أردنا أن نعرض ماذا كان موقفه من بيئته، تمهيداً لتحديد وضعه فيها، واقتراباً من معرفة أدق بمدى تأثيره عليها وعلى الأجيال اللاحقة.

ثم أردنا أن نفهم ماذا أراد أن يقول على الحقيقة. إن الفهم يعنى إدراك المغازى والمقاصد من بعد إثبات العلاقات والترابطات والتسلسلات من أجل إدراك الصورة العامة لفكر المفكر الموضحة لما هو أساس وما هو نتيجة. إن الفهم يقتضى بالضرورة وضع الجزئيات فى كليات، وإدراك العلاقات بأنواعها، من أجل اكتشاف المنطق الداخلي الذى يحكم ترابطات الأفكار وعمليات التأسيس والانتقال والاستنساخ من فكرة إلى أخرى على وجه العموم، حتى يتضح فى النهاية التكوين العام لفكر المفكر. إن الفهم يعنى، أول

ما يعنى، الإدراك الكلى. وقد كان لابد من تفسير النصوص، وعدم أخذها لا بحروفها ولا على ظاهرها بالضرورة. إن الفهم الحقيقى يعنى إدراك العالم الفكرى للمفكر موضع الدراسة سواء فى كله أو فى علاقة كل ميدان من ميادينه ببقية الميادين وبالكل.

هذه بعض الملاحظات الأساسية، وليس من الضرورى أن يتحقق تطبيقها سائرها فى الفصول التى بين يدى القارئ الكريم، وإنما أردنا وضع إطار عام، وربما يجد القارئ فى الصحفات التالية تطبيقا لكثير منها، على نحو أو آخر.

وإذا كانت هناك من نتائج لهذه الدراسة، فإننا نرجو أن يتفق القارئ معنا على هذه الأساسية من بينها:

١ - قاسم أمين صاحب أول تجديد شامل جذرى فى توجهات الفكر المصرى الحديث.

٢ - قاسم أمين مفكر عميق شامل مؤسس، له مواقف من موضوعات عديدة، تتعدى فى أهميتها مجرد مسألة تحرير المرأة بكثير، وهناك فى كتابات قاسم أمين الكثير من الاتجاهات والمواقف مما لم تنتبه إليه الدراسات السابقة، ففكره ذو ثراء وخصوبة بالغين.

٣ - قاسم أمين هو الرأس المفكر الحقيقى لعصر اللبرالية

المصرية (١٩٢٣ - ١٩٥٢م)، وستظهر الدراسات المقارنة أن أهميته تفوق، من حيث التأسيس والمبادرة، أهمية أحمد لطفى السيد بكثير، وأن كثيرا من مفكرى تلك المرحلة، وخاصة طه حسين ومحمد حسين هيكل وسلامة موسى منهم، لا يمكن أن يفهموا حق الفهم إلا بالإشارة إلى إنتاج قاسم أمين ومواقفه.

وقد رجعنا إلى الطبعات التالية لنصوص قاسم أمين :

- «المصريون» (القاهرة، ١٨٩٤م، بالفرنسية تحت عنوان : (Les Egyptiens) : الطبعة الأولى والوحيدة عام ١٨٩٤م.

- «تحرير المرأة» (القاهرة، ١٨٩٩م): الطبعة الأولى، مطبعة الترقى ١٦٣١ هـ - ١٨٩٩م.

- «المرأة الجديدة» (القاهرة، ١٩٠٠م): طبعة ١٩٢٨م بمناسبة مرور عشرين عاما على وفاة المؤلف.

- «أسباب ونتائج وأخلاق ومواعظ» (مجموعة مقالات نشرت فى جريدة «المؤيد»، ما بين عامى ١٨٩٥ و ١٨٩٨م): طبعة المطبعة الجمالية بمصر، بدون تاريخ.

- «كلمات»، وهى مجموعة من مذكراته الشخصية نشرتها له إدارة «الجريدة» (التى كان يرأس تحريرها أحمد لطفى السيد) عام ١٩٠٨ إثر وفاته، وسنشير إلى طبعة نفس المطبعة السابقة، عام ١٩١٣.

ولم نشر إلى طبعة موجودة فى الأسواق بعنوان: «قاسم أمين. الأعمال الكاملة»، بسبب أوجه قصور، بل وأخطاء فادحة، فصلنا القول فيها في دراستنا: «ليست الأعمال بالنيات فى مجال نشر الفكر المصرى الحديث»، مجلة «فصول»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد الأول، العدد الأول، ١٩٨٠م. ومن جهة فقد ظهرت طبعة جديدة لكتاب «المرأة الجديدة» (دار سينا للنشر) بعناية الدكتورة زينب الخضيرى، ومع مقدمة طويلة بقلمها، ولكننا لم نستفد من هذه المقدمة لظهور الكتاب بعد تحرير هذه الدراسة.

(١) نشر هذا البحث بالفرنسية فى :
Mourad wahba,ed., Proceedings of the Internatinal Conference of philosophy, cairo, the Anglo- Egyption Bookshop, 1984.

الفصل الأول
قاسم أمين والنقد العلمى للمجتمع

أولا : نظرة عامة :

لم يكن هناك من مصرى راض عن أحوال مصر فى عصر قاسم أمين[1]، ويهمنا من عصره على الأخص العقد الأخير من القرن التاسع عشر الميلادى: ١٨٩٠ - ١٩٠٠، والذى شهدت أعوامه الأخيرة تتالى كتابات قاسم أمين النظامية.

والناظر فى كتابات قاسم أمين، وفى إنتاجه عامة، إذا أضفنا خطبه فى بعض المناسبات، يحق له أن يعتبر منظور النقد محوراً أساسياً من محاور اهتمامات قاسم أمين، حتى كأن كل كتاباته تدور حول نقد المجتمع المصرى وأحواله من زوايا مختلفة، بل من شتى الزوايا، ولكنه النقد الذى يتقدم الاقتراح الإيجابى ويمهد له. وعلى الرغم من أن كتاب «المصريون» كتاب دفاعي أساساً كتب رداً على اتهامات السائح الفرنسى الدوق داركور ضد الإسلام والمصريين، إلا أنه يعترف بمواطن النقص بين الفنية والفنية، بينما

تندفع مقالات قاسم أمين فى «المؤيد»، بدءا من عام ١٨٩٥م، والتى ستجمع فى «أسباب ونتائج وأخلاق ومواعظ»، ليكون كل همها، أو أغلبه، كشف العيوب والنقائص وإبرازها والتمثيل عليها ومحاولة ردها إلى أسبابها ثم الإشارة السريعة إلى البدائل الإيجابية. أما «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة» فإنهما معاً محاولة نظرية فى المحل الأول لتقديم إطار فكرى لإصلاح المجتمع المصرى، ولكنهما ينطلقان، وبالضرورة، من التصوير الانتقادى لأوضاع المجتمع السائدة مع العناية هذه المرة، ليس بالمظاهر المتعينة التفصيلية كما هو الحال فى مقالات «المؤيد»، بل بالأوضاع الأساسية الإطارية من سياسية إلى أخلاقية إلى اجتماعية إلى دينية وفكرية وغيرها.

وقاسم أمين يعى صفته كناقد لمجتمعه، بل هو يحدد موطن التجديد الذى تتميز به كتاباته فى هذا الشأن. فهو يربط ما بين «إصلاح أمتنا» و «كشف الستار عن عيوبها جميعا»[٢] فى مقدمته لمقالاته فى «المؤيد» حول «أسباب ونتائج» (والمقصود أسباب الانحطاط ونتائجها)، ثم يقول على الفور: «ولذلك شرعت فى هذا العمل، باحثا عن حالتنا الحاضرة، لا من جهة السياسة[٣]... بل من الجهات الأخرى كالمعيشة الاقتصادية والتربية والعوائد والدين»[٤]. وهو يحدد، فى مذكراته التى نشرت بعنوان «كلمات»

من بعد وفاته، أن هذه الميادين ذاتها هى التى انشغل بعمل الانتقاد فى شأنها، حيث انصرف انتقاد الكتاب إلى أعمال الحكومة[٥]، أما «المسائل الأخرى الدينية والاجتماعية والمتعلقة بالأحوال الشخصية والعادات والأخلاق، فلم يتجه فكر الباحثين إلى انتقادها. فهل لم يجد أحد منهم فيها عيبا ينتقد؟ كلا، وإنما هم يرون العيوب ولا يجرأون على إظهارها»[٦]، وهذا هو بالتحديد ما تعرض هو للقيام به، بعد أن وجد أن هذه المساهمة النقدية لم تجد من يقوم بها فى مصر.

وهو يعتبر هذا النشاط الانتقادى من مجالى الحرية، بل ودرجة عالية فيها، حتى لو طعن الكاتب «على شرائع قومه وآدابهم وعاداتهم، و (هزأ) بالمبادئ التى تقوم عليها حياتهم العائلية والاجتماعية»[٧]، ولا ينبغى أن يكون فعله هذا منقصا لاحترام الآخرين لشخصه، «متى كان قوله صادراً عن نية حسنة واعتقاد صحيح»[٨]. أخيراً، فإن قاسم أمين يميز فى «كلماته» أيضا بين نوع نشاطه النقدى، حين يتشح بلباس السخرية كما سنرى، وذلك النوع الانتقادى المنتشر بين بعض المصريين، وإلى أيامنا هذه، الذى «يجد فى أهم الحوادث موضوعا للتنكيت، وفى أحسن الرجال محلا للسخرية»، فيقول: «بين هذا الهذيان القبيح والانتقاد الهزلى

الصحيح فرق عظيم: الانتقاد الهزلى الصحيح يصدر عن علم وشعور وذوق سليم، ينظر إلى موضع العيوب فى الإنسان وجهات الضعف فى الحوادث، "فيبتسم بسكون ولطف، وإذا علا صوته للضحك، فليس لأن الضحك غايته، بل (لأنه) يعده وسيلة للفت النظر إلى شىء يحزنه وأمر يبكيه»[٩].

لقد عرف قاسم أمين بالتجربة، وخاصة بعد نشر كتابه «تحرير المرأة» عام ١٨٩٩م، مدى غضب فئات عديدة فى المجتمع المصرى من نشر عيوبه على الملأ وإثباتها على سبيل التصريح. ولهذا، فإن كتاب «المرأة الجديدة» يعود إلى الدفاع عن «حرية الانتقاد» و «المجاهرة بالحق والتصريح بالرأى» الذى تتحدث عنه «الكلمات»[١٠]، ويؤكد على أمرين:

– الأول، أن الانتقاد الذى يقوم به، إنما هو مما يمكن أن نسميه بالانتقاد «العلمى»، «حيث أخذ العلم يبحث فى كل شىء، وينتقد كل رأى، ولا يسلم؟ إلا إذا قام الدليل على ما فيه من المنفعة العامة»، كما تقول السطور الأولى من مقدمة «المرأة الجديدة»[١١].

– الثانى، أن إخفاء العيوب إنما هو نوع من الغفلة، ومهما اجتهد البعض فى إخفاء الحق وغفل آخرون عنه، «فلابد أن ينجلى للكل، عاجلا أو آجلا، شأن الحقيقة فى جميع الأزمان»[١٢].

إن تقرير الحق إعلان الحقيقة[١٣] ينبغي أن يكون واجباً قطعياً، ومهما كان إعلان «الحقيقة المطلقة» «مخجلا»، «فقد رأيت، كما يقول قاسم أمين، أن من الواجب عليَّ أن أطرق باب البيان في هذا الموضوع علَّ الذكرى تنفع المؤمنين»[١٤]. وكان قاسم أمين قد عالج مسألة «الخجل» هذه في مقالات المؤيد حول «أسباب ونتائج»، فيقول: «وأنا لا أقول إنه توجد في الأمة المصرية عيوب كبيرة قل أن يوجد مثلها في أمة أخرى، ولا أنه لا يباح للمصري أن يذكرها، ونشر هذه الجمل في هذه الجريدة يدل على عكس ذلك، وعلى وجوب انتقاد عيوبنا بنفسنا، وعدم إغفال شيء منها، حتى لا نغفل عن تلافيها، إذ ذلك أولى من أن يلقيها يوماً ما في وجهنا عدو لنا - ولكن أقول إنه لا يباح لإنسان يحترم نفسه أن يخجل من وطنه ولا أن يغضب عليه إلا كما يغضب الولد من أبيه غضباً ممزوجاً بالأسف والحنو»[١٥]. وأخيراً، فما لنا نخجل من عيوب فينا، بينما أن «لكل أمة عيباً مشهوراً تعرفه في نفسها كما يعرفها به الأجانب»؟[١٦] ولاشك أنه يفكر هنا في عيوب الشخصيات القومية للفرنسيين والإنجليز والألمان وغيرهم المعروفة عندهم وعند جيرانهم والتي يتخذونها أحيانا مادة للتندر وأخرى للسخرية. إن قاسم أمين دائم الربط بين وجوب الانتقاد وحريته من جهة وبين حب الحق

والحقيقة ووجوب إعلانهما مهما كان الثمن من جهة أخرى، بل إنه ليتحدث عما يسميه «قوة الانتقاد»[١٧]، ويقصد بها من غير شك «ملكة الانتقاد» أو القدرة عليه أو سلطانه، ولعل هذه «القوة» هى التي يقصدها، بدون أن يخصصها بإضافة كلمة «الانتقاد»، حين يتحدث، فى تمهيده لكتاب «تحرير المرأة»، عن «هذه القوة الغريبة التى تدفع الإنسان إلى نشر كل فكرة علمية أو أدبية متى وصلت إلى غاية نموها الطبيعى فى عقله، وأعتقد أنها تساعد على تقدم أبناء جنسه، ولو تيقن حصول الضرر لشخصه من نشرها»[١٨].

إن إعلان الحقيقة وانتقاد العيوب يتصل فى النهاية، فى رأى قاسم أمين، بأمر جوهرى: هو الخطر الجاثم لأن نموت من حيث نحن آمة: «إنما نحن بصدد ما به قوام حياة المرأة، أو ما به قوام حياتنا. كلامنا الآن فى: هل يلزمنا أن نعيش ونحيى أو نقضى على أنفسنا بأن نموت ونفنى؟»[١٩] وبعبارة أخرى: «هل نعيش للماضى أو للمستقبل؟ هل نريد أن نتقدم أو نريد أن نتأخر.. [وأن] ننهرم إلى الماضى؟»[٢٠] إن الأمل فى عيشة أفضل هو محرك انتقاد قاسم أمين واقتراحه، ولكنه يربطه بشرط اطِّراح العيوب التي يكشف عنها الانتقاد، فى شتى الميادين، وهو ما يعادل تغيير النظام الاجتماعى والأخلاقى والاقتصادى والثقافى فى جملته،

ماعدا ما هو رابطة حياة الأمة، وذلك حين يستطرد بعد النص المثبت فى السطور السابقة على الفور، ليقول: «رأينا فى هذا القرن حادثة عجيبة أظنها وحيدة فى التاريخ، رأينا أمة بتمامها خلعت عوائدها وأبطلت رسومها وتخلت عن نظاماتها وقوانينها وطرحتها وراء ظهرها، فقطعت كل صلة بينها وبين ماضيها، إلا ما كان متعلقا بجامعة شعبها، ثم همت فبنت بناء جديدا مكان البناء القديم»[٢١] (والإشارة هنا إلى حالة اليابان).

ولا يهمل قاسم أمين أن ينهى كتابه «المرأة الجديدة» بكلمات يلوح فيها بعض الأمل، ورابطا ما بين إدراك العيوب والإصلاح: «ابتدأ المصريون فى هذه السنين الأخيرة يشعرون بسوء حالتهم الاجتماعية، وبدت عليهم علامات التألم منها، وأحسوا ضرورة العمل على تحسينها»[٢٢].

لقد كان قاسم أمين شديد الحملة على اتباع الهوى فى الأحكام والاختيارات، ولذلك فإنه يؤكد أكثر من مرة على أن موقفه من المجتمع المصرى، وهو بسبيل انتقاده، إنما هو موقف الملاحظ الموضوعى الذى يتحرى الحقائق. وقد أثبت قاسم أمين نفس هذا الموقف منذ كتابه الأول «المصريون»، وهو بسبيل فحص أقوال الكاتب الفرنسى الدوق داركور، فهو لا يقصد إلى معارضته لا فى

كل ما جاء به ولا من أجل محض المعارضة، وهو لا يقصد أيضا إلى الدفاع الأعمى عما كانت عليه أحوال المصريين. يقول فى نص قوى فى «خاتمة» ذلك الكتاب: «هل أعمانى حبى لبلادى، كما قد يكون حال الرجل الذى لا يريد أن يصدق موت عزيز عليه، ويبقى متعلقا بأهداب الأمل، رغم تنبؤات الطبيب المؤلمة؟ لا أعتقد أننى هكذا. لقد لاحظت أحوال مواطنىَّ طويلا، وأجد نفسى أقدر من الأجنبى على درس حالهم وعلى معرفتهم، وأعتقد أننى توصلت إلى إدراك كنه طبيعتهم»[٢٣]. وسوف نرى، من بعد، آيات على هذا الموقف الموضوعى وإشارات إليه، كما سبق أن أثبتنا نصه فى «المرأة الجديدة» حول «الانتقاد العلمى»[٢٤].

كثيرا ما ينسى الكاتبون عن قاسم أمين أنه كان قاضياً، والأَوْلى، بل الواجب، أن يتذكر دارسه وقارؤه صفته هذه على الدوام. إن انتقادات قاسم أمين ليست مجرد إثبات ووصف، بل هى تحاول أن تنهج النهج الأصولى، وذلك بالبحث عن العلل وراء الظواهر المنتقدة. وقاسم أمين لا يترك لنا أن نجتهد من أجل إثبات هذه الناحية فى نشاطه الانتقادى، بل هو يعنون بعض مقالاته صراحة بهذا العنوان الدال: «أسباب ونتائج»، ويقول فى المقال الأول منها فى نص تأسيسى: «ليس فى الكون شىء وجد بلا موجد

ومسبب»[٢٥]، وينص على أن «المشتغلين بالأحوال العمومية»، وهو منهم، «يدرسون زمانهم درسا تاما، ويقفون على كيفية ارتباط حالهم بماضيهم وأخلاقهم وعوائدهم ومعتقداتهم وسياستهم، حتى يتبين لهم ما هم عليه بكيفية لا تقبل الشك. إن هذه الأمور إنما هى العلل التى أنتجت تلك الحالة»[٢٦]. ولعل من أهم مواقفه التأسيسية فى «تحرير المرأة» ربطه ما بين العوائد والآداب من جهة و«الحالة العقلية» للمجتمع من جهة أخرى[٢٧]، وهو يعود فى «الخاتمة» الهامة لنفس الكتاب إلى تأكيد ضرورة البحث عن أسباب العوائد[٢٨]، ومن المفهوم أن هذه العوائد ذاتها، التى نبحث عن أسبابها، هى علل من ناحيتها لظواهر أخرى فى المجتمع[٢٩] .

ويرتبط بالبحث عن العلل، بالضرورة، اهتمام قاسم أمين بالنظرة العامة الشمولية من جهة، وبمحاولة الوصول إلى تعميمات بشأن تفسير الأحوال المنتقدة، من جهة أخرى. فأما من حيث نظرته الشمولية وهو بسبيل انتقاد مجتمعه، فإنها واضحة منذ مقالات «أسباب ونتائج»، التى تنظر إلى الأمر من زاوية «حالة الامة فى السعادة والشقاء أو التقدم والتأخر»[٣٠]، حتى يدرس أحوال مجتمعه فى «تحرير المرأة» من زاوية «هل نعيش للماضى أو

للمستقبل؟ هل نريد أن نتقدم أو نريد أن نتأخر»[٣١]، وهو يتحدث في العادة جامعا سائر المسائل الاجتماعية والسياسية والعقلية والأخلاقية في نظرة واحدة[٣٢]، وهو ينظر إلى فساد الأخلاق وصلاحها من زاوية «طرق معيشة الأمة ومزاجها واقليمها وآدابها وتربيتها» معا[٣٣]، وحين يتعرض للحياة الاقتصادية للمصريين فإنه يحاول أن يكون شمولي النظرة بحيث يتحدث عن «تاريخ كل ثروة في مصر، إلا بعض مستثنيات نادرة»[٣٤]. وأما من حيث الحكم التعميمي، فسوف نشاهد أمثلة عديدة عليه خلال رحلتنا مع فكر قاسم أمين، ولعل من أبرزها جعله الاستبداد السياسي «أكبر عامل» في استمرار الأخلاق السيئة بين المصريين[٣٥]، وهو ما يعبر عنه في «المرأة الجديدة» حيث يقول في حكم عام: «عاشت الأمة المصرية أجيالا في الاستعباد السياسي، فكانت النتيجة انحطاطا عاما في جميع مظاهر حياتها»[٣٦].

ومادام قاسم أمين يتعرض لانتقاد مجتمعه، فإنه يتعرض بالضرورة «لتاريخ» الظواهر القائمة، وهو يقدم فكرة طريفة، وإن لم يفصل القول فيها أو يطورها، تقوم في أن المشتغل بالأحوال العمومية لعصره هو من نوع «المؤرخ للحاضر» إن أمكن أن نستعمل هذا التعبير، فهو يقول في تقديم مقالاته حول «أسباب

ونتائج»: «وكما يفعل المؤرخ في الماضي، يفعل الكتاب المشتغلون بالأحوال العمومية في الحال، فيدرسون زمانهم درسا تاما.. الخ»[٣٧]، وهو يقصد بكلمة «الحال»، هنا، الحاضر. والحق أن المنظور التاريخي من أهم سائل قاسم أمين في فهم الظاهرات، وسوف نعود إلى هذه الناحية من فكره مرارا من بعد في دراستنا هذه.

وقد كان من الطبيعي، بعد كل ما سبق، أن تتعدد وتتنوع مناحي النشاط الانتقادي لقاسم أمين. فهو ينظر إلى شتى جوانب المجتمع[٣٨]، ويهتم خاصة بالآداب والأخلاق[٣٩]، وينظر إلى الأمر من زاوية التمدن والجهل والانحطاط والتوحش[٤٠]، ومن جهة خطر سقوط المجتمع كله وهو يرى ثقافته بسبيل التهدم[٤١]، ومن جهة البحث العلمي في الأمر[٤٢]، من أجل الوصول الى قوانين عامة[٤٣]، إلى غير ذلك من المناحي التي سيأتي تفصيلها في هذا الفصل. ومن المهم أن نؤكد على أنه كان يرى مجتمعه في حالة انحطاط عام في جميع مظاهر الحياة: «انحطاط في العقول، وانحطاط في الأخلاق، وانحطاط في الأعمال، ومازالت (الأمة المصرية) تهبط من درجة إلى أسفل منها، حتى انتهى بها الحال إلى أن تكون جسما ضعيفا عليلا ساكنا يعيش عيشة النبات أكثر من عيشة

الحيوان»[٤٤]. وسوف نرى كيف أن قاسم أمين ينتقد شتى فئات المجتمع، ويكاد أن يرفض كل شيء مما حوله تقريباً، حتى ليميل إلى النظر فى قول من قال بتفضيل المصريين القدماء على خلفهم من أهل العصر[٤٥]، وربما قسا وغالى بعض الشيء وهو يتندر على قول العامة «مصر أم الدنيا»[٤٦]، أو وهو يرجع ما يظن أنه من محاسن الأخلاق إلى عيب من العيوب[٤٧]، وربما كانت له من وراء هذا التطرف أغراض تربوية.

ونفصل فيما يلى بعض الشيء فى ميادين نقد قاسم أمين لمجتمعه، ونلاحظ أننا نقصد فى المحل الأول إلى التمهيد لعرض آرائه الإيجابية، فى الفصول التالية، وليس دراسة انتقاده لذاته.

ثانيا : ميادين الانتقاد :

أ- السياسة والإدارة :

اهتمام قاسم أمين بالسياسة اهتمام مستمر أصيل، وقد بدأنا بميدانها، ليس فقط لأن له أولوية بنيوية من نوع ما، بل وكذلك لأن قاسم أمين يجد فى السياسة ونحو نظامها المسئول الأوضح والأول عن جوانب الانحطاط فى المجتمع المصرى، كما سنرى بعد قليل. ولا تندر إشارات قاسم أمين إلى تاريخ الاستبداد فى مصر، فهو

يلمح إلى الظلم الذى حاق بالفلاح المصرى فى عصر إسماعيل فى كتابه «المصريون»(٤٨)، والظلم من نتائج الاستبداد الشرقى فى العادة، ولكنه يضع النقاط على الحروف فى كتاب «تحرير المرأة»، ويقول: «كل المصريين الذين عاشوا تحت حكم المستبدين السابقين، وما العهد منهم ببعيد، يعلمون أن شيخ البلد الذى يسلب منه عشرة جنيهات كان يستردها مئة من الأهالى»(٤٩) (ولاحظ الربط بين الاستبداد والظلم)، وكان قد قال تعميما قبل هذا التخصيص: «تجردت الجمعيات الإسلامية على اختلاف الأزمان والأماكن من النظامات السياسية التى تحدد حقوق الحاكم والمحكوم.. بل أخذت حكومتها الشكل الاستبدادى دائما»(٥٠).

وهو يربط ما بين عادة الحجاب وظاهرة الاستبداد حين يقول: «بقى الحجاب إلى الآن.. لأنه كان تابعاً لهيئتنا الاجتماعية الماضية، من الجهة السياسية والعقلية والأدبية. كنا محكومين بالاستبداد، فظننا أن السلطة العائلية لا تؤسس إلا على الاستبداد، فسجنا نساءنا وسلبناهن حريتهن»(٥١). أخيراً فإنه يعتبر أن الاستبداد الذى عاشت فيه مصر حتى عصره هو المسئول عن حالة الانحطاط العامة فيها(٥٢).

وينص قاسم أمين فى «المصريون» على أن «السلطة قد استغلت

الأمة المصرية أبشع استغلال»[٥٣]، ويشير إلى الفساد فى الإدارة الحكومية[٥٤]، ويعدد مظاهر الظلم التى كانت تقع على الفلاح[٥٥].

أخيراً فإننا نرى قاسم أمين يهاجم أشد هجوم نموذج الموظف المصرى وخصص لهذا الهجوم مقالاته التى عنوانها «أخلاق ومواعظ»[٥٦].

ولكن السياسة علاقة ذات أطراف، وقاسم أمين لا يخفى انتقاده لطرف «الأهالى» المصريين ولمواقفهم واتجاهاتهم بإزاء الحاكم والإدارة. وهو قد وجد أن السيطرة الإنجليزية قد غيرت الكثير من أحوال ظلم الإدارة للمصريين، وحدت من السلطان المطلق للحاكم للجالس على العرش، بدون أن يحدد هاتين الجهتين بالاسم، ولكنه يرى أن «القوانين السياسية» التى أتى بها الإنجليز، وهو يقصد هنا تنظيمات الإدارة على التخصيص، «قد ارتقت قبل أن نرتقى»[٥٧]، ويحدد: «قوانينا وضعت لأمة حرة، وأخلاقنا أخلاق أمة مسترقة»[٥٨]. وينعى قاسم أمين، من جهة أخرى، تعلق المصريين بحكومتهم من أجل أن تفعل هي كل شىء لهم، بينما يبقون هم بلا حراك[٥٩]. كما ينعى من جهة ثالثة على المصريين ضمور الحس الوطنى عندهم، ويرى «خطباءنا يلقون على أسماع غيرهم أحسن المقالات فى حب الوطن والحث على القيام بالواجبات الوطنية، ولا

يأتى قائل منهم بشيء يبرهن به على أنه شاعر بما يقول»[٦٠]، بل أن قاسم أمين ليخشى ألا تكون أسباب المجتمع الأساسية متوافرة فى مشاعر المصريين: «هانحن نعيش اليوم كل واحد فى جانب الآخر بدون أن يمتزج به إلا امتزاجا سطحيا، كل منا سائر فى طريقه، مهتم بنفسه، لا يجمعه مع الآخر أقل ارتباط»[٦١].

ب - الأخلاق :

ربما كان مدخل الأخلاق أول مداخل قاسم أمين إلى نقد أوضاع مجتمعه، فهو مدار مجموعتى مقالاته فى «المؤيد» بعنوان «أسباب ونتائج» ثم «أخلاق ومواعظ»، وقد بدأ ينشر هذه المقالات منذ ١٨٩٥م، وهى تسبق «تحرير المرأة» التى سيركز فيها على أمور العائلة ومعاملة المرأة بوجه خاص. بل هو يصرح فى «تحرير المرأة» بأن حال المرأة يتبع حال الآداب[٦٢]، وهو يقصد بالآداب الأخلاق. ويرى قاسم أمين أن الاستبداد السياسى كان السمة العامة لنظم الحكم فى «الجمعيات الإسلامية»، أى المجتمعات، و«أول أثر يظهر فى الأمة المحكومة بالاستبداد هو فساد الأخلاق»[٦٣]، وتأتى التربية كعامل جوهرى آخر فى «انحطاط الآداب»[٦٤]، كما أن التأخر فى العلوم والمعارف سبب ثالث «فى

انحطاط آدابنا»[٦٥]، وفى هذا النص يأتى قاسم أمين بأمثلة كثيرة، ليخلص إلى القول: «كل هذا برهان على انحطاط أخلاقنا»، ونلاحظ أن كلمتى الآداب والأخلاق مترادفتان عنده، كما يدل قوله بعد ذلك بسطور: «رقى فى الآداب والأخلاق»[٦٥]، ويؤكد قاسم أمين على أن الركود والجمود كانا سمتا المجتمع المصرى لأجيال طويلة وفى مختلف المجالات، «وبقى الناس خلال مئات السنين فى جمود وصمت»[٦٦]، فإذا جئنا إلى جانب الآداب على الخصوص وجدنا «سلطان الأخلاق القديمة لا يزال نافذاً فى نفوسنا، وله أثر ظاهر فى أعمالنا»[٦٧]. ويعدد قاسم أمين مواطن الانتقاد الأخلاقى فى المواطن المصرى فى عصره والتى نتجت عن تراكم أوضاع المجتمع خلال العصور: ففى «المصريون» يشير إلى سلبية المصرى بطريق غير مباشر حين يتناول أشكال القهر التى خضع لها[٦٨]، وإلى استغراقه، من حيث هو مسلم، فى أحلامه ونفوره من الاتصال بمصادر الاستمتاع فى العالم، وهو ما يفسر به قاسم أمين كونه على الدوام، على التقريب، جاد المظهر، صامتا، حزينا[٦٩]. وفى «تحرير المرأة»، ومنذ صفحاتها الأولى، يشير إلى سيادة الشعور بالعجز واليأس عند مواطنيه، وهو «صورة من صور الكسل أو مظهر من مظاهر الجبن أو حال من أحوال من لاثقة له بنفسه، ولا

بأهله ولا بملته ولا بشرعه ولا بإلهه، وأراهم بهذا يستسلمون إلى تيارات الحوادث تتصرف فيهم كما تتصرف فى الجماد والنبات، وتقذف بهم إلى حيث يحبون ولا يحبون[٧٠]. ويؤكد على الكسل على الخصوص فى جانبيه الحركى والمعنوى[٧١]، وإلى النفاق الذى يتمثل، بين ما يتمثل فيه، فى ادعاء حجب النساء فى البيوت بينما من المشاهد حالات من الفسوق تحت ثوب التعفف عند النساء[٧٢]، وأخرى من مظاهر خضوع الرجال لاستثارة الشهوة عند أدنى مناسبة بسبب عدم الاختلاط السليم الصحى: «وقد شاهدت مراراً، كما شاهد غيرى... أن الرجل الذى لم يتعود الاختلاط بالنساء، إن لم يغلبه سلطان التهذيب القوى، لا يملك نفسه إذا جلس بينهن، فلا تشبع عينه من النظر إليهن ومن التأمل فى محاسنهن، وينسى فى ذلك كل أدب ولياقة، وربما طلب الوسائل لملامستهن بيده أو مماستهن بكتفه، ويندفع إلى أقوال وأعمال تشمئز منها نفوس الحاضرين»[٧٤]. وأخيراً، فإن قاسم أمين يرى أن نظام تعدد الزوجات أصبح يستخدم كحيلة شرعية لقضاء الشهوة البهيمية، وفى هذا ما يدل على فساد الأخلاق واختلال الحواس والشره فى طلب اللذائذ[٧٥]. وفى كتاب «المرأة الجديدة» يعود إلى مظاهر من هذا النقد للأخلاق الجنسية، فيشير إلى موارد الفحش فى القول

التي ترد من التربية الفاسدة ومن المناسبات الاجتماعية، «ومنها حضور الأطفال في حفلات الأفراح، ومشاهدتهم وسماعهم الأغاني التي تدور كلها على الحب الشهواني»[٧٦]، كما يعود إلى تأكيد سمات الأخلاق السلبية التي تزرعها التربية الفاسدة: «يمكنني أن أقرر.. أن جميع العيوب التي تشاهد عند الأطفال، مثل الكذب والخوف والكسل والحمق، هي ناشئة من جهل الأبوين بقواعد التربية»[٧٧]. وينتبه قاسم أمين إلى سمة دقيقة سلبية في الشخصية المصرية، لعلها لا تزال قائمة نافذة إلى اليوم، وهي خوف الحرية، وكأن الكل لا يفهم لكلمة «الحرية» هذه معنى، ولا يقدر لها قيمة[٧٨]، و«الناس يستخفون ويهزؤون بالحرية، بل ويتألمون منها»[٧٩]، في إشارة إلى التنظيمات الجديدة التي أتى بها الاحتلال الإنجليزي.

ولكن مقالات «أسباب ونتائج» و«أخلاق ومواعظ» هي التي خصصها قاسم أمين بأسرها للنقد الاجتماعي والأخلاقي، وفيها يفصل القول في سمات سلبية محددة لمواطني عصره ويمثل عليها أدق تمثيل، في لغة أدبية رائعة، ومنها سمات : عدم الاستقلال في المعيشة[٨٠]، والشح والسفه[٨١] والأنانية المفرطة[٨٢]، وخاصة في الطبقات العليا من الإدارة، ويخص الموظف الحكومي بسمات النفاق

مع الجميع[٨٣]، والسلبية التي شعارها «وأنا مالي!»[٨٤]، وإيثار المنفعة الشخصية على تلك العمومية[٨٥]، إلى غير ذلك، كما يهتم بتحليل السمات السلبية من وجهة النشاط الاقتصادى، فيؤكد على التكاسل وعدم الرغبة فى العمل والسفه فى الإنفاق وافتقاد الطموح وإيثار العمل الحكومى، فى صفحات رائعة تحت عنوان «الحالة الاقتصادية فى مصر»[٨٦].

أما هؤلاء الذين يعيشون فى وهم تفوق مزعوم «للشرق» على الغرب من ناحية الآداب، فى مقابل تفوق الغرب فى العلوم، وهو قول «من قبيل ماتنشده الأمهات من النغائم لتنويم الأطفال[٨٧]، فإن قاسم أمين يهتم بالرد عليهم تفصيلا، ومحور كلامه هو الرابطة الضرورية التى يضعها ما بين العقل والأخلاق وبين العلوم والآداب، وينتهى بعد الفحص الطويل للأمر إلى القول: «نستنتج مما سبق أن تقدم الغربيين فى العلوم ساعد كل المساعدة على ترقيتهم فى الآداب، وأن تأخر المعارف عندنا كان سببا فى انحطاط آدابنا»[٨٨]. ثم يمضى على الفور إلى نظرة جامعة إلى خلاصة ما يراه انحطاطا فى أخلاق المصريين فى عصره فى أهم الميادين، حتى أن نقده الحاد لتلك الأخلاق يصل إلى حد رد ما قد يبدو وكأنه من المحاسن إلى عيب ما : «هذه حوادث عائلاتنا.. وهذه حوادث

القـرى... وهذه حـوادث الوطن... كل هذا برهان على انحطاط أخلاقنا. وما يكون عندما من محاسن الأخلاق، كالكرم المعهود فى كثير من بلاد الأرياف، يرجع فى الحقيقة إلى عيب من العيوب كالتنافس فى حب الشهرة، ولهذا ترى الكثير من أعيان البلاد المشهورين باكرام الضيف والمبالغة فى الاحتفال به يسيرون فى سائر شئونهم على خلاف مقتضى الكرم، فيظلمون الفقير ويطمعون فى أموال الضعفاء من أقاربهم، وخصوصا النساء منهم، ويضيقون على عائلتهم فى المعيشة، ويأتون من ذلك ما تأباه النفس الكريمة»(٨٩).

جـ - الاجتماع:

رأى قاسم أمين «الجمعيات» الإسلامية فى عصره عامة فى حالة «تحلل» كامل(٩٠)، ورغم أنه يتمنى أن تكون مصر استثناء على هذه القاعدة بالنظر إلى إرادتها لأن تتبوأ المكان اللائق بها فى العالم نظرا إلى مركزها وإلى ماضيها(٩١)، إلا أن هذا الوصف العام ينطبق من غير شك على المجتمع المصرى، على الأقل إلى سنوات قليلة من قبل وقت كتابة هذا التحليل (١٨٩٤م). ويحدد قاسم أمين فى كلمات دقيقة متتابعة أهم سمات المصريين فى

عصره، ونراها مختارة فى مجموعها من الوجهة الاجتماعية، وهى: اللامبالاة، الفرقة، التحاسد، الإهمال، الكسل، الجهل، الاعتقاد فى الخرافات، وإن كان يسارع إلى القول بأننا نجد هذه الصفات «عند المصريين الذين لم ينالوا حظا من التعليم والذين يعيشون فى الواقع بمعزل عن مبادئ ديننا الجميل»(٩٢). ويعاود الإشارة إلى «حب السكينة» والكسل(٩٣) وإلى الجمود وإهمال بذل الجهد(٩٤)، حتى لكأننا «جميعا مصابون بشلل فى أعصابنا»(٩٥). وقد سبق أن أشرنا فى القسم السابق المتصل بنقده الأخلاقى إلى أبرز السمات السلبية التي يحللها قاسم أمين فى «أسباب ونتائج»، وهى أخلاقية فى بعض جوانبها واجتماعية فى بعضها الآخر، ونؤكد هنا خاصة على سمة عدم التواصل الاجتماعى بين أفراد المجتمع. وقاسم أمين يربطها من ناحيته إلى سمة سلبية أخرى هى التباغض ومحبة الطعن فى الآخرين، والاستمتاع بإلحاق الأذى بهم، فيقول فى نص نموذجى على دقة نظره ورهافة إدراكه ونصاعة تعبيره وعلى قدراته الوصفية والتفسيرية معا: «نرى أهل بلادنا (قد نشأوا أولادهم)، على ما نراه، ممتازين بمهارة غريبة فى انتخاب مطالبهم مما يضر بالغير. فهم يتهافتون على العمل النافع لهم إذا كان فيه أضرار بالمصلحة العامة، وقد لا يقبلون عليه إذا تجرد عن ذلك»(٩٦).

ونلاحظ هنا أن قاسم أمين عمل بالنيابة وبالقضاء، فخبر خفايا المجتمع فى الريف والمدن على السواء، فكلامه كلام الخبير الأمين. ونضيف أن هذا النص كتبه قاسم أمين من وجهة اجتماعية مقصودة، حتى لترد كلمة «الاجتماع» فيما يليه من سطور عدة مرات، إلى جوار «الوطن» و«المجموع» و«جمعيات» و«جمعية»، حيث يقابل الكاتب ما بين «حب الاجتماع» و «حب النفس»[٩٧].

ونرى قاسم أمين مهتما بصفة خاصة لجمود المجتمع المصرى واستنكاره لكل تغير ورفضه لكل تغيير، فمال إلى حب السكينة ونسى الحركة، حتى ليشبهه قاسم أمين بالجماد[٩٨]، وبالأرض البائرة التى لا يصلح فيها نبات[٩٩]، بينما البلاد الغربية حياتها جهاد مستمر، أى جهد وتصارع، فى الداخل والخارج[١٠٠]، وكذا الحال أيضا مع عزوف المصريين عن الإقبال على الحرية فضلا عن ممارستها، بينما الحرية هى التى تهيئ النفوس للعمل، وهى أساس كل عمران[١٠١].

ويتكرر عند قاسم أمين الهجوم على «الرأى العام»، وخاصة بعد ما شهد منه على أثر ظهور «تحرير المرأة». وهو يتهمه بالتناقض وبالخضوع للهوى وبالجهل على الخصوص. وفيما يخص التناقض، فإن الرأى العام يشدد فى مسئولية المرأة فى بعض الأحيان ولكنه

ينكر عليها حريتها فى نفس الوقت. «فإذا استهوى رجل عمره أربعون سنة بنتا عمرها خمسة عشر سنة، وانتهز فرصة ضعفها وفسق بها، يحكم الرأى العام أن هذه البنت الصغيرة هى التى فقدت شرفها، ويهمل شأن الرجل، كأنه لم يأت منكراً»[١٠٢]. ولكن أقسى هجوم لقاسم أمين على الرأى العام نجده فى مذكراته الخاصة، حيث يقول وذكرى الهجوم عليه بعد نشر «تحرير المرأة» ماثلة أمامه على ما يبدو: «إذا رأيت الرأى العام معاديا لكاتب وأعد له خصوما يتسابقون إلى نقض أفكاره وهدم مذهبه، وعلى الخصوص إذا رأيتهم ذهبوا فى مطاعنهم إلى السب والقذف، فتحقق أنه طعن الباطل طعنة مميتة ونصر عليه الحق»[١٠٣].

أخيراً، وليس آخرا، فإن قاسم أمين يرى أن أهل عصره يفتقدون إلى بعض من المقومات الضرورية لقيام المجتمع. من هذه المقومات «الإحساس الوطنى»[١٠٤]، وايثار المنافع العمومية. وينعى قاسم أمين على مصريى عصره افتقادهم إلى احترام وطنهم، ويخصص مقالة فى «أسباب ونتائج» عنوانها: «إحساس الاحترام»، ويقول «إن أهم شىء يحفظ الأمم ويزيد فى رفعة شأنها هو احترام جملة أمورها الجوهرية الأساسية، مثل الدين والوطن والسلطة العمومية والعائلة والعلم والفضيلة وكل عمل شريف أو

جميل أو نافع»، «ونحن معاشر المصريين، ويالأسف، لا نحترم وطننا، ولا نعرفه، وكثيرا ما نتكلم عنه بالاستخفاف والاحتقار، ونحكم عليه كما نسمع من الأجانب الذين لا يمكن أن يعرفوه كوطن لهم بحال من الأحوال، وفاتنا أن كل عيب منسوب له فى الحقيقة لنا، حتى أن كلمة «فلاح» التى كان الأتراك يستعملونها فى مقام الذم عندما كانوا يتكلمون عن كل ما هو مصرى، اتخذها المصريون عنوانا على احتقار بعضهم بعضاً»(١٠٥). ثم يمضى قاسم أمين فى التمثل على افتقار المصريين لاحترام الأمور الجوهرية الأخرى التى عددها فى أول كلامه، وذكرنا هنا ما يتصل منها بالوطن. وأما إيثار المنافع العمومية، فإنه يعرض لها فى مقالة بعنوان «حب النفس»، ويرى أن «التربية الحسنة النافعة إنما تظهر فى اختيار المنافع الشخصية وانتخاب ما يكون منها موافقا لمصلحة الهيئة الاجتماعية، فيخدم الإنسان نفسه ويخدم الناس فى آن واحد»(١٠٦)، ثم يدلل على غياب احترام هذا المسلك عند أهل عصره(١٠٧).

ولا نترك هذا القسم بدون أن نشير إلى أن قاسم أمين يتجه بانتقاداته إلى مجتمع المدينة خاصة، وهو يميز فى أكثر من مناسبة ما بين الريف والحضر، معليا أحيانا من شأن الريف، نسبيا، فى

أكثر من مسألة[١٠٨].

د - العائلة :

الحديث عن العائلة المصرية هو مدار اهتمام قاسم أمين فى كتابيه «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة»، وفى الأول منهما خاصة، وفى هذا الإطار تدخل انتقاداته التفصيلية لأوضاع المرأة من جهة وسمات حياتها من جهة أخرى، تلك المرأة التى يعتبرها قاسم أمين الركن الركين فى بناء العائلة. وكان قاسم أمين قد خصص فصلاً كاملاً فى «المصريون» عنوانه «النساء»[١٠٩]، وفيه يرسم صورة تفصيلية للمرأة المصرية من شتى جوانبها، مظهرا وسمات وأحوالا، وهو هنا يقدم صورة شاملة يعنينا الآن ما تتضمنه من مواضع الانتقاد. فبعد أن يصفها من جهة المظهر الجدى، يقول : «وأما من الناحية المعنوية، فإنها كائن كسول، وذات طبيعة تأملية، ولا تميل إلى العمل والنشاط بالمرة»[١١٠]، ولا شك أنه يصف هنا نساء الطبقة العليا وتلك المتوسطة فى المدن. ويضيف: «إنها تتكلم معظم الوقت، وتضحك كثيرا، وهى تعز دينها ولكنها لاتمارسه على الإطلاق، وليس لها من مثل أعلى تسعى إلى تحقيقه وتقنع بما فى حياتها الواقعية»[١١١]. كما نرى قاسم أمين فى نفس الفصل ينعى

الجـهل المطبق الذى هو نصـيب النسـاء وافـتـقـارهن إلى التـعليم المناسب. ولكن إطار كتاب «المصريون» إنما هو إطار دفاعى، ولا يهدف إلى الانتقاد بالذات، لذلك فإن علينا أن نتجه نحـو «تحرير المرأة» لنرى موقفه من أحوال المصريات وسماتهن.

هذا الكتاب يرسم صورة قاتمة للمرأة المصرية. فأما من الناحية الوجدانية، فإنها كائن لا يعرف قيمة الحياة، ولا يعرف معنى الحب، ولا يعيش مع قرينه، الذى هو الزوج، معيشة مشتركة لا وجدانياً ولا عقلياً، لأنها «متأخرة عنه فى العقل والتربية تأخراً فاجشاً»، و«المرأة الجاهلة تجهل حركات النفس الباطنة، وتغيب عنها معرفة أسباب الميل والنفور»(١١٢)، و«الزوجة المصرية، مهما كانت، لا تعرف من زوجها سوى أنه طويل أو قصير، أبيض أو أسود. أما قيمة زوجها العقلية والأدبية وسيرته وطهارة ذمته ودقة إحساسه ومعارفه وأعماله ومقاصده فى الوجود،... فهذا لا يصل إلى عقلها شىء منه، وإن وصل فلا يؤثر على منزلته فى نفسها»(١١٣). ويتطرق قاسم أمين إلى بعض عادات النساء مما يتصل بالميل والنفور فى الحياة الزوجية: «فأكثر النساء لم يتعودن على تسريح شعورهن كل يوم، ولا على الاستحمام أكثر من مرة فى الأسبوع، ولا يعرفن استعمال السواك، ولا يعتنين بما يلى البدن من الملابس، مع أن

جودتها ونظافتها لها أعظم تأثير فى استمالة الرجل، ولا يعرفن كيف تتولد الرغبة عند الزوج، وكيف يحافظ عليها، وكيف يمكن تنميتها، وكيف تكون موافاتها»[١١٤]. وينتقد قاسم أمين أيضا قدرة الحكم عند النساء وما يمكن أن نسميه بسلم القيم عندهن: «نرى نساءنا يمدحن رجالاً لا يقبل رجل شريف أن يمد لهم يده ليصافحهم، ويكرهن آخرين ممن نعتبر وجودهم شرفا لنا... فأحسن رجل عندها هو من يلاعبها طول النهار وطول الليل... وأبغض الرجال عندها من يقضي أوقاته في الأشغال في مكتبه»[١١٥]. ومن الواضح أن علة هذا كله إنما هو نقص تربية المرأة والجهل الذى تربت عليه وتعيش فيه : «إن مثار هذه الحوادث جميعها هو شيء واحد، وهو المرض الملم بجميع العائلات، لا فرق بين فقيرها وغنيها، ولا بين وضيعها ورفيعها ، وهو جهل المرأة»[١١٦].

وفى المقابل فإن ظلما عظيما يقع على المرأة المصرية. انها «اليوم فى حالة انحطاط شديد، وليس لذلك سبب آخر غير كوننا جردناها من العقل والشعور، وهضمنا حقوقها المقررة لها وبخسناها قيمتها. وقد جرنا حبنا لحجاب النساء إلى إفساد صحتهن، فألزمناهن القعود فى المساكن، وحرمناهن الهواء

والشمس وسائر أنواع الرياضة البدنية والعقلية»[117]. إن الظلم الواقع على المرأة يتصل بحقوقها وبكرامتها وبمكانها فى العائلة والمجتمع، فضلا عن القضاء على شخصيتها المستقلة، ويخصص قاسم أمين صفحة قوية لمظاهر احتقار الرجل للمرأة[118].

إن نتائج هذه الأوضاع الظالمة لا تمس المرأة وحسب، بل إنها تمتد من بعض جهاتها إلى الرجل: «فإنه يهجر منزله، ويستريح إلى العيش فى القهاوى أو عند جيرانه، فإذا رجع إلى بيته طلب العزلة عن زوجته والتزم السكوت»[119]. وإذا كان جهل النساء مسئولا عن سوء تصرفاتهن، وخاصة فى قيامهن على تربية أطفال العائلة، فإن جهل الرجال أيضاً بالطبيعة الإنسانية يجعلهم يرتكبون أخطاء شنيعة فى تربيتهم لأبنائهم، كما سنرى بعد قليل. أما أحوال الأطفال، وهم الطرف الثالث فى الحياة العائلية، فإنها سيئة سوء أحوال الأمهات على الخصوص. وتنتقد مقالات «أسباب ونتائج» بالتفصيل أوضاع الطفل المصرى بين يدى أم لا تعترف بشيء اسمه قواعد الصحة، وتركن فى كل ما يخص مرضه إلى الأولياء والمشايخ والجن والعفاريت، وهى لاتبعد، عن صفات الكذب والتحيل والغش والحمق والكسل والسفاهة لأنه لا يخطر على بالها أنها عيوب شائنة، ويكبر الأطفال على مثال الأم سواء من جهة العقل أو

من جهة العواطف، ولا يكاد الواحد منهم يميز الأمور بعض الشيء حتى يتسارع إلى قلبه احتقار والدته وهذه شئونها»[١٢٠]. وسنعود إلى انتقاد قاسم أمين لطرق تربية الأطفال فى الأسرة ومعاملتهم حين نتحدث بعد سطور عن جانب التربية.

إن خلاصة الأسرة المصرية أنها أسرة لا تعرف الوئام ولا تقوم على المودة والمحبة ولا على احترام الحقوق المتبادلة، فهى مكان الخصومات التى لا تنتهى[١٢١]، حيث لا يثق أحد فيها بأحد[١٢٢]، وحيث الظاهرة الأساسية هى استبداد الرجل بالمرأة إلى حد الاستعباد[١٢٣]، وليس لعبه بحقه فى الطلاق[١٢٤] إلا مظهرا واحدا من مظاهر هذا الاستبداد.

وقد سبق أن أشرنا إلى نقد قاسم أمين للأخلاق المتصلة بالسلوك الجنسى، ونضيف هنا أن قاسم أمين يضع النقاط فوق الحروف، فيما يتصل بنظام الزواج نفسه، وهو المدخل الضرورى لقيام العائلة، ويرى أن المجتمع يحيله إلى تنظيم «لحيازة رجل لامرأة يوما أو شهرا أو سنة أو عدة سنين، حيازة تنتهى لمجرد إرادة الرجل، ولا فرق بينها وبين الحيازة غير الشرعية ما جاز للرجل أن يدفع زوجته إلى الباب ويقول لها : اخرجى»[١٢٥]، بل أن جوهر هذه الحيازة جوهر جنسى هدفه متعة الرجل[١٢٦]، حيث

يشير قاسم أمين إلى تعريف بعض الفقهاء لعقد الزواج بأنه «عقد يملك به الرجل بضع المرأة»[١٢٧]، بل ينعى على كتب الفقه أنه لم يجد «فيها كلمة واحدة تشير إلى أن بين الزوج والزوجة شيئا آخر غير التمتع بقضاء الشهوة الجسدانية، وكلها خالية عن الإشارة إلى الواجبات الأدبية»، وذلك بينما نجد فى آيات القرآن الشريف ذاته تعريفات أخرى له ترفع من مقام الزواج ليكون مقام سكن ومودة ورحمة[١٢٨]. ويصف قاسم أمين فى مذكراته ذكرى لاتزال تؤرقه لخبرة مؤلمة مر بها بينما كان سنه لا يتجاوز تسع سنين، ولكنه لايزال يتذكرها كما لو كانت حصلت منذ أسبوع، وتدور حول عادة «فض البكارة» بالاصبع ليلة حفل زواج[١٢٩]، وهى متعددة الدلالة على مركزية الجنس فى تصور المجتمع لتنظيم الزواج وعلى معنى «حيازة» الرجل للمرأة، تلك المرأة التي لا يراها الرجل إلا مجرد «ذات بهيمية... مغمورة بالزينة»[١٣٠]، ويريد قاسم أمين أن يراها شقيقة الرجل وشريكة الزوج ومربية الأولاد ومهذبة النوع[١٣١].

ولكن إذا كانت هناك مسألة اشتهر بها موقف قاسم أمين فى وعى الرأى العام فى عصره، فإنما هى مسألة الحجاب، وتتداخل معها على نحو وثيق مسألة خروج المرأة خارج بيتها.

هـ - التربية :

ينسى الكثيرون أن قاسم أمين يهتم بالمرأة فى ذاتها مرة، ولكنه يهتم بها من حيث دورها فى صناعة النشء مرات، ولهذا فإن مسألة التربية هى الوجه الآخر لمسألة المرأة فى فكر قاسم أمين. إن قاسم أمين غير راض عن مجمل أوضاع التربية فى مجتمعه، وربما يرجع تشخيصه لسلبيات تلك التربية إلى تعبير أساسى، هو: «النقص فى تربية نفوسنا»(١٣٢). وقد كرس قاسم أمين قسما عظيما من مقالات «أسباب ونتائج» لموضوع التربية(١٣٣)، ومنها ثلاث مقالات لها عنوان «عيوب تربيتنا»، خصها لتناول كلٍ من خصلة حب النفس والكسل والافتقار إلى إحساس الاحترام، ثم درس «الأمهات والتربية» فى مقالة بمفردها. فى هذه المقالة الأخيرة يصرح: «أرانى مضطراً أن أجهر باعتراف يشق علىّ كثيرا، ألا وهو أن الأم المصرية لم تُهيأ مطلقاً لأن تقوم بوظيفتها فى العائلة»(١٣٤)، وتربية الأولاد تقع ضمن هذه الوظيفة. «إن حالة الأمهات لا يمكن السكوت عليها والاستمرار على قبولها»، فنادراتٌ جداً من يعرفن القراءة والكتابة، ولا إلمام لهن بالحقائق العلمية ولا بأحوال الدنيا»، «فهن آثار عتيقة لأجيال مضت وبقايا أزمنة بعيدة»(١٣٥)، ولهذا فإنهن بغير منفعة حقيقية لأطفالهن(١٣٦)، بل

ربما كن مصدر مضرة محققة. يقول فى نص طريف تظهر فيه قدراته كملاحظ خبير بأمور مجتمعه: «أنظر إلى ما تعمله امرأة مصرية مع ولدها تجده مما لا يصدر عن إنسان عاقل يقدر لعمله نتيجة. مثال ذلك أنها تمنعه من اللعب كى لايشوش عليها، وهى لا تدرى أنها بمنعها له عن اللعب، تقف فى سبيل نموه، وإذا أرادت أن تؤدبه هددته بما لا يستطيع أو بما لا تريد أن تنفذه، أو خوفته بموهومات تثير فى ذهنه خيالات ربما لازمته مدة حياته، وإذا أرادت أن تكافئه وعدته بوعود لا تفى بها، فتكون له بذلك قدوة فى الكذب... إلخ»[١٣٧].

أما الآباء، فلهم أخطاؤهم. فهم يظنون أن تربية الطفل عبارة عن وضعه فى المدرسة، بينما يدعو قاسم أمين إلى التمييز بين التعليم، أى الحصول على المعارف، والتربية هى «تربية الروح»[١٣٨]، أو هى بوجه عام «تنمية القوى المودعة فى الإنسان»[١٣٩]. وحتى المعارف التى ينالها التلميذ فى المدرسة ناقصة، فى رأى قاسم أمين، مما يراه هو جوهريا، ألا وهو «التربية العلمية الصحيحة»[١٤٠]: «إن التربية العلمية لم توجد في العالم الغربى إلا من زمن قريب، وهي لا تزال إلى الآن مفقودة فى الشرق، والمحروم من هذه الزبية لا يسهل عليه أن يبنى أحكامه على مقدمات

صحيحة»[١٤١]. أما ما تناله البنات فى مدارسهن القليلة فما هو إلا مجرد «قشور»[١٤٢].

وإذا أتينا الآن[١٤٣] إلى وسائل التعليم والتربية، وجدنا قاسم أمين شديد الافتقاد للكثير منها. فالتعليم ينظر إليه على أنه «تخزين كمية من المعارف المقررة فى بروجرامات المدارس ثم امتحان ثم شهادة»[١٤٤]، والضرب يستخدم عادة فى الفصول[١٤٥]. ويشير قاسم أمين فى موضع مستقل إلى أن نظام الاستبداد السياسى يجعل «الإنسان لا يحترم إلا القوة ولا يردع إلا بالخوف»[١٤٦]. ومن جهة أخرى ينتقد قاسم أمين عدم الاهتمام بتربية الجسم والعقل معا[١٤٧]، وعدم الاهتمام باتصال المتعلم بالخبرات الحياتية المباشرة[١٤٨].

و - العواطف والوجدانيات :

ربما كان قاسم أمين أول كاتب مصرى كبير يهتم قصداً وبالتفصيل بالجانب العاطفى فى التكوين الإنسانى. ويدخل تحت هذا العنوان ما يتصل بالقيم وأهداف الحياة عامة، وما يتصل بعالم المشاعر الداخلية والعلاقات الإنسانية، وأبرزها علاقة الرجل بالمرأة، بصفة خاصة. «الإنسان محتاج إلى أن يكون محبا، وأن

يكون محبوبا»[١٤٩]، و «سل جمهور المتزوجين: هل هم محبوبين من نسائهم؟ يجيبونك: نعم. لكن الحقيقة غير ما يظنون. أنى بحثت كثيراً فى عائلات مما يقال إنها فى اتفاق تام، فما وجدت إلى الآن لازوجا يحب امرأته، ولا امرأة تحب زوجها». وسبب رئيسى لهذا «انهما الاثنان جاهلان لايدركان قيمة الحياة، وهذا الحال الأخير هو حال أغلب الأزواج المصريين. ولا أرى ما يقرب من السعادة إلا فى هذا النوع الأخير، وإن كان سعادة سلبية لا قيمة لها»[١٥٠]. إن «رقة الإحساس» مفقودة فى حياة الأسرة المصرية[١٥١]. فإذا انتقلنا إلى حياة المشاعر الباطنية، وجدنا «أننا جميعا مصابون بشلل فى أعصابنا، حتى صرنا لا نتأثر من شيء مهما بلغ فى الحسن والقبح، فإذا رأينا عملا جميلا مدحناه من طرف اللسان، وإذا شاهدنا فعلا قبيحا استهجناه بهز الرؤوس وظاهر من القول، بدون أن نشعر بانبعاث باطنى يقهرنا على الاندفاع إلى الأول ولا على الابتعاد عن الثانى»[١٥٢]. والحسن والقبح تعبير عن عالم القيم.

وفراغ العواطف والمشاعر وشكليتها يراه قاسم أمين سمة الشعراء في عصره، وكذا سمة خطباء الوطنية: «ترى شعراءنا ينمقون القوافي في وصف ما يكابد العاشق من مرارة العشق

وآلامه، وهم لا يعشقون، وخطباءنا يلقون على أسماع غيرهم أحسن المقالات فى حب الوطن.. ولا يأتى قائل منهم بشىء يبرهن به على أنه شاعر بما يقول»[١٥٣]. ويحكى قاسم أمين عن زيارة قام بها مع ثلاثة من المصريين إلى متحف «اللوفر» فى باريس، ويتندر على تعليقاتهم الساذجة التى لا تدل على اهتمام بالفنون، ويستخلص العبرة العامة: «لكل أكبر الأسباب فى انحطاط الأمة المصرية تأخرها فى الفنون الجميلة: التمثيل والتصوير والموسيقى. هذه الفنون ترمى جميعها على اختلاف موضوعها الى غاية واحدة، هى تربية النفس على حب الجمال والكمال، فاهمالها هو نقص فى تهذيب الحواس والشعور»[١٥٤].

وأما من حيث أهداف الحياة، فإن قاسم أمين ينظر حوله فلا يرى إلا مظاهر الخمول إلى حد أن يصرح كما رأينا: «إن المصريين أصبحوا فى خمود أشبه بالموت»، ويدلل على هذا بأمثلة مما فى الأسواق وبين التجار، الذين قد يقضى الواحد منهم نهاره ما بين تحيات فارغة ومناقشات لدودة وايمان كاذبة، ثم لا يبيع إلا «قطعة أو قطعتين كل النهار، فيربح قرشا أو قرشين». ثم ينظر إلى «أرباب الأشغال العقلية»، من مثل الطبيب والمهندس، فيجد حياتهم فارغة هى الأخرى: «فهلا خطر ببال ذاك التاجر أو هذا الطبيب أو

المهندس وأمثالهم أن يخرجوا من هذه الحالة الدنيئة، وأن يزيدوا فى أعمالهم فيزيدوا فى جنى ثمارها؟»[١٥٥]. إن المصرى يفتقد إلى حس الجهاد فى الحياة والمخاطرة من أجل استزادة موارد كسبه، ليتسنى له أن يحسن غذاءه وملبسه ومسكنه، وأن يستعمل ما يزيد بعد ذلك عن حاجاته المادية فى ترقية عقله». «ولاتحسبن أن المانع من اهتمام المصرى بترقية شأنه قناعة فى النفس وزهد فى الأموال... [انما هو] لا يحب الشغل ولا ينشط لعمل فيه رزقه.. [انه] يحب أن يكون أغنى الناس على شرط أن لا يتعب جسمه ولا يجهد فكره[١٥٦]، هذه بعض من معالم «سقوط» المصرى[١٥٧].

ز - الأدب والعقليات :

يعترف قاسم أمين فى كتابه الدفاعى «المصريون» بغياب الإنتاج الأدبى فى مصر غيابا كاملا، فيما عدا حوالى عشرين جريدة أو مجلة، ويخص بالذكر غياب الرواية والمسرحية[١٥٨]. وإذا كان يسخر من الفراغ العاطفى للشعراء كما رأينا، فى «المرأة الجديدة»[١٥٩]، فإنه أشد انتقاداً لطائفة الكتاب عامة فى مذكراته الخاصة. فيقول تعميما: «الشعراء والكتاب والعلماء عندنا لا يعبرون عن أفكارهم فيما يكتبون، وإنما فى عقولهم مخازن تحفظ ما يدخل

فيها بالقراءة والسماع.. كل عملهم محصور فى تكرار أفكار الغير التى حفظوها كما يحفظ الأطفال القرآن»[١٦٠]. ويجد نفس سمة التكرار هذه فى جرائد عصره، وهى لا تزال سمة جرائد عصرنا هذا أيضا: «إذا قرأت الجرائد تجدها جميعها متحدة فى موضوعها، متشابهة فى تحريرها، بحيث لا تكاد تشعر باختلاف بين إحداها والأخرى، وإذا اجتمعت فى اليوم بعشرين رجلا من معارفك تسمع من التسعة عشر الآخرين ما سمعته من الأول»[١٦١].. وينعى قاسم أمين على أهل عصره انغمارهم فى قشور الألفاظ[١٦٢]، واغترارهم بلغتهم العربية، بينما كل شىء يشير، فى رأى قاسم أمين، إلى «وجوب إصلاح اللغة العربية»[١٦٣]، ويقابل بين اغترار المصريين بعاصمتهم واغترار الأدباء بلغتهم: «أجمع قومنا على أن لغتنا لا تزال حتى الآن حافظة مركزها الأول، ويزعمون أنها سيدة اللغات، كما أجمع عامتنا على أن مصر أم الدنيا»[١٦٤]. ويعمم حكمه بالسطحية على الأدباء وغيرهم: «من اختبارى لأرباب الأفكار الذين اختلطت بهم يظهر لى أن الحمية عندهم سطحية لاتذكيها نار لتوقد فى القلب، حمية ألفاظ متى انتشرت عادت هباءً لا تترك أثراً بعدها»[١٦٥]. إن الكتاب المصريين لا هم لهم إلا تملق جمهور القراء، وليس العناية

بإبداء أفكارهم(١٦٦)، وأهل العلم لا يطلبونه إلا «وسيلة لمزاولة صناعة أو للالتحاق بوظيفة، أى لكسب المال، أما حب الحقيقة والاستغراق فى تحصيلها، فلا فائدة فيه»(١٦٧) (أى فى رأى أهل التكسب هؤلاء). إنهم قوم لا يحركهم شوق معرفة الحقيقة، ولا حتى شوق معرفة الآخرين، فالشرقى والمصرى «يعيش بجانب الغربيين، ولا يعرف شيئا من أحوالهم، وإذا أتى ذكرها عفوا فى بعض الجرائد أو الكتب، فلا يحرك ذلك فى نفسه أدنى شوق للوقوف على معرفة حقيقتها واستطلاع ما خفى منها»(١٦٨). إن عقولنا لا تزال تحت «سلطة الأوهام والظنون والخرافات»(١٦٩)، ولهذا كانت أحكام كتابنا تقودها الشهوات والإلف والعادة، «ومن وجد لشعاع الحق لمعانا فى بصيرته، وجد من خوف اللائمة عُقلَةً فى لسانه تمنعه من إظهاره، أو حمله الرياء على إطالة القول فى تأييد ما يعتقده»(١٧٠). ويضع قاسم أمين إصبعه على صفة سلبية منهجية هى أساس لغيرها مما سبق، ألا وهى عدم التعود على احترام الوقائع، وهو لهذا يقابل ما بين نموذج رجل العقل ونموذج «صاحب النظرية الخيالية»، أو صاحب الأوهام والهوى(١٧١)، وهو المساوى للمحروم من «التربية العلمية»، وفيه يقول قاسم أمين: «الجاهل يستمد حكمه من إحساسه لا من عقله، فهو لا يستحسن الشىء لأنه مطابق

للحق، وإنما يعتقد الشيء مطابقا للحق لأنه يستحسنه»[١٧٢].

أخيراً، وليس آخرا، فربما كان أوجع ما فى انتقاد قاسم أمين لمجتمعه فكريا أنه يفتقد إلى القادة الحقيقيين للأمة من علماء واختصاصيين وفلاسفة[١٧٣]، ويقول ساخراً: «فى مصر كل من يعرف القراءة والكتابة يسمى فاضلا، فإذا درس شيئا من العلم صار عالما مفضالا، فاذا امتاز ببعض الحذق أو اظهاره عد من النوابغ»[١٧٤].

ح - أحوال المسلمين والشعور الدينى :

إذا كان نقد قاسم أمين الدينى يتجه إلى شىء، فإنه إنما يتجه إلى المسلمين لا إلى الإسلام، وهو «الدين الجميل» الذى يعلى من شأنه دوماً، وكما سنرى من بعد. ولن نتعرض هنا، فى هذا الفصل، لدراسة قاسم أمين لأسباب انحطاط العالم الإسلامى وتدهور أحواله إلى حد التحلل، وإنما نشير إلى بعض ملاحظاته بشأن أحوال المسلمين الدينية، وينطلق كتاب «تحرير المرأة» من اثبات قانون التغير قانونا عاما لكل ما هو بشرى[١٧٥]، ويذهب ابتداء من هذا الإثبات إلى إدانة السكون والخمول اللذين يميزان حياة المسلمين، الذين يدفعون كل محاولة للحركة بقولهم: «تلك بدعة

فى الإسلام». ويعلق قاسم أمين: «وما يرمى بهذه الكلمة إلا حب التخلص من مشقة الفهم أو الخروج من عناء العمل فى البحث أو الإجراء، كأن الله خلق المسلمين من طينة خاصة بهم وأقالهم من أحكام النواميس الطبيعية التى يخضع لسلطانها النوع الإنسانى وسائر المخلوقات الحية»(١٧٦).

ويسير قاسم أمين على خطى الشيخ محمد عبده فى الهجوم على الوضع الخاطئ للعقيدة الجبرية(١٧٧).

ويخص قاسم أمين بعض علماء الدين بهجمات متكررة فى «المرأة الجديدة»، فيهاجم «الجهال من فقهاء المسلمين»(١٧٨)، ويضم إليهم الجهال من العامة فى اتهام عام بتحريف فى فهم القرآن الكريم: «نحن لا نكتب طمعا فى أن ننال تصفيق الجهال وعامة الناس الذين إذا سمعوا كلام الله، وهو الفصيح لفظه الجل معناه، لا يفهمونه إلا إذا جاء محرفا عن وضعه منصرفا عن قصده برأى شيخ هو أجهل الناس بدينه»(١٧٩). بل أن الأمر ليس أمر جهل وحسب، بل يتهم قاسم أمين عامة المصريين، بمن فيهم أبناء المدارس وطلبة العلم فى الجامع الأزهر، باتهام خطير: هو التجرد عن «الإحساس الدينى»، الذى يزرع محبة الدين فى النفوس ويربيها على الكمالات الأخلاقية، فتكون للشخص «روح كبيرة ونفس

مترفعة عن الدنايا وإحساس عال قوى»: «نحن، وأسفاه، نكاد نكون مجردين عن الإحساس الدينى الذى يودع فى الشخص تلك الكمالات ويربيها. ولست أتكلم عن أبناء المدارس فقط ، بل وعن طلبة العلم الذين قصروا تعلمهم على ما يلقى فى الجامع الأزهر الشريف من العلوم الدينية وما يتبعها، وأمثالهم، لأن هؤلاء قد تعودوا أن يتلقوا أحكام الشريعة كعلم يجب حفظه فى الذهن، مهملين مع ذلك كل ما ينتج تولد الإحساس الدينى الحقيقى وتنميته»(١٨٠).

ط - الاقتصاد :

نضع انتقادات قاسم أمين للمجتمع المصرى من الوجهة الاقتصادية، أو فلنقل على الأدق من الوجهة المالية والتجارية، أو قل من زاوية الثروة والفقر، نضعها فى هذا الموضع المتأخر لا لأننا لا نحترم ترتيبا منطقيا أو حتى معقولا كان يقضى بتناولها بعد تناول الجانب الاجتماعى مثلا، بل لأن اهتمام قاسم أمين بالجانب الاقتصادى عامة اهتمام ضعيف، برغم إشارة قوية هنا(١٨١)، وتخصيص لعدد من المقالات التى تنشر فى «أسباب ونتائج»، هناك، كذلك لأنه لا يربط هو نفسه ما بين الأوضاع الاجتماعية

والأوضاع الاقتصادية، فضلا عن أنه لا يضع هذه الأخيرة فى مركز بارز بين الجوانب التى يهتم بها من جوانب المجتمع.

فى كتاب «المصريون» يعترف قاسم أمين أمام المنتقد الفرنسى المتعصب: «نعم، لا يزال هناك فى الريف المصرى بؤس عظيم»[١٨٢]، ولكن هذا البؤس يوجد فى الحضر أيضا، وفى العاصمة ذاتها، القاهرة المحروسة، ويوجد بؤس وفقر وكسل وخمول. هذا كله هو الذى تفصل فى انتقاده بعض فصول «أسباب ونتائج».

هناك أساس نظرى كبير وراء انتقادات قاسم أمين، وهو ينص على ذلك الأساس نصاً، ويعيه فى وضوح وعى الملاحظ المنتبه ودارس القانون والاقتصاد فضلا عن صفة الآخذ بالأيديولوجية اللبرالية الغربية على ما ستتطور إليه فى عصور حضارتها حتى القرن التاسع عشر الميلادى: «حياة كل مملكة مرتبطة بماليتها، إذ بالمال يتم كل شيء، وبغير المال لا يتم شيء مطلقا»[١٨٣]. ونلاحظ فى هذا المبدأن أن قاسم أمين لا يتعدى ظاهرة الثروة والغنى، ويظنها قائمة بذاتها، وأنها هى هى، ونقيضها الإملاق والفقر، كل «الاقتصاد»، فنظرته «مالية» وحسب. ونلاحظ أن قاسم أمين يركز على مصدر واحد للثروة، هو التجارة، وإن ذكر مرة، هنا أو هناك،

الصناعة»[١٨٤]، وهو يدرى بالطبع أهمية الزراعة، أو قل، أنه لا ينظر فى النشاط الاقتصادى[١٨٥] إلا إلى نتيجته الأخيرة: تكون الثروات، ثم لا يهتم أى اهتمام بتوزيعها، المهم هو وجود الأغنياء: «المملكة لا تكون غنية إلا إذا كان أهلها أغنياء»[١٨٦].

فكيف حال مصر؟ فلنبدأ من «مصر» الكبرى، ويسميها قاسم أمين تسمية عجيبة بأنها «بلدة»، فيقول: «مصر بلدة فقيرة جدا، نصف أهلها، وهم الفلاحون، يعيشون بالشىء التافه الذى يقى الحى من الموت جوعاً. والنصف الآخر ينقسم إلى قسمين: الأول يشمل التجار والصناع، وهؤلاء ليس فيهم شخص واحد يقال عنه أنه مالى «ملى»، والآخر يحتوى على الموظفين وأرباب المعاشات، وهم الطبقة المتظاهرة بحالة اليسار نوعا ما فى معيشتهم. ولكن أغلبهم إن حل بينه وبين مرتب المعاش شهراً واحداً وقعوا فى العسرة والضنك الشديد. أما أرباب الأطيان من الذوات والعمد والمشايخ والأعيان فى البلاد.. فإنهم واقعون تحت الديون ولا يملكون بعد ذلك شيئا بتعبير ما»[١٨٧]، فالفقر إذن فى مصر عام شامل.

أما «مصر» العاصمة، والمصريون يحبون تسمية القاهرة «مصر» أيضا، فهاهو قاسم أمين يتندر عليها فى قسوة بالغة:

«تقول العامة: إن مصر أم الدنيا، والأصح، إذا قورن بينها وبين مدن الممالك الأخرى مثل لندرة (أى لندن) وباريس وهامبرج وبروكسل وأمثالها، أن تسمى «خادمة الدنيا» لأنها.. فى حالة فقر محزنة»[١٨٨]، ولابد من النص على أن قاسم أمين يتجاهل تعدد معانى التعبير المذكور، وأنه يشير فى الأساس إلى مصر الكبرى، وهى أم الدنيا فى عدد من المعانى بالفعل.

ينزل قاسم أمين الى التفاصيل، ويبرز أمامنا وصفه للأسواق القاهرية خاصة: «سر يوما بين الأسواق المصرية القديمة تجدها كما كانت قبل الطوفان، حقيرة غير منظمة، لا تحرز إلا نوعا أو نوعين من أصناف البضائع العتيقة المهجورة الاستعمال. وتشاهد صاحب الدكان يجلس من الصباح إلى المساء فى شرب الدخان ومطاردة الذباب، عائشاً عيشة بهيمية، لا يتخللها تصور ولا فكر، إلا إذا كان وقيعة بالغيبة ونميمة فى حق جاره»[١٨٩].

أما عن التجارة بوجه عام، فإن قاسم أمين، الباحث الاجتماعى ووكيل النيابة فى الريف والحضر، ينص على أن المصريين كانوا، إلى عهد غير بعيد من وقت كتابته (بعد عام ١٨٩٥م)، ينظرون إلى الاتجار بعين الاحتقار، ويحسبون أنها مهنة لا تتفق مع الشرف والاعتبار، ولهذا لم يشتغل حتى هذا الوقت بالتجارة إلا فئة

قليلة»[١٩٠]، ولعل قاسم أمين يقصد التجارة على المستوى الكبير[١٩١]. أما مصدر معظم الثروات الكبرى فى مصر فإنه من «العطايا والمنح التى كانت تمطر (على أصحابها) بسبب كلمة وافقت المزاج أو لسبب خدمة مخصوصة أو خلق مقبول أو رذيلة محبوبة»[١٩٢]، أى أنها ليست نتيجة لجهد وكفاح على طريقة معظم أثرياء أوربا فى عصر قاسم أمين، الذى هو عصر قمة الرأسمالية، والتجارية منها بوجه خاص. (والإشارة فى النص إلى إنعامات محمد على وأبناء أسرته على البعض لسبب أو لآخر).

هذا عن البؤس والفقر، وهما أمران موضوعيان، ويقابلهما، على مستوى الذات والدوافع والإحساسات، الخمول والكسل. والمبدأ هنا هو ربط الثروة بالعمل، كما ألمحنا فى آخر الفقرة السابقة: «الشىء المهم الذى أرجو ملاحظته هو أن كل ثروة من هذه الثروات الهائلة (فى الغرب) هى نتيجة عمل صاحبها»[١٩٣]. ويأخذ قاسم أمين فى تفصيل صورة رجل الأعمال، «مثلا فى أمريكا»[١٩٤]، ليضع فى مقابلها صورة المصرى المتوسط: «وعلى العكس من ذلك الواحد منا معشر المصريين، أو الشرقيين كافة، فهو كالبرزون الذى يعلق الساقية، يمشى الهوينا خطوة فخطوة، وعلى عينيه غماء، وقد يقف بعد كل خطوة حتى يسمع صوت الفرقلة، فيجاهد بنفسه خطوة ثم

يقف. وهكذا حتى المساء، حيث يقدم له علفه، فيأكله طيبا أو رديئاً، ثم يهوى بجسمه كالشبح المرضوض على الأرض، فينام تعبا كسولا، بل مكسرا مهشما حتى الصباح»[١٩٥]. ولاشك فى طابع المغالاة فى هذا الوصف الكاريكاتورى، الذى يقصد الى الإيقاظ وهز الأفكار هزاً شديداً[١٩٦]، وهذه المغالاة تصل إلى قمتها حين نراه يقول: «المصريون أصبحوا في خمود أشبه بالموت».و«وصلنا بالخمول الذى حافظنا عليه فى المعيشة إلى حدود السكون فالموت»[١٩٧]، ويتخلل هذه الأوصاف جميعا وغيرها مقارنة دائبة مع أحوال الحضارة الغربية[١٩٨]. ويعود إلى بعض اتزان فى وصفه وأحكامه، فيعترف بوجود بعض الأعمال القليلة التى بدأت فى الظهور، كما أن هناك، فى ميدان التجارة «فئة قليلة برهنت على إرادة وإقدام وأصالة رأى تستحق عليها ثناء الأمة المصرية بأسرها»[١٩٩]، ولكنه لا يتوقع لمثل هذه المبادرات القليلة إلا عمر الورود، وذلك قياسا على الحالات السابقة فى التجربة المصرية[٢٠٠].

ويستمتع قاسم أمين بوصف ظاهرة الطفيليين فى المجتمع المصرى، وهم فئة غير قليلة العدد، أولئك الذين يعيشون على كاهل غيرهم من الأهل والأقارب، لشهور وسنين، «بلا سعى ولا عمل ولا حركة»، منتظراً كل منهم أن يأتيه الفرج من باب التعيين فى خدمة

الحكومة[٢٠١].

وهذا باب آخر، يكاد يكون مستقلا، من أبواب الانتقاد القاسمى لأهل عصره: باب وقوف آمالهم على عتبة الخدمة الحكومية، التى يرونها شرفاً وضماناً[٢٠٢]. وحتى الموظف المصرى فإنه بعيد عن الوفاء بأول متطلبات الوظيفة، وهو محض الشغل[٢٠٣].

ويرتبط بالمسائل المتصلة بالثروة والعمل، اتصالا وثيقا، أوجه الصرف التى يوجه إليها المصريون أموالهم، وذلك عند أهل اليسار، فى مقابل ظواهر الكسل والخجول و«عيشة الكفاف»[٢٠٤]، ويخصص قاسم أمين لهذا الموضوع مقالة بعنوان: «كيف يصرف المال»[٢٠٥]. وهو يرى أن الموسرين فى مصر لا يعرفون فن صرف المال، ويقعون إما فى الإفراط بالسفه أو فى التفريط بالبخل والشح وينقسمون هكذا بين فريقين، «كل منها أحط من الآخر وأجهل»، و«كلا النوعين يصرف ماله بكيفية مضرة له وللهيئة الاجتماعية»[٢٠٦].

ى - غير المصريين :

إن قاسم أمين كلى النظرة يرمى إلى إدراك شتى جوانب المسألة فى كل موضوع يتناوله، ولاغرو فهذا طبع القضاة. لهذا،

فإذا كان قد انتقد أهله المصريين من هذه الجوانب التى عددناها، ومن غيرها مما لم نخصص له قولاً مخصوصاً، ولا يزال هناك فى الحق مزيد، فإنه لم ينس، فى غمرة اهتمامه بدفع أهل وطنه إلى إدراك أوجه النقص، وتغييرها، أن يشير أحيانا، هنا وهناك وبحسب المقام، فى كتاب «المصريون» خاصة، وفى إشارات سريعة فى العادة، إلى مثالب غير المصريين ومناقصهم، وخاصة فى علاقاتهم بالمصريين. وقد وجد أمامه أقواما ثلاثة: الأوربيون، والأتراك والشركس ومن شابههم، والشاميون.

ثالثا : التفسيرات :

إن قاسم أمين يبدو عظيما مرة حين استطاع أن يقدم هذه المجموعة الممتدة المتكاملة من الانتقادات لأهل عصره[٢٠٧]، وحين أثبتها ونشرها ولم يعبأ بمنتقدى الانتقاد الذاتى، وحين كان صريحا غاية الصراحة إلى حد الإيلام بل والقسوة أحيانا. ولكنه يبدو لنا عظيما مرتين حين ننتبه إلى أنه لا يكاد يثبت انتقادا إلا ويتبعه بتسبيبه ومحاولة رده إلى أصول من نوع ما. ويمكن أن نقول، إنه فى نفس اللحظة التى كان قاسم أمين، مدفوعا بالحمية الوطنية والغيرة على مكان مصر ومكانة المصريين، يلاحظ وينتقد،

كان أيضا يفسر، وربما أضاف إلى التفسير أحياناً تبريراً ما، وإلى هذا وذلك قد نراه يقدم، أحيانا أقل، نوعاً من الاعتذار عن مواضع الانتقاد التى يثبتها إثبات العالم المحب للحقيقة لا السائر وراء الهوى. ويظهر الاعتذار، النادر، والتبرير، القائم على محاولة الفهم العلمى، فى كتاب «المصريون» خاصة، وهذا أمر طبيعى حيث أنه يقف هنا بإزاء خصم متعصب، بل هو عنصرى بالفعل، خصم يتشح بوشاح العلمية، ويسمح لنفسه بإطلاق الأحكام الأخلاقية وكأنه مصدر القيم. ولا نضرب على اتخاذ قاسم أمين لأسلوب الاعتذار خاصة إلا مثلا واحدا من ذلك الكتاب(٢٠٨).

ولكن الذى يفعله قاسم أمين فى العادة، بعد إثبات الانتقاد، هو رده إلى أسباب، وهو لا يفعل هذا رغبة فى الفهم والإفهام وحسب، وإنما كذلك إعدادا للإصلاح، فمتى عُرف سبب العلة سهل علاجها أو القضاء عليها، وعادة ما يأتى قاسم أمين بالبديل الايجابى للظاهرة السلبية موضع الانتقاد. وسوف نحاول فيما يلى أن نشير سريعا إلى إجابات عن سؤالين:

(أ) أى منظور استخدمه قاسم أمين فى تفسير الظواهر السلبية المنتقدة؟ وسنجد أنه يلجأ، حسب الأحوال وطبيعة الأمر موضع الفحص، إلى المنظور التاريخى وذلك السياسى وذلك

الأخلاقى وذلك الاجتماعى وذلك العلمى أخيراً.

(ب) من المسئول عن «انحطاط» المجتمع المصرى، ومعه «الشرقى» عامة، وفيه بالطبع المجتمع الإسلامى أينما كان على التقريب؟ وسنحاول أن نتحسس الإجابة من خلال النظر إلى أربعة جهات قد تتجه إليها أصابع الإدانة: الديانة، أوربا، المصريون أنفسهم، الطبقة العليا فيهم بخاصة.

أما لجوء قاسم أمين إلى التاريخ بحثا عن تفسير الظواهر العامة، وتلك السلبية منها بخاصة، فإنه أمر ظاهر للعيان لكل من يقرأ كتاباته ولو قراءة سريعة. فإذا أخذنا انتقاداته لأوضاع العائلة على سبيل المثال، وفى قلبها توجد عنده قضية المرأة، رأيناه دائم الرجوع إلى التاريخ مبرزا تأثير التراكم الزمنى(٢٠٩)، وإذا أخذنا انتقاداته للعادات بوجه عام، وجدنا أنه يؤسس مفهوم العادة نفسه على أساس تاريخى(٢١٠)، بل هو يعتبر أن تمسكنا بالماضى، وبالتالى رزوحنا تحت قيوده، «هو من الأهواء التى يجب أن ننهض جميعا لمحاربتها، لأنه ميل يجرنا إلى التدنى والتقهقر»(٢١١).

ويظهر استخدام التفسير التاريخى عند قاسم أمين أوضح ظهور فى كتاب «المصريون»، حيث يهتم فى سائر المسائل التى يعرض لها فيه بإبراز البعد التاريخى لها تمهيدا لفهمها وتفسير

الأوضاع القائمة، ومنها ما لا يوافق عليه هو نفسه. ولنأخذ مثالا حالة الموقف من القيمة الحربية للجندى المصرى. فقد أراد الكاتب الفرنسى الاستعمارى الدوق داركور أن ينفى من حيث الأصل إمكان ظهور «قوات حربية بارعة وشجاعة» من بين صفوف شعب يريد هذا الفرنسى أن يصفه بأنه «مستعبد، بائس، ومبعوث على الخوف»(٢١٢)، فكيف سيكون موقف قاسم أمين؟ إنه لا ينفى أن المصريين ابتعدوا منذ أمد بعيد عن مهنة السلاح(٢١٣)، ويحاول تاريخيا تفسير هذه الواقعة بعدم وجود مصلحة عند المصريين لنصرة الحكام الأجانب، مضيفا بالحرف: «وهذا الشعور مفهوم تماما وهو مبرر أيضا»(٢١٤)، ثم هو يعترف بضعف الجنود العرابيين وبهزيمتهم أمام الإنجليز، ولكنه يضع الأمر فى منظور واسع يجمع ما بين ظروف الغزو الإنجليزى وتاريخ الجيش المصرى منذ محمد على(٢١٥). ثم يحاول ، فى جهد «التفسير»(٢١٦)، أن يشير إلى العديد من العوامل المحبطة للجيش العرابى، وربما كانت الخلاصة تقوم فى هذه الكلمات: «لقد وجد (جنودنا وضباطنا) أمامهم، ولعصور طويلة، حكومة ظالمة، سيئة النية وقاسية. أليس فى هذا سبب حقيقى للإحباط؟ إن هذا، مضافا إلى الغياب الكامل لفكرة الوطن على مدى أحقاب طويلة جدا، هو الذى يفسر فى رأيى

مظاهر العجز والتهاون وقلة التدريب التى شوهدت أحيانا فى جيشنا»[٢١٧].

وقد سبق أن رأينا، فى عرض انتقاداته لأوضاع السياسة والإدارة فى مصر (انظر جـ - السياسة والإدارة، فى ثانيا : ميادين الانتقاد، مما سبق فى هذا الفصل)، كيف ينظر إلى الأمر بنظرة تاريخية تفسر ما وصل إليه الحال، فى نفس الوقت الذى ينظر إليها كذلك من المنظور السياسى.

هذا المنظور السياسى بارز الحضور فى كل ما يتصل بالأوضاع الموضوعية خاصة، ولكنه يتدخل كذلك لفهم ظواهر ذاتية، من مثل الأخلاق وعلاقات الرجل بالمرأة وغير ذلك، وقد رأينا قاسم أمين منذ لحظات يستخدمه لتفسير وضع الجندية المصرية فى عصره (غياب فكرة الوطن والحكومة السيئة).

فى كتاب «المصريون» يقدم قاسم أمين التفسير السياسى لسلبية المصرى وخاصة فى الريف: قسوة الحاكم وفساد الإدارة[٢١٨].

إن خلاصة القول إن حكومة مصر كانت سيئة دائما، كما يقول فى مفتتح الفصل المخصص عن «الحكومة» فى «المصريون»[٢١٩]. لقد كانت مصر نهبا لوحوش ذوى أوجه آدمية، جاءوا من شتى

البلاد ومن كل الأنواع. ويشير قاسم أمين إلى أحداث رآها رأى العين تدل على قسوة الحكومة، حتى فى عصره، وبشاعة تصرفاتها، حتى أنه يتساءل فى حيرة: «كيف استطاع شعبنا التعس أن يقاوم كل هذا الجور والاضطهاد الأليم؟»[٢٢٠].

إن الظاهرة السلبية الأساسية سياسياً هى الاستبداد، وانظر كيف يصف قاسم أمين فى سطور معدودة كل علامات نظام الاستبداد العثمانى، وهو النموذج لكل استبداد غيره، ويربط بينها وبين نتائجها، التى هى ذاتها من الأوجه التى وجه إليها انتقاداته على ما رأينا: «تتركز الدولة بين يدى رئيس يصل إلى مركزه بالوراثة، وليس له من دليل غير إرادته وأغراض بطانته. إنه المتصرف فى كل شىء، وليس للشعوب من حقوق سوى ما يرضى هو أن يمنحه لها. إن الجهل والسعى وراء المنفعة الخاصة وافتقاد الأمان وغياب كل شكل للشعور بالتضامن، كل هذا من السمات التى تختص بها أمثال هذه الحكومة»[٢٢١]. نفس هذه المعانى نجدها فى «تحرير المرأة»: فحيث لا توجد «نظامات»، أى نظم، سياسية تقيد الحكام، فان أفظع النتائج تنتج عن ذلك، من لعب بالضعيف الى الظلم بأنواعه إلى فشيان الرذيلة، وفساد الأخلاق، كل ذلك على مسرح المجتمع الكبير والبيت الصغير على

السواء[٢٢٢].

أخيراً، فإن لدينا تقريراً مباشراً يربط ما بين العامل السياسى وفقدان عدد من الصفات الإيجابية وكذلك تواجد عدد مقابل من الصفات السلبية. فبعد أن يتحدث قاسم أمين عن قعود المصرى عن ترقية أحواله، إلى حد الخور والسكون القريب من الموت، يقدم التفسير: «والسبب فى سقوطه هذا أمران: الأول سوء معاملة الحكومات السابقة له، فإنها بغدرها وظلمها أضاعت الأمانة والثقة اللتين بدونهما لا تظهر الابتكارات الشخصية، ففقد المصريون بذلك ملكة الإقدام على العمل والمخاطرة فى الشغل. والثانى سوء تربيته...»[٢٢٣].

ثم هناك المنظور الأخلاقى لتفسير السلبيات. «سلطات الأخلاق القديمة لا يزال نافذا فى نفوسنا، وله أثر ظاهر فى أعمالنا»[٢٢٤]. إن «جميع العيوب، التى يقذفنا بها الأجنبى فى كل يوم وبكل لسان، كلها ترجع، مهما اختلفت فى الاسم، إلى سبب واحد وهو النقص فى تربية نفوسنا»[٢٢٥]. وإن أراد القارئ تفصيلا للمنظور الأخلاقى فى تفسير سلبيات المجتمع المصرى، فليعد إلى مقالات «أسباب ونتائج» المعنونة «عيوب تربيتنا»، وهى ثلاث مقالات[٢٢٦].

ثم نأتى إلى التفسير من خلال المنظور الاجتماعى. يلاحظ قاسم

أمين فى المحل الأول جمود العادات فى المجتمع المصرى جموداً عظيمًا، بما يجعله سبباً للتدنى كما رأينا[٢٢٧]. ولكنه يؤكد تأكيدا كبيرا مقابلا على أن جهل المرأة هو سبب كل مشكلات العائلة، «وهو المرض الملم بجميع العائلات، لا فرق بين فقيرها وغنيها ولا بين وضيعها ورفيعها»[٢٢٨]. وفوق هذا فإن الروابط العائلية ذاتها ليست موضعا للاحترام، مما تنجم عنه أضرار عظيمة[٢٢٩]. ثم يمضى قاسم أمين إلى اكتشاف جذر أعماق لانحطاط المجتمع المصرى، ألا وهو انعدام التواصل بين أعضائه، وهو مرض لازلنا نعانى منه حتى وقت كتابة هذه السطور، ويعبر قاسم أمين عن هذا المرض عدة مرات، ويوصِّفه فى إحداها بأنه: «عدم اهتمام أحد منا بأن يفهم ما يقول الآخر»[٢٣٠].

أشرنا إلى جهل المرأة كسبب لعدد خطير من سلبيات العائلة المصرية، وهو سبب اجتماعى لأن المرأة فاعل اجتماعى ذو خطر، ولكنه يمكن أن يندرج أيضا فى إطار المنظور العلمى لتفسير المناحى موضع الانتقاد، وذلك من حيث عنصر الجهل ذاته، وضده المعرفة والتربية. إن قاسم أمين يجعل من «التربية العلمية» أساساً عاماً للتقدم والتمدن، والشرق محروم منهما إلى الآن فى رأيه[٢٣١]. والمحروم منها، أى من التربية العلمية، لا يسهل عليه أن يبنى

أحكامه على مقدمات صحيحة، بل يستمد حكمه، إذا كان من العامة، من إحساسه لا من عقله[٢٣٢]، أو يعتمد على ما يسميه قاسم أمين «بالنظريات الخيالية»، أى الآراء الجدلية وغير الواقعية معا، إذا كان من أهل العلم[٢٣٣]، وينتج عن كل ذلك سوء الفهم للوقائع والأحكام غير الصحيحة، كما ينتج عنه أيضا الانحباس فى سجن المألوف، حتى نصل إلى ما يمكن أن يسمى بالانغلاق الذهنى، وهو المقابل العقلى لجمود العادات الاجتماعى.

إن قاسم أمين يربط صراحة ما بين الجهل وسوء التربية ومظاهر فى السلوك سلبية كثيرة يجمعها تحت اسم «الطباع الفاسدة»: «إن السبب فى ذلك... راجع إلى أمور كثيرة يجمعها الجهل وسوء التربية»[٢٣٤].

لقد حاولنا فى الصفحات السابقة أن نمثل لاتخاذ قاسم أمين طرائق مختلفة فى النظر إلى عوامل تفسير مظاهر تخلف المجتمع المصرى، ومن نافلة القول أن الرجل كان يكتب منطلقا وعلى نحو تلقائى ومباشر، وأن هذا التصنيف إلى منظور تاريخى وآخر سياسى وأخلاقى واجتماعى وعلمى إنما هو من عمل الباحث، وأن كان قد وجد مادة هذا التصنيف فى كتابات قاسم أمين، وإلا لما طرأ على ذهنه أن هناك كذا وكذا من طرائق التفسير. ولكن الأهم

من ذلك أن قاسم أمين، بطريقة منطلقة ولا نقول لاشعورية، كان أحيانا ما يجمع بين زوايا النظر التفسيرى ذاك، إما فى نفس الموقف أو وهو بصدد تفسير نفس النوع من الظواهر. ونأخذ مثالا واحدا على ذلك، هو تسبيب قاسم أمين للتأخر الاقتصادى، على ما وصفناه من قبل فى القسم السابق من هذا الفصل.

وقد سبق أن قلنا إن فى ذلك الأمر جانبين: هناك ظاهرة الفقر والبؤس من جهة، وخصلة الكسل وحب الخمول من جهة أخرى، ومن الطبيعى أن هذا العامل الأخير هو بذاته سبب ممكن للأول، فنكون بإزاء تفسير أخلاقى ونفسى للافتقار إلى نمو الثروات فى مصر. ولكن هناك أسبابا أخرى منوعة للفقر وعدم الاهتمام بالنشاط المالى بعامة، منها :

١ - احتقار الاتجار واعتباره بعيدا عن مصادر الشرف والاعتبار[٢٣٥].

٢ - عشق خدمة الحكومة واعتباره غاية الغايات[٢٣٦].

٣ - سوء التربية[٢٣٧].

٤ - الجهل بأهمية الثروة[٢٣٨].

وهكذا يكون لدينا تفسير سببى رباعى الأبعاد: اجتماعياً وخلقياً وتربوياً وعلمياً. أما الكسل والتعود على الخمول، فإن قاسم أمين

يشير إلى أسباب منوعة له هو الآخر:

١ - عدم الأخذ بخصلة حب الاستقلال[٢٣٩].

٢ - سوء التربية[٢٤٠].

٣ - سوء معاملة الحكومات المتتابعة للمصرى[٢٤١]. وهكذا يكون لدينا هنا تفسير سببى ثلاثى الأبعاد: أخلاقياً وتربوياً وسياسياً.

إن هذا التنوع والتعدد، والثراء الشديد بالتالى، فى تحليلات قاسم أمين وتفسيراته، ليس أمر مصادفة، بل هو يقابل عند هذا المفكر إحساسه الشديد بأن الظاهرة الاجتماعية ظاهرة مركبة بطبيعتها.

والآن، من المسئول عن هذه الأحوال مجمعةً تحت اسم «الانحطاط»؟ إن الأوربيين يحبون أن يجعلوا المسئول هو الإسلام[٢٤٢]. ورغم أن قاسم أمين ينتقد مشايخ الأزهر فى عصره انتقادا شديدا[٢٤٣]، وينتقد الأخذ بمفهوم فاسد بشأن الجبر[٢٤٤]، وينتقد صفات المسلم المتوسط فى عصره، والتى تجعله يحيا هائما فى خيالات بعيداً عن وقائع العالم والحياة وعن السعى فى شئون الدنيا[٢٤٤]، رغم هذا كله، إلا أنه ينفى، فى حزم وإخلاص ومراراً، أن يكون الإسلام، كدين، هو المسئول عن هذه الأوضاع، إنما هو

سوء الفهم له من جانب، وعادات ورثناها عن غير طريق الإسلام من جانب آخر[٢٤٦].

ثم يرد قاسم أمين بالهجوم على الطاعن من حيث لا ينتظر، فيذكر قراءه الأوروبيين بأن أوربا ذاتها من أسباب وضع مصر المتدنى: ألم يسرق الأوربيون مصر؟[٢٤٧] أليسوا هم الذين فتحوا المواخير؟[٢٤٨] وأدخلوا الإقراض بالربا الفاحش فى قلب الريف المصرى؟[٢٤٩] أو ليست الأمم الأوربية هى التى تتنازع فيما بينها للسيطرة على مصر، تلك «اللقمة الدسمة التى يريد كل منها أن يبتلعها فى جوفه؟»[٢٥٠]. أخيراً، وليس آخراً، يقرر قاسم أمين فى كتابه بالفرنسية «المصريون» : «إننى لا أستطيع أن أمنع نفسى من أن أقرر أن أوربا كانت هى العقبة الوحيدة والأكبر، التى كان علينا أن نكافح ضدها، من أجل أن نستعيد من جديد مكاننا فى العالم»[٢٥١].

ولكن قاسم أمين يرى أن المسئول الحقيقى إنما هم المصريون أنفسهم[٢٥٢]، لشيوع السلبية بينهم[٢٥٣]، ولانتشار الجهل[٢٥٤]، وللانهزام إلى الماضى[٢٥٥] والتمسك بعوائد لا نفهم أسبابها[٢٥٦]، ولسيطرة اليأس على قلوبهم[٢٥٧]، ولأنهم لا يعرفون ماذا يريدون[٢٥٨]، ولافتقارهم إلى الخصال الضرورية للنجاح فى الحياة،

من مثل الإقبال على المخاطرة وحب العمل والمجاهدة وما شابه[٢٥٩].

ويخص قاسم أمين الطبقة العليا في مصر، والتى ينتمى هو نفسه إليها، بوضعه وإن لم يكن بفكره وأهدافه[٢٦٠]، بقدر ملحوظ من المسئولية عن تدنى أحوال المجتمع المصرى. فالرؤساء السيئون دائماً من أسباب التأخر[٢٦١]، وأعضاء هذه الطبقة العليا من الضباط هم من أسباب هزيمة العرابيين بخيانتهم[٢٦٢]، أما طبقة العلماء فتتراوح في معظمها ما بين الجهل والسطحية[٢٦٣]، ويقع الكُتّاب تحت سيطرة الخوف أو الشهوات[٢٦٤]. وينعى قاسم أمين عدم وجود قادة حقيقيين للمجتمع[٢٦٥]، ومهمة القيادة من مهام «الكبار» في المجتمع أيا ما كان مصدر صفتهم هذه.

رابعا: طرائق الانتقاد:

نعرض هنا على التوالى لرؤوس المسائل التالية: المقارنة الواقعية، تقرير الوقائع، إبراز التناقض، كشف الادعاء، السخرية، استخدام التشبيهات.

إن انتقادات قاسم أمين لا تظهر إلا ومعها البديل الإيجابى، وهو إما حالة نموذجية مثالية[٢٦٦]. وإما حالة واقعية في نفس الأمة

أو عند أقوام آخرين يأخذهم المنتقد كنموذج. من جهة أخرى، فإن قاسم أمين، بحسه التاريخى والثقافى، يهتم بالمقارنة «النسبية» بين حالات واقعية هى الأخرى مما ينتمى إلى ذات الإطار (مثلا المرأة الريفية وتلك الحضرية فى مصر)، فضلا عما ينتمى إلى أطر مختلفة (المصرى والاورباوى) مما لا ينطبق عليه وضع «النسبية». فى كل هذه الحالات نجد قاسم أمين قائما بمقارنات «واقعية».

فاذا أخذنا المقارنة مع وقائع إيجابية تؤخذ مأخذ النموذج من داخل نفس الأمة، وجدناه لا يعود إلى وقائع حاضرة بالطبع، لأنها سائرها على التقريب موضع الانتقاد، سواء أكانت فى مصر أم فى بلاد الإسلام أم فى الشرق عامة، وانما يعود إلى الماضى الإسلامى أيام قوة الحضارة الإسلامية، حين كان المسلمون «يخدمون الدين، ويشتغلون بالدنيا فى آن واحد»، «فلم يمض إلا قرن واحد من عهد ظهور الإسلام حتى صار علم المسلمين يخفق على أهم أقسام العالم»، ثم اهتم المسلمون بالعلوم كافة وبرعوا فيها وزادوا عليها(٢٦٧)، ثم يقارن هذا كله بما عليه أهل عصره من «جهل وكسل وانحطاط»(٢٦٨). أما عن المقارنة مع واقع عند أقوام آخرين، أى عند أجانب من غير الأمة، فإن أمام قاسم أمين دوماً أحوال أهل الغرب فى أوربا وأمريكا، والأمثلة على هذا لا تحصى، وهى

موجودة فى سائر فصول «أسباب ونتائج»، وفى كثير من صفحات «تحرير المرأة»[٢٦٩] و«المرأة الجديدة»[٢٧٠]. وهناك أخيراً المقارنة النسبية بين أحوال أقوام مختلفين فى داخل نفس الأمة الإسلامية فى الوقت الحاضر (أى وقت قاسم أمين)، فنراه يقارن بين المصرية الريفية وتلك الحضرية ويعلى من شأن الأولى على الثانية، فالأولى «هى أكملهن عقلا بنسبة حالها»[٢٧١]، ويشير إلى الفرق بين السودانى والتركى، «وعلى هذه النسبة يكون الفرق بين المصرى والاورباوى»[٢٧٢]. ولم نذكر هنا إلا أمثلة سريعة وحسب على المقولات الثلاثة المشار إليها.

ولكن المقارنة الواقعية، وإن بدأنا بالإشارة إليها، انما تعتمد على رصيد واسع من تقرير الوقائع أولا، وهو ما تمتلئ به كتابات قاسم أمين، وكثيراً ما أشرنا إلى أمثلة عليه. ونحمل هنا بعضا من تقريرات الوقائع المنتقدة بمحض النص على موضوعها وتبعا لترتيب ورودها فى هذا الكتاب أو ذاك، ونهتم بما لم نشر إليه من قبل أو بما هو ذى أهمية خاصة ويستحق التأكيد عليه: ففى «تحرير المرأة» نراه يشير إلى : حب السكينة والكسل[٢٧٣]، انتقال حالة الظلم من الأعلى إلى الأدنى[٢٧٤]، أوضاع الأسرة المصرية من حيث العلاقات بين الزوجين[٢٧٥]، فراغ عقول فتيات الطبقة العليا

اللائى لا يعرفن غير قشور من الفرنسية[٢٧٦]، إلى تقريره أن هذا المجتمع «بناء آل امرهاإلى الخراب والتهدم»[٢٧٧]. وفى «أسباب ونتائج»، نراه يبرز مظاهر عدم حب الاستقلال فى المعيشة[٢٧٨]، وطرق صرف المال، ومحبة الإضرار بالمصلحة العامة[٢٨٠]، وعدم التواصل بين أهل الوطن الواحد[٢٨١]. أما فى كتاب «أخلاق ومواعظ» فإنه يخص بالوصف مظاهر الفساد بين الموظفين عامة[٢٨٢].

ولعل أطرف وأدق ملامح طرائق الانتقاد عند قاسم أمين لجوءه إلى وسيلتى «إبراز التناقض» و«كشف الادعاء». ونقصد بإبراز التناقض كيف يقوم قاسم أمين باظهار أن الموقف المدعى أنه «سليم»، ومقبول اجتماعيا وأخلاقيا، يحتوى على تناقض داخلى ينقض اسمه ويجعله بالأحرى، منظوراً إليه من المنظور الجديد، تعبيراً عن الانحطاط أو عن الفشل على الأقل. والأمثلة على ذلك كثيرة. فمن يظن أن جهل المرأة ضمان لعفتها وصواب حكمها، عليه أن يدرك أن نساء العصر تمتدح رجالا لا يقبل الرجل الشريف أن يمد يده لمجرد مصافحتهم[٢٨٣]. ومن يظن أن منع النساء عن التعليم وخبرة الواقع ضمان لحسن الأخلاق، فإن الناظر إلى الوقائع يجد أن «نساءنا العفيفات... متى رأت الواحدة منهن

رجلا نظرت إليه وتأملته، والتفتت نحوه ولوت عنقها إليه، ولا شعور لها بأن مثل هذه الحركات التي تصدر منها، من غير تمييز، تخل بشأنها وتحط من قيمتها واعتبارها»[٢٨٤]. ومن «يتوهم... أن الشخص الواقع عليه الظلم يحب العدل ويميل إلى الشفقة»، عليه أن يرى واقع الاستبداد، الذى يجعل المظلوم يتشفى من الظلم الذى وقع عليه، لا بالارتداد على الظالم، بل بظلم الأضعف منه، وهكذا فى دوائر متتالية[٢٨٥]. أما من يريد أن يقول إن القوانين الجديدة، التى أتى بها الاحتلال، وإن لم يصرح قاسم أمين بهذا، وإن كان ذلك مفهوما عند قراء العصر، قد ارتقت بالأمة، فإن الحقيقة غير ذلك: «إن قوانينا السياسية قد ارتقت قبل أن نرتقى»[٢٨٦]، و«قوانينا وضعت لأمة حرة، وأخلاقنا لا تزال أخلاق أمة مسترقة»[٢٨٧]. ومن ينظر إلى أحوال الأسرة سيجد فيها العجب العجاب: «انظر إلى صبى لا يزيد عمره عن خمس عشرة سنة، وقارن بينه وبين والدته، تجد أنها أحط منه فى العقل والمعلومات والتجارب، وأنه أكبر منها شأنا... فى نفس بيتها»[٢٨٨]. ويضيف قاسم أمين فى موضع آخر: «من الأسف أنى شاهدت بنفسى مرات عديدة صبية يختلف سنهم بين ١٠ و ١٢ سنة، وسمعتهم يتكلمون عن والداتهم بما يقرب من الاحتقار والازدراء ويسخرون بما تقوله لهم وما تفعله معهم»[٢٨٩]. ثم «انظر إلى امرأة

تمشى فى الطريق، ومعها خادم، تجد فى نفسك لأول وهلة أن الخادم يشعر من نفسه أنه هو صاحب الإرادة والرأى والقوة»(٢٩٠). ويصل قاسم أمين إلى قمة تطبيق منظور «ابراز التناقض» هذا، حين يصرح أنه ربما كان ما قد يبدو عندنا من محاسن الأخلاق، إنما يرجع فى الحقيقة إلى عيب من العيوب، ويضرب على ذلك مثال الكرم الزائد فى الأرياف، وهو الذى إنما قد يعود إلى التنافس بين العائلات، محبة فى الشهرة لا أكثر(٢٩١)، على ما مر بنا من قبل.

وينقلنا هذا نقلا طبيعيا إلى وسيلة الانتقاد بما سميناه «كشف الادعاء». والأساس هو أن أهل المجتمع المتجمد على عوائد لم تتغير، رغم تغير الحياة، يعتقدون دوما أن عاداتهم هى أحسن العادات، وكل ما خالفها ليس جديراً باهتمامهم(٢٩٢)، فيأتى قاسم أمين لكى يصرح أمام أهل وطنه بالحقائق القارصة فى صراحة لاذعة: فأحوالهم هى النقص بعينه، «والعار أن نظن فى أنفسنا الكمال، وننكر نقائصنا، وندعى أن عوائدنا هى أحسن العوائد فى كل زمان ومكان، وأن نعاند الحق..»(٢٩٣). وعلى نفس هذه الشاكلة ظن المسلمين أنهم خلقوا من طينة خاصة دون سائر البشر: «لِمَ يعتقد المسلم أن عوائده لا تتغير ولا تتبدل، وأنه يلزمه أن يحافظ عليها إلى الأبد؟»(٢٩٤). وأما استخدام البرقع والنقاب، فربما كانا

ساترين فى الظاهر، ولكنهما قد يكونان فى الواقع حافزين على المزيد من التطلع: «هذان الساتران يعدان فى الحقيقة من الزينة التى تحث رغبة الناظر وتحمله على اكتشاف قليل خفى بعد الافتتان بكثير ظهر... ليست أسباب الفتنة ما يبدو من أعضاء المرأة الظاهرة... [بقدر ما هو] ما يصدر عنها من الحركات فى أثناء مشيها، وما يبدو من الأفاعيل التى ترشد عما فى نفسها»[٢٩٥]. هذه بعض أمثلة تدل على هذه الوسيلة الانتقادية، وهناك تطبيقات أخرى لها توجد فيما مر بنا من ألوان الانتقاد المتعددة فى خلال ما سبق من حديث هذا الفصل[٢٩٦].

ثم هناك سلاح السخرية. وما أكثر من يسخر منهم قاسم أمين. فهو يسخر من ادعاء الفضيلة عند النساء بفضل مجرد الحجاب كما رأينا منذ قليل، ويسخر من قشور الفرنسية والتلاعب مع خيال السيجارة التى توهم فتيات الطبقة العليا أنهن قد بلغن المرام مثل الغربيات[٢٩٧]، ويسخر من الخطباء المشهورين بحب الحرية والاستقلال والذين يقبلون استعباد المرأة فى نفس الوقت[٢٩٨]، ويسخر من العلماء المزعومين فى كثير من المواضع[٢٩٩]، ومن الشعراء[٣٠٠]، ويسخر من أوضاع القاهرة بوجه عام، ويخصص مقالات بأكملها للسخرية من الموظفين كاشفا عن نقائصهم[٣٠١].

خاتمة :

يمكن أن نخرج من العرض السابق بما يلى :

١ - النقد الاجتماعى هو جانب جوهرى من أنشطة قاسم أمين الفكرية منذ أول كتاباته حتى آخرها.

٢ - هذا النقد للمجتمع المصرى فى عصره نقد شبه شامل لكافة جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية، ولمعظم فئات المجتمع وطبقاته.

٣ - هو نقد صريح مباشر، ولهذا فإنه قد يبدو قارصا أحيانا.

٤ - ولكنه على الخصوص نقد منظم لأنه يضع المعايير ويقارن الوقائع بها، ويتبع منهج الوصف الموضوعى ويستخلص كل النتائج مهما كانت قاسية وجارحة. وهو لهذا كله نقد يستحق تماما صفة «العلمية»، خاصة وأنه لا يصف ولا يحكم وحسب، بل ويفسر كذلك، شأن الملاحظ الموضوعى الذى لا يهمه إثبات المثالب بقدر ما يهمه فهمها تمهيداً لنقضها.

٥ - وتزداد أهمية هذا الجانب الانتقادى فى عمل قاسم أمين حين نلاحظ تنوع طرائقه فى الانتقاد إلى جوار شموله واستمراره على مدى سائر مؤلفاته.

الهوامش

(١) نقصد عموما الفترة الممتدة من ١٨٩٤ إلى ١٩٠٨ م، وهى الفترة التى شهدت بدء ظهور كتاباته ونشاطه الاجتماعى حتى وفاته. وقد ولد قاسم أمين عام ١٨٦٣م وتوفى عام ١٩٠٨م.

(٢) «أسباب ونتائج»، ص ١٨.

(٣) نفس المكان. ولا نعلق هنا على هذا التقييد، ولكننا سنظهر أكثر من مرة، من بعد، أن قاسم أمين قد تعرض بالفعل للانتقاد السياسى، وأنه يهتم بالسياسة اهتماما جوهرياً.

(٤) نفس المصدر السابق.

(٥) راجع هامش(٣) فيما سبق.

(٦) «كلمات» ص ٤٩.

(٧) نفسه، ص ٢٣.

(٨) نفسه.

(٩) نفس المرجع، ص ٣٣.

(١٠) «كلمات»، ص ٤٨.

(١١) «المرأة الجديدة»، ص ٣.

(١٢) نفسه، ص ٢١٢.

(١٣) بتعبير «المرأة الجديدة»، ص ١٩١.

(١٤) «أخلاق ومواعظ»، ص ٧١ - ٧٢.

(١٥) «أسباب ونتائج»، ص ٦٣ - ٦٤.

(١٦) نفسه، ص ٥٩.

(١٧) «تحرير المرأة»، ص ١٦٠.

(١٨) نفسه، ص ٥.

(١٩) نفسه، ص ٦٨.

(٢٠) نفسه، ص ١٥٥.

(٢١) نفس المكان.

(٢٢) «المرأة الجديدة»، ص ٢٠٩.

(٢٣) «المصريون» ، ص ٢٨٧، وستكون إشاراتنا دائما إلى الأصل الفرنسى لهذا الكتاب الصادر سنة ١٨٩٤م.

(٢٤) «المرأة الجديدة»، ص ٣.

(٢٥) «أسباب»، ص ١٨.

(٢٦) نفس الصفحة، ولاحظ «سياستهم»، وراجع هامش (٣) فوق.

(٢٧) «تحرير المرأة»، ص ٨.

(٢٨) نفسه، ص ١٥٤.

(٢٩) «المرأة الجديدة»، ص ٦٧.

(٣٠) «أسباب»، ص ١٩.

(٣١) «تحرير المرأة» ، ص ١٥٤ - ١٥٥.

(٣٢) «كلمات»، ص ٨٢، و «المرأة الجديدة»، ص ٦٧ - ٦٨.

(٣٣) «تحرير المرأة»، ص ٧٦.

(٣٤) «أسباب»، ص ٣٤.

(٣٥) «تحرير المرأة»، ص ١٢.

(٣٦) «المرأة الجديدة»، ص ٧٦ - ٧٧.

(٣٧) «أسباب»، ص ١٨، وقد أثبتنا النص منذ قليل (المتن المقابل لهامش ٢٦).

(٣٨) «المرأة الجديدة»، ص ٦٧ - ٦٨، و«كلمات»، ص ٨٢.

(٣٩) «المرأة الجديدة»، ص ٢٠١ مثلا، و«تحرير المرأة»، ص ١٢ - ١٣.

(٤٠) «تحرير المرأة»، ص ٨، ٩، ٩٧.

(٤١) نفسه، ص ٥٤.

(٤٢) «المرأة الجديدة»، ص ٦.

(٤٣) نفسه، ص ١٦.

(٤٤) نفسه، ص ٧٦.

(٤٥) «أخلاق»، ص ٨٠.

(٤٦) «أسباب»، ص ٢٠.

(٤٧) «المرأة الجديدة»، ص ٢٠١.

(٤٨) «المصريون»، ص ١٦.

(٤٩) «تحرير المرأة»، ص ١٢ – ١٤.

(٥٠) نفسه، ص ١٢. ولكننا نظل هنا مع التعميمات على كل حال، لأننا مع نص منشور على الجمهور، أما مذكرات قاسم أمين الخاصة، التي نشرت تحت اسم «كلمات لقاسم بك أمين» ، فإنها تحدد الأسماء: «في عهد الاستبداد، في الوقت الذي كانت فيه كلمة محمد علي أو إسماعيل تكفي لإعدام من يغضب عليه أو إرساله إلى البحر الأبيض، في تلك الأيام السوداء التي كانت فيها حياة الإنسان وحريته وأمواله مهددة بأنواع الخطر، ولم يكن لأحد مهما كان مقامه في الوجود ضمانة تحميه، في ذلك العهد ظهر أفراد وجدوا من شعورهم ما دفعهم إلى صد إرادة الحاكم والتصريح بآرائهم». («كلمات»، ص ٤٨).

(٥١) «المرأة الجديدة»، ص ٦٨.

(٥٢) نفسه، ص ٧٦.

(٥٣) «المصريون»، ص ٧٠.

(٥٤) نفسه، ص ٨٩.

(٥٥) نفسه، ص ١٥.

(٥٦) انظر فيه خاصة ص ٧٩ – ٨٠.

(٥٧) «تحرير المرأة»، ص ٣٠.

(٥٨) نفسه، ص ٣١.

(٥٩) نفسه، ص ٩٦.

(٦٠) «المرأة الجديدة»، ص ١٤١.

(٦١) «أسباب» ، ص ٥٨.

(٦٢) «تحرير المرأة»، ص ٨ – ٩.

(٦٣) نفسه، ص ١٣.

(٦٤) «المرأة الجديدة»، ص ٦٤.

(٦٥) نفسه، ص ٢٠١.

(٦٥ مكرر) نفسه، ص ٢٠٢.

(٦٦) «المصريون»، ص ٨٩.

(٦٧) «المرأة الجديدة»، ص ٣٠ - ٣١، ولاحظ المقابلة بين «نفوسنا» و«أعمالنا»، أى الأفعال والسلوك.

(٦٨) «المصريون»، ص ٨٩ - ٩٠.

(٦٩) نفسه، ص ١٩٠ - ١٩١.

(٧٠) «تحرير المرأة»، ص ٣ - ٤.

(٧١) نفسه، ص ٤١.

(٧٢) نفسه، ص ٨٩ - ٩٠ على سبيل المثال.

(٧٣) نفسه، ص ٤٨.

(٧٤) نفسه ، ص ٧٨.

(٧٥) نفسه، ص ١٢٨.

(٧٦) «المرأة الجديدة»، ص ٦٥ - ٦٦.

(٧٧) «المرأة الجديدة»، ص ١٢١. ويتحدث كتاب «أسباب ونتائج» عن علة الكسل، فى مقالة خاصة، ص ٥٩ - ٦٢.

(٧٨) راجع مثلا، «المرأة الجديدة»، ص ٣١ - ٣٢.

(٧٩) «المرأة الجديدة»، ص ٧٧.

(٨٠) «أسباب ونتائج»، ص ٤٣ - ٤٥.

(٨١) نفسه، ص ٤٠.

(٨٢) «أخلاق ومواعظ»، ص ٧٨.

(٨٣) «أخلاق»، ص ٧٢، «كلمات»، ص ١٠٢.

(٨٤) «أخلاق»، ص ٧٤.

(٨٥) نفس المكان.

(٨٦) «أسباب»، ص ٢٠ - ٣٥ بصفة خاصة.

(٨٧) «المرأة الجديدة»، ص ١٩٣.

(٨٨) نفسه، ص ٢٠١.

(٨٩) نفسه، ص ٢٠١ - ٢٠٢.

(٩٠) «المصريون»، ص ٤٥. وهذه هى مظاهر هذا التحلل: عدم التمسك بالأساس الدينى الصحيح، فضلاً عن عدم وجود أساس علمى على مثال أوربا، نظام الحكم الوراثى المستبد، عدم تمتع الشعوب بحقوقها إلا ما يهبه الحاكم، وينتج عن كل ما سبق الجهل والانحصار فى الاهتمام بالمصلحة الشخصية والإحساس بعدم الأمان وغياب كل حس بالروابط الاجتماعية.

(٩١) المصدر السابق، ولاحظ الموقف الدفاعى للكاتب.

(٩٢) نفسه، ص ١٨٠ - ١٨١.

(٩٣) «أسباب»، ص ٥٩ وما بعدها، و «تحرير المرأة»، ص ٦.

(٩٤) «تحرير المرأة»، ص ٧.

(٩٥) نفسه، ص ٤١..

(٩٦) «أسباب ونتائج»، ص ٥٧.

(٩٧) نفسه، ص ٥٨ - ٥٩.

(٩٨) «تحرير المرأة»، ص ٤.

(٩٩) نفسه، ص ٧.

(١٠٠) نفسه، ص ٦.

(١٠١) «المرأة الجديدة»، ص ٧٧.

(١٠٢) «المرأة الجديدة»، ص ٥٧.

(١٠٣) «كلمات» ، ص ٥٦.

(١٠٤) يعرف قاسم أمين الإحساس الوطنى، فى «كلمات» ص ٥٣ - ٥٤، بأنه ما ينتج عن تعويد الطفل «النظر إلى (الوطن) كشىء محترم جليل مقدس،... وأنه بانضمامه لأمته يكوّن قوة عظيمة، وأن منفعة الإنسان صغيرة زائلة ومنفعة الأمة كبيرة راسخة». وراجع «كلمات»، ص ٣٨.

(١٠٥) «أسباب»، ص ٦٣ - ٦٤.

(١٠٦) نفسه، ص ٥٧.

(١٠٧) نفسه، ص ٥٧ - ٥٨. وراجع ما قلناه عند بداية الحديث عن نقده للاجتماع، والإشارة

الموجودة فى هامش (٩٦).

(١٠٨) راجع حول هذا الموضوع الطريف، وإن لم نفصل فيه، «تحرير المرأة»، ص ٢٦، ٣٥، ٧٤، ٨١، وغير ذلك.

(١٠٩) «المصريون»، ص ٩٩ – ١١٦.

(١١٠) نفسه، ص ١٠٢.

(١١١) نفس المكان.

(١١٢) «تحرير المرأة»، ص ٣٢ – ٣٣.

(١١٣) نفسه، ص ٣٣ – ٣٤.

(١١٤) نفسه، ص ٣٢ – ٣٣.

(١١٥) نفسه، ص ٣٤.

(١١٦) نفسه، ص ٢٦.

(١١٧) نفسه، ص ٥٧.

(١١٨) نفسه ، ص ١٤ – ١٥.

(١١٩) نفسه، ص ١٢١.

(١٢٠) «أسباب»، ص ٦٧ وما بعدها.

(١٢١) «المرأة الجديدة»، ص ٨٥ – ٨٦.

(١٢٢) نفسه ، ص ٦٧، و «تحرير المرأة»، ص ١٢١.

(١٢٣) «المرأة الجديدة»، ص ٤٢.

(١٢٤) «تحرير المرأة»، ص ١٤٣.

(١٢٥) «كلمات» ، ص ٣٧.

(١٢٦) «تحرير المرأة»، ص ١٢٢، وانظر قوله في ص٥٤: «صيرنا المرأة أداة من الأدوات أو متاعا من المقتنيات»، وراجع كذلك ص ٣٢ حيث يشير إلى أن الرجل «يتصرف فيها كما يتصرف المالك فى ملكه».

(١٢٧) «تحرير المرأة»، ص ١١٤.

(١٢٨) نفسه، ص ١١٥، وراجع فيه حول تنظيم الزواج بوجه عام ص ١١٤ – ١٢٣.

(١٢٩) «كلمات»، ص ٤٥ – ٤٧.

(١٣٠) «المرأة الجديدة»، ص ٥.

(١٣١) نفس المكان.

(١٣٢) «تحرير المرأة»، ص ٤٣.

(١٣٣) «أسباب»، ص ٤٢.

(١٣٤) نفسه، ص ٦٧.

(١٣٥) نفسه، ص ٦٨.

(١٣٦) نفسه، ص ٦٩.

(١٣٧) «المرأة الجديدة»، ص ١١٨ – ١١٩. وحول إهمال تربية الجسم والعقل معاً، راجع «أسباب»، ص ٦٠، وحول استعمال القوة والإرهاب، نفسه،و ص ٤٤، وحول الخوف والتخويف، «تحرير المرأة»، ص ١٤.

(١٣٨) «أسباب»، ص ٤٥.

(١٣٩) نفسه، ص ٤٢. ونفس المعنى فى «تحرير المرأة»، ص ٧٤، ويقول هذا الكتاب: «تهذيب الأخلاق مقدم على التعليم»، ص ٤٣.

(١٤٠) «المرأة الجديدة»، ص ٦.

(١٤١) نفسه، ص ١٩٠.

(١٤٢) «تحرير المرأة»، ص ٤٤.

(١٤٣) حول التربية الأخلاقية، انظر ما سبق أن قلناه حول نقد قاسم أمين للأخلاق، وراجع كذلك، على سبيل المثال، «المرأة الجديدة»، ص ٦٤ – ٦٧. وحول التربية الوطنية، انظر «أسباب ونتائج»، ص ٦٢ وما بعدها.

(١٤٤) «تحرير المرأة»، ص ٧٤.

(١٤٥) «كلمات»، ص ٢٢.

(١٤٦) «تحرير المرأة»، ص ١٤.

(١٤٧) «أسباب»، ص ٦٠.

(١٤٨) «تحرير المرأة»، ص ١٤.

(١٤٩) «تحرير المرأة»، ص ٤٧.

(١٥٠) نفسه، ص ٣١ – ٣٢.

(١٥١) «المرأة الجديدة»، ص ١٣٢.

(١٥٢) «تحرير المرأة»، ص ٤١.

(١٥٣) «المرأة الجديدة»، ص ١٤١.

(١٥٤) «كلمات»، ص ٢٤.

(١٥٥) «أسباب»، ص ٢٦ - ٢٧.

(١٥٦) نفسه، ص ٢٨.

(١٥٧) نفس المكان.

(١٥٨) «المصريون»، ص ٢٤٧.

(١٥٩) «المرأة الجديدة»، ص ١٤١، وراجع ما قلناه منذ سطور عن موقفه من الشعراء والخطباء.

(١٦٠) «كلمات»، ص ١٤.

(١٦١) نفسه، ص ١٤ - ١٥.

(١٦٢) نفسه، ص ٧.

(١٦٣) نفسه، ص ١١ - ١٢.

(١٦٤) نفسه، ص ١٣ - ١٤. وراجع «أسباب»، ص ٢٠.

(١٦٥) نفسه، ص ٧.

(١٦٦) نفسه، ص ٨.

(١٦٧) نفسه، ص ١٤.

(١٦٨) المرأة الجديدة»، ص ٨٠.

(١٦٩) نفسه، ص ٣.

(١٧٠) نفسه، ص ١٩١.

(١٧١) نفسه، ص ٨٧ - ٩٠ ، ١٩١، ٢٢٠.

(١٧٢) نفسه، ص ١٩٠.

(١٧٣) «كلمات»، ص ٥٠.

(١٧٤) نفسه، ص ٣ - ٤.

(١٧٥) «تحرير المرأة»، ص ٧.

(١٧٦) نفس المكان.

(١٧٧) «تحرير المرأة»، ص ١٠١ – ١٠٢، «المرأة الجديدة»، ص ١٨٣.

(١٧٨) «المرأة الجديدة»، ص ٤١.

(١٧٩) نفسه، ص ٦.

(١٨٠) «أسباب»، ص ٥٣.

(١٨١) «أسباب»، ص ٢٠ – ٤٢.

(١٨٢) «المصريون» ص ٢٤.

(١٨٣) «أسباب»، ص ٢١.

(١٨٤) نفسه، ص ٢١، ٢٢.

(١٨٥) نفسه، ص ٢٠. وعنوان مقالة قاسم أمين التى يأتى هذا النص فيها هو «الحالة الاقتصادية في مصر».

(١٨٦) نفس المكان.

(١٨٧) نفسه.

(١٨٨) نفسه.

(١٨٩) «أسباب»، ص ٢٦.

(١٩٠) نفسه، ص ٢٩.

(١٩١) قارن «أسباب»، ص ٢٢.

(١٩٢) نفسه، ص ٢٩. والإشارة هنا إلى الأتراك والمستتركة وعدد من المصريين الذين حصلوا على عطايا و«انعامات» و «أبعاديات» من ولاة مصر المتعاقبين من أسرة محمد على. والأسباب التى يعددها قاسم أمين جديرة بالانتباه لتركيزها وشمولها وجمعها بين الدقة الوصفية والسخرية المباطنة، مع الرغبة فى توخى العدالة وعدم إلحاق الظُلم ببعض ممن نالوا شيئا من تلك العطايا. وكانت الانعامات ذات أسباب متنوعة وبعضها شديد الغرابة، وهى تخضع لهوى الحاكم دائما.

(١٩٣) «أسباب»، ص ٢٢.

(١٩٤) نفس المكان.

(١٩٥) نفسه، ص ٢٢ – ٢٣.

(١٩٦) قارن كتابات مصطفى كامل ومحمد فريد فى نفس الفترة.

(١٩٧) «أسباب»، ص ٢٦.

(١٩٨) نفسه، ص ٢٢، ٢٤، ٣١ – ٣٢ – ٣٣.

(١٩٩) نفسه، ص ٢٩.

(٢٠٠) نفسه، ص ٢٨.

(٢٠١) نفسه، ص ٢٣ – ٢٤.

(٢٠٢) نفسه، ص ٢٤، ٢٩، ٣٠، ٤٤.

(٢٠٣) نفسه، ص ٥٧.

(٢٠٤) نفسه، ص ٢٦.

(٢٠٥) نفسه، ٣٩ – ٤٢.

(٢٠٦) نفسه، ص ٤٠.

(٢٠٧) ربما يلخص هذه الانتقادات تجميعه لها فى «المصريون» ص ١٨٠): «عدم الاهتمام بالعمل والمجاهدة في نيل المنافع، الانقسامات، التحاسد، الإهمال، الكسل، الجهل، الخرافات».

(٢٠٨) «المصريون»، ص ٢٤ – ٢٧.

(٢٠٩) انظر مثلا ، «تحرير المرأة»، ص ١٢ – ١٤.

(٢١٠) نفسه، ص ٤٣: «عرف المصريون بعوائد وأخلاق استفادوها من حوادث تاريخية ليس هذا محل ذكرها». وحول تعريف العادة يقول نفس الكتاب: «العادة عبارة عن اصطلاح أمة على سلوك طريق خاصة فى معيشتهم ومعاملاتهم حسبما يناسب الزمان والمكان» (ص ٧).

(٢١١) «المرأة الجديدة»، ص ١٨٣.

(٢١٢) «المصريون»، ص ٥٤ – ٥٥.

(٢١٣) نفسه، ص ٥١.

(٢١٤) نفسه، ص ٥١ – ٥٢.

(٢١٥) نفسه، ص ٥٢ – ٥٧.

(٢١٦) توجد كلمة explication (تفسير) بالنص فى ذات المرجع، ص ٥٦.

(٢١٧) نفس المرجع، ص ٥٧.

(٢١٨) نفسه، ص ١٤ - ١٦.

(٢١٩) نفسه، ص ٨١.

(٢٢٠) نفسه، ص ٨١ - ٨٢.

(٢٢١) نفسه، ص ٤٥ - ٤٦.

(٢٢٢) «تحرير المرأة»، ص ١٢ - ١٤.

(٢٢٣) «أسباب»، ص ٢٨.

(٢٢٤) «المرأة الجديدة»، ص ٣٠ - ٣١.

(٢٢٥) «تحرير المرأة»، ص ٤٣.

(٢٢٦) «أسباب»، ص ٥٥ - ٦٦.

(٢٢٧) «المرأة الجديدة»، ص ١٨٣.

(٢٢٨) «تحرير المرأة»، ص ٢٦.

(٢٢٩) «أسباب»، ص ٦٤ - ٦٥.

(٢٣٠) «المرأة الجديدة»، ص ٦٤ - ٦٥.

(٢٣١) نفسه، ص ١٩٠.

(٢٣٢) نفس المكان.

(٢٣٣) نفسه، ص ٨٩.

(٢٣٤) «تحرير المرأة»، ص ٨١.

(٢٣٥) «أسباب»، ص ٢٩.

(٢٣٦) نفس المكان، وقارن الوضع في أوربا حول هذا العامل وسابقه، ص٣٢.

(٢٣٧) نفسه، ص ٣٢ - ٣٣.

(٢٣٨) نفسه، ص ٣٢.

(٢٣٩) نفسه، ص ٢٣.

(٢٤٠) نفسه، ص ٢٨.

(٢٤١) نفس المكان.

(٢٤٢) «تحرير المرأة»، ص ٩٧، «المصريون»، ص ١٨٣، ٢٤١.

(٢٤٣) انظر مثلا «تحرير المرأة»، ص ٩٧ - ٩٨.

(٢٤٤) نفسه، ص ١٠٠ - ١٠١.

(٢٤٥) راجع، مثلا، «تحرير المرأة»، ص ٨٧ - ٨٨، «أسباب»، ص ٢١ - ٢٨.

(٢٤٦) «تحرير المرأة»، ص ٩٨ - ٩٩، و«المرأة الجديدة»، ص ١٤٧.

(٢٤٧) «المصريون»، ص ٢٠٣.

(٢٤٨) نفسه، ص ١٩٩.

(٢٤٩) نفسه، ص ١٨١.

(٢٥٠) «أسباب»، ص ٢١.

(٢٥١) «المصريون»، ص ٢٨١ - ٢٨٢.

(٢٥٢) «أسباب»، ص ١٨ - ١٩.

(٢٥٣) «المصريون»، ص ٨١، ١٨٠.

(٢٥٤) نفسه، ص ٢٢٥.

(٢٥٥) «تحرير المرأة»، ص ١٥٥.

(٢٥٦) نفسه، ص ١٥٤.

(٢٥٧) «المرأة الجديدة»، ص ٦٨.

(٢٥٨) نفسه، ص ٢٢٠.

(٢٥٩) «أسباب»، ص ٢٢ - ٢٨.

(٢٦٠) تحتاج علاقة قاسم أمين بحزب الأمة ورجالاته إلى دراسة دقيقة.

(٢٦١) «المصريون»، ص ١٨٠.

(٢٦٢) نفسه، ص ٥٧.

(٢٦٣) «أسباب»، ص ٣ - ٤، ٧، ١٤، ٥٠.

(٢٦٤) «المرأة الجديدة»، ص ١٩١.

(٢٦٥) «أسباب»، ص ٥٠.

(٢٦٦) قارن التصور النموذجي للإسلام، «الدين الحقيقي العظيم»، على كلمة الشيخ محمد عبده، في «تحرير المرأة»، ص ١٠١ - ١٠٢.

(٢٦٧) «تحرير المرأة»، ص ٩٨ - ٩٩.

(٢٦٨) نفسه، ص ٩٧، ١٠٠.

(٢٦٩) انظر فيه مثلا ص ١٠٥.

(٢٧٠) انظر فيه مثلا ص ١٨٤، وراجع خاصة ص ١٤٤، التى تصف مشاعر الوطنية عند صبى فرنسى فى مقابل «فقد الشعور» الوطنى بسبب إهمال تربية العواطف عند المصريين.

(٢٧١) «تحرير المرأة»، ص ٢٦، ونفس المعنى فى ص ٧٤، وراجع كذلك ص٣٥.

(٢٧٢) «تحرير المرأة»، ص ٨، وحول المقارنة بين المصرى والتركى، «المرأة الجديدة»، ص ٢٠٢.

(٢٧٣) «تحرير المرأة»، ص ٦ - ٧.

(٢٧٤) نفسه، ص ١٣ - ١٤.

(٢٧٥) نفسه، ص ١٢١، ٣٤.

(٢٧٦) نفسه، ص ٤٤.

(٢٧٧) نفسه، ص ٥٤.

(٢٧٨) نفسه، ص ٢٣ - ٢٥.

(٢٧٩) نفسه، ص ٣٩ وما بعدها.

(٢٨٠) نفسه، ص ٥٧.

(٢٨١) نفسه، ص ٥٨.

(٢٨٢) «أخلاق»، ص ٧١ ومابعدها.

(٢٨٣) «تحرير المرأة»، ص ٣٤، وراجع «المرأة الجديدة» ص ٤٤ - ٤٥.

(٢٨٤) «تحرير المرأة»، ص ٤٩.

(٢٨٥) نفسه، ص ١٣ - ١٤.

(٢٨٦) «المرأة الجديدة»، ص ٣٠.

(٢٨٧) نفسه، ص ٣١.

(٢٨٨) نفسه، ص ٤٣.

(٢٨٩) «أسباب»، ص ٧٠.

(٢٩٠) «المرأة الجديدة»، ص ٤٤.

(٢٩١) نفسه، ص ٢٠١ - ٢٠٢. وهو هنا يطبق نفس الحكم على حالة الأمة التركية ص ٢٠٢.

(٢٩٢) «المرأة الجديدة»، ص ٨٠.

(٢٩٣) «تحرير المرأة»، ص ٣.

(٢٩٤) نفسه، ص ٧.

(٢٩٥) نفسه، ص ٦٤.

(٢٩٦) راجع أيضا حديثه عن كون المصريين «أمة مفرقة»، فى «أسباب ونتائج»، ص ٥٨، ٦٦، ٧٦، وأنهم لا يحترمون وطنهم في الحقيقة، نفسه، ص ٦٣، وإشارته إلى «نفاق الإحسان»، فى «كلمات»، ص ٢١ - ٢٢.

(٢٩٧) «تحرير المرأة»، ص ٤٣.

(٢٩٨) «المرأة الجديدة»، ص ٣١.

(٢٩٩) انظر مثلا المرجع السابق، ص ٨٦ - ٩٠.

(٣٠٠) نفسه، ص ١٤١.

(٣٠١) راجع كل كتاب «أخلاق ومواعظ».

الفصل الثانى

النظرة العلمية عند قاسم أمين

أولا : معانى «العلم» وسماته:

ما أكثر استخدام قاسم أمين لكلمة «العلم» ومشتقاتها فى سائر كتاباته. ومن الطبيعى أن نجد فى استخداماته للكلمة معانى متعددة: فهناك معنى «المعرفة» بوجه عام، وهنا يكون العلم ضد الجهل[١]، وهناك معنى المعرفة المتخصصة فى ميدان ما، كما فى تعبيرات «علوم الأخلاق والفلسفة»[٢]، «منابع العلم والآداب»[٣]، «المعارف العلمية والصناعية»[٤]، «فكرة علمية أو أدبية»[٥]، ولكن هناك أيضا المعنى الدقيق للكلمة حين تشير إلى ميدان مخصص، ومنهج يقوم على التجربة وعلى أساس مبدأ السببية، واستخلاص لحقائق مقبولة من الكافة وقابلة للبرهنة عليها، كما فى تعبيرات «علوم الهيئة الاجتماعية» و«العلوم الطبيعية» و«العلوم التى موضوعها الإنسان الاجتماعى»[٦]، و«علماء التاريخ الطبيعى»[٧]، و«القرن التاسع عشر، قرن العلم»[٨]، و«أصول العلوم»[٩]، وإن

كانت هناك بالطبع استخدامات محددة تقع فى منطقة ما بين المعنيين الثانى والثالث، كما فى قوله مثلا: «الأساس الدينى... والأساس العلمى، الذى ارتقت به عقول الأمة الإسلامية وآدابها»(١٠).

وحين يستخدم قاسم أمين الصفة «علمى» و«علمية»، فإنه يكون أقرب إلى المعنى الثالث، أو الثانى أحيانا، حيث يجمع بينها «التخصص» على درجة ما، وإن كان هناك تفاوت فى الدقة، ومثال هذا تعبير «التربية العلمية» الذى يتكرر كثيراً عند قاسم أمين(١١). ويفهم، فى العادة من استخدام الصفة هذه عند قاسم أمين معانى التخصص وشىء من الدقة والاعتماد على الملاحظة والتجربة واستخدام مناهج مناسبة والأخذ بمعيار العقل والبرهان بما يؤدى إلى حصول الاتفاق وبما ينتج المنفعة، ومثال هذا قوله عن بعض مسائل وضع المرأة فى المجتمع: «فهذه أولاً مسألة اجتماعية فهى بذلك مسألة علمية، ولا غرابة بعد ذلك فى حصول الاتفاق فيها»(١٢)، وأيضا قوله : «الاكتشافات العلمية التى خلصت العقل الإنسانى من سلطة الأوهام والظنون والخرافات»(١٣)، ولكن الفرق أن الاستخدام فى النص الأول يميل إلى المعنى الثانى لكلمة «علم»، بينما يميل الاستخدام فى النص الثانى إلى المعنى الثالث المذكور فى الفقرة

السابقة.

ومن نافلة القول أن العلم والعلمية مرتبطان أوثق ارتباط «بالعقل»، ولذلك يكثر استخدام قاسم أمين لهذه الكلمة فى نفس مواطن حديثه عن العلم. وهنا أيضا نجد «العقل» و«العقلى»، ونجد معنيين على الأقل للكلمة: فهى إما تدل على محض ذلك الجزء من الجهاز العصبى الذى يشترك فيه جميع البشر، كما فى قوله: «الملكات العقلية والأدبية فى الإنسان إنما هى مظاهر من وظائف المخ»[١٤]، وإما على مجموع العمليات الإدراكية والاستنتاجية التى تتميز بالموضوعية وبالظهور على هيئة الدليل، كما فى قول مثلا: «تربية العقل والأخلاق تصون المرأة»[١٥]، «تعودت على أن تقيم من عقلها حاكما على قواها الحسية»[١٦]، «يقضى فيها المستقبل بحكم العقل والحق»[١٧]، «التربية العقلية... هى عبارة عن تعلم العلوم والفنون والغاية التى ترمى إليها هى أن يعرف الإنسان ما فى الكون من الموجودات»[١٨]، «أين هذه القشور من الحقائق العلمية التى يتغذى منها العقل...؟ لا شىء ينفع الإنسان مثل اكتسابه ما يسمى عقلاً علمياً»[١٩]. أخيراً فإننا نجد قاسم أمين يستخدم «العقل» بمعنى أداة الحكم، كما فى تعبير «اكتساب عقل يحكم على نفوسهن»[١٩]. ومن الطبيعى أن تكون هناك استخدامات تجمع ما

بين هذه المعانى، مثلا «تشويق عقل المرأة إلى البحث عن الحقيقة، وليس حشو ذهنها بالمواد..»[٢٠]، وربما استخدم قاسم أمين كلمة «العقل» بمعنى يقترب من نوع من استخداماته الفلسفية، والذى يجعل من العقل قوة وسلطة قائمة بذاتها، كما فى قوله مثلا «الاكتشافات العلمية التى خلصت العقل الإنسانى من سلطة الأوهام..»، على ما نقرأ فى مقدمة «المرأة الجديدة»[٢١].

وهناك عدد من السمات تبدو ملتصقة بالعلم، وبالنظرة العلمية من ورائه عند قاسم أمين. فالعلم عنده واحد: «أليس العلم فى الحقيقة واحدا يشبه شجرة ذات فروع وأفنان، تتصل كلها بأصل واحد، وتتغذى من جذر واحد، وتخدم حياة واحدة، وتنتج ثمرة واحدة هى معرفة حقيقة كل شىء فى الوجود؟»[٢٢] وهو بهذا يأخذ بعمومية «الحقائق العلمية» و«المبادئ العلمية»[٢٣]، ويقع هكذا فى وهم واحدية العلم. بل هو يذهب خطوة أبعد ويأخذ كذلك «بكلية» العلم، أى أن مجموع المعارف، وهنا يضيف إلى تلك العلمية غير العلمية كذلك، يمكن أن يكوِّن كلا واحدا، وإن كان متعدد الطبقات، وهو على هذا الأساس يدعو الأزهر إلى الأخذ «بالحقائق العلمية»، لا بل وبأن يؤسس علومه الدينية وغيرها على هذا الأساس: «وفى الحقيقة أن علوم التوحيد والفقه لا يمكن الانتفاع بها إذا لم

يسبقها الإلمام بالمعارف العامة والمبادئ العلمية. أليس التوحيد هو خاتمة العلوم كلها، وخلاصة مجموعها؟ أليس الفقه علم شريعة كل نفس في ارتباطها بخالقها وفي معاملتها مع بقية البشر؟ وكلاهما يحتاج إلى معرفة علم النفس وتشريح الجسم ووظائفه والتاريخ والرياضة والعلوم الطبيعية وغيرها...؟ »(٢٤).

ولكن الذى لا نراه مصرحا به تصريحا فى هذه السطور هو أن تلك الحقائق العلمية العامة وذلك العلم ذا الطابع الكلى، إنما يقصد بهما قاسم أمين حقائق علم الغرب، ولهذا قلنا أنه وقع فى «وهم» الواحدية، أى واحدية علم الغرب. ونرى قاسم أمين يعبر عن هذه الواحدية تعبيرا أقوى يجعل من علم الحضارة الغربية العلم «المطلق»، والذى هو مجعول للإنسانية كلها، وعليها فى سائر أنحائها الأخذ به، وهو ما يبين من قوله، بعد تعداد «الاكتشافات العلمية» فى الحضارة الغربية فى شتى الميادين: «بكشف هذه الحقائق شيد العلم بناء متينا لا يمكن لعاقل أن يفكر فى أن يهدمه. ولهذا تغلب رجال العلم على رجال الدين فى أوربا، بعد النزاع والجهاد، وانتهى الحال بأن صار العلم سلطة يعترف له بها الناس كافة»(٢٥).

ومن أهم سمات العلم، كما تبرز من ثنايا تقريرات قاسم أمين،

أنه قائم على معرفة الوقائع والتعامل معها، في مقابل الاشتغال بالألفاظ وظن أنها العلم الكافى وكل العلم، وهو بهذا يعيد، على مستوى الكاتب غير المتخصص، إثارة الصراع الهائل الذى ظهر بين علم الغرب فى حضارته الجديدة وعلم الحضارة الأوربية المسيحية القائم على الطراز الأرسطى. وربما كان الخصم البارز أمام قاسم أمين متمثلا فى رجال الأزهر، ومن بعدهم سائر الكتاب أصحاب «النظريات الخيالية». ومن الطريف أن استخدام قاسم أمين لكلمة «نظرية» يدل على أنه يقصد بها أحيانا التصورات الخيالية البعيدة عن الواقع، التى يقوم بها «رجل يعيش فى عالم الخيال يكتب فى مكتبه على ورقة أن... لأن الورق يتحمل كل شىء»(٢٦)، ولكنه يعود ليستخدم ذلك الاصطلاح بمعنى «الرأى المفصل بشأن موضوع ما»(٢٧). وانظر إلى هذا النص القوى الجميل الذى تبرز فيه بعض خصائص الاهتمامات والمواقف القاسمية والتى منها الاهتمام بالوقائع، وهو استكمال مباشر للنص السابق إثباته: «وليس من الصعب وضع نظريات خيالية على هذه الطريقة. إذ يكفى فى ذلك تركيب بعض جمل مسبوكة فى قالب لطيف، ليقيم الكاتب نفسه مشرعا حكيما، ويحكم على القوانين والعادات والأخلاق. وإنما يجد الصعوبة رجل اعتاد على أن يحل

النظريات ويختبرها بقياسها إلى الواقع»[٢٨].

سمة بارزة أخرى للعلم عند قاسم أمين أن الطريقة العلمية تقوم على النقد. يقول فى السطور الأولى لكتاب «المرأة الجديدة»: «أخذ العلم يبحث فى كل شىء، وينتقد كل رأى، ولا يسلم إلا إذا قام الدليل على ما فيه من المنفعة العامة»[٢٩]. فيكون جوهر الموقف النقدى، وربما قال قاسم أمين «الانتقادى»، هو التوقف عن الحكم الفورى على أى رأى لحين النظر فيه، ثم يكون الأخذ به أو عدمه بحسب قدر الدليل المقدم معه، وبذلك يتطلب الموقف العلمى جهداً واضحاً، وهو ما يظهر فى قول قاسم أمين فى موضع آخر: «طالب الحقيقة الذى تعود على طريقة الانتقاد العلمى لا يحكم فى الحوادث الاجتماعية على هذا الضرب من التساهل»[٣٠].

وقد رأينا للتو إشارته إلى «المنفعة العامة» كأحد مقومات الحكم العلمى. وهذه سمة جديدة للعلم فى تصور قاسم أمين، الذى يبدو مقتنعا أن العلم مفيد على الدوام، وأنه هو الذى يحقق المنفعة والمصلحة بل والسعادة، وربما قلنا إن العلم، من هذه الزاوية، يتحد مع «العقل» ومع «الفكر السليم»، بل ويصبح تحقيق المنافع معيار ذلك «الفكر السليم»[٣١]. ويمكن أن نقول إن قاسم أمين داعية إلى ما يمكن أن يسمى «بالمجتمع العلمى»، أى الذى يتأسس على

أساس قيادة العلم لتكوينه ولخطواته واختياراته. إن العلم يعنى «التقدم والأنوار بشأن كل شيء ولجميع الناس»[٣٢]، وإذ يكتب قاسم أمين، فإنما يكتب «لأهل العلم ، وعلى الخصوص للناشئة الحديثة التى هى مستودع أمانينا فى المستقبل، فهى التى، بما اكتسبته من التربية العلمية الصحيحة، يمكنها أن تحل مسألة المرأة المكان الذى تستحقه من العناية والبحث»[٣٣]. وخلاصة القول: «لو كان العلم قاصراً على المعرفة فقط، وليس له أثر فى العمل، لفقد معظم أهميته، إن لم نقل كلها»[٣٤]. أخيراً، وليس آخراً، فإن فكرة «المجتمع العلمى» هذه تقوم فى أساس مشروع ومقصد مقالات «أسباب ونتائج»، على ما نرى فى مقدمتها على الخصوص[٣٥].

ثانيا : بعض المفاهيم الرئيسية :

هناك مفاهيم رئيسية يتضح بالبحث أنها تقف فى خلفية تصور قاسم أمين عن العلم، مَشكِّلة له ما يمكن تسميته بالأُطر المترابطة، وهى مفاهيم الحقيقة، الكون، نظام الكون، الطبيعة، قانون السببية.

يحتل مفهوم الحقيقة مكانا بارزا فى كتابات قاسم أمين، كيفا وكما على السواء. ففى مقدمة مقالات «أسباب ونتائج»[٣٦]، ومقدمة «تحرير المرأة» وتمهيده معا نجد ذكر الحقيقة والحق هدفا[٣٧]. وهو

يرى أن الحقيقة واحدة[٣٨]، فى مقابل أن العلم واحد كما رأينا فى الصفحات السابقة. وهى ذات سلطان، أى إجبار وإلزام: «للحقيقة سلطان يصعب على كل ذى نفس أن لا يحس به وأن لا يخضع لحكمه»[٣٩]، وينبغى أن نقوى فى نفوسنا «حب الحقيقة والاستغراق فى تحصيلها والشوق إلى اكتشاف المجهول»[٤٠]. ثم أن الصلة بينها وبين السعادة طردية : «كلما تجرد الإنسان عن الأوهام والخيالات قرب من السعادة، ويبعد عنها بقدر ما يبعد عن الحقيقة»[٤١]. ولعل أبلغ وأكمل ما قاله قاسم أمين عن الحقيقة هو قوله: «الحقيقة هى ضالة الإنسان فى العالم، ويجب عليه أن يسعى وراءها بلا قصور ولا تعب. الحقيقة هى الكنز الذى أودع الله فيه كل آمال الإنسان، لا يجدها إلا من رغب فيها ومال عن سواها. الحقيقة هى مشرق السعادة، لأنها الوسيلة وحدها لوصول الإنسان إلى كمال العقل والنفس»[٤٢]. أخيراً، فربما تشوف قاسم أمين التمييز بين ما نعتقد مخلصين أنه الحقيقة، أو قل «الحقيقة الذاتية مع خلوص النية»، وبين الحقيقة الموضوعية، تحت اسم «الصواب»، وذلك كما يتضح فى قوله عن بعض المستشرقين: «... غير ناظرين فى ذلك إلا إلى تقرير الحق وإعلان الحقيقة، صادفوا الصواب أم أخطاؤه»[٤٣]. ولكنه لم يطور هذه الفكرة الطريفة فى أى موضع

آخر. المهم، فى النهاية، هو أن الحقيقة هى الإطار الأعم للجهد الإنسانى سواء من أجل تحصيل المعرفة أو للفوز بالسعادة.

ثم هناك مفهوم «الكون». ورغم قلة إشارات قاسم أمين إلى هذا المفهوم، إلا أننا نرى أنه يكون الإطار الثانى لتصورات قاسم أمين عن العلم. إن الغاية المعرفية الأعلى هى أن يعرف الإنسان ما فى الكون من الموجودات، ومنها نفسه(٤٤)، وعلى هذا فإن معرفة النفس جزء من معرفة الكون، والقوانين التى تحكم حركات الكائنات هى ذاتها التى تحكم أحوال الانسان(٤٥). ويمكن أن تقول إن قاسم أمين ذو حس كونى قوى، ويظهر هذا الحس على الخصوص فى إدراك ما يمكن تسميته «بنظام الكون»: إن «الله وضع للعالم سنة وللحياة نظاما وللمخلوقات نواميس تجرى عليها أحكامها»(٤٦)، ومن ذلك نظام الوراثة فى سائر الأنواع الحية(٤٧)، و«الانجذاب الغريزى الذى أوجده الله فى كل المخلوقات الحية»، بما فى ذلك النبات(٤٨). وليس تعبير «النظام الكونى» من ابتداع الباحث، بل يقول قاسم أمين فى مقدمة «أسباب ونتائج»: «هذا نظام المولى سبحانه وتعالى فى العالم كله، فليس فى الكون شيء وجد بلا موجد، وسبب واضح أو خفى، معروف الآن أو يكشفه المستقبل»(٤٩). وربما كان قانون التغير الدائم من علامات هذا النظام: المسلم «وعوائده جزء من

الكون الواقع تحت التغيير والتبدل فى كل آن. أيقدر المسلم على مخالفة سنن الله فى خلقه، إذ جعل التغيير شرط الحياة؟»[٥٠].

وحين يتحدث قاسم أمين عن العالم المدرك بالحس مباشرة فإنه قد يستخدم كلمة «العالم»، كما رأينا منذ سطور، ولكنه قد يستخدم كذلك اصطلاح «الطبيعة»، وإن كانت الصفة «طبيعى» أكثر وروداً. وربما قصد «بالطبيعة» هذا العالم الموضوعى المنظم المتمتع بقوانين تحكم أحداثه، وبقانون السببية على الخصوص (وسنعود إليه بعد قليل)، ولكنه قد يستخدم كلمة «الطبيعة» ليدل على ما هو ثابت وملازم لتكوين ما، كما فى قوله: «الرأى العام يعتبر أن تغيير كل عادة ألفها مخالف للطبيعة، لأنه لا يفرق بين العادة والطبيعة»[٥١]. ونشير فى هذا الصدد إلى استخدام قاسم أمين لكلمة «المادة»، كما فى تعبير «المادة الإنسانية»[٥٢]، ولكلمة «مادية» كما فى تعبير «المؤثرات المادية والأدبية»[٥٣].

أخيراً فربما كان قانون السببية هو المبدأ العلمى الأهم فى أفق قاسم أمين، لاتصاله بفكرة الإصلاح الاجتماعى على الأرجح، فلا غرابة أن نراه يقرره فى مقدمة مقالات «أسباب ونتائج». وينتشر فى صفحات قاسم أمين تعبيرا «الأسباب» و«العلل»، وفى خلال ذلك قد نراه يميز العلة الأولى التى هى علة لغيرها من العلل[٥٤]، أو

يفرق بين سبب أولى وآخر ثانوى[٥٥]، كما أنه يصل إلى تقرير واضح لمبدأ الحتمية صعودا من فكرة العلية: «العلل المؤكدة تنتج بالحتم (fatalement) نتائج مؤكدة»[٥٦].

ثالثا : أدوات الفهم العلمى :

إن قاسم أمين عقلية علمية من الدرجة الأولى، ومظاهر هذه العقلية العلمية لا تظهر وحسب في إعلان أهمية العلم والدعوة إليه وإلى اتخاذ نهجه أو فى توافر الأطر المناسبة لظهور هذه المظاهر وإنما لابد كذلك وبالضرورة، وربما فى المحل الأول، من أن تبين هذه العقلية العلمية فى عدد من المفاهيم والعمليات الذهنية التفصيلية، أى لابد من أن تكشف هذه العقلية العلمية عن نفسها على هيئة عدد من العمليات الفعلية التي يقوم بها المفكر وهو بسبيل معالجة بعض مسائله. هذه المفاهيم والعمليات هى التى نسميها «أدوات الفهم العلمى» ولا شك فى خفائها النسبى، بل ربما لا يكون الكاتب نفسه على وعى كامل بكيان كل مفهوم أو عملية من حيث هو كذلك وفى ذاته، بل ربما لا يكون لذلك الكيان عنده تسمية محددة، كما أن أدوات الفهم العلمى تلك لا توضع عادة على هيئة عناوين لفصول أو أجزاء من فصول، ولكن الذى يهمنا هو أنها هى

التى تكون آلة الفحص الذهنى عند المفكر موضع الدراسة، وأنها هى التى تكون لحمة ذلك الفحص وسداه بالفعل. من جهة أخرى، فإن تأثير هذه الأدوات الذهنية لا يمكن أن يقل عن تأثير القضايا المقررة تقريرا والمعلنة فى وضوح، بل ربما يزيد أحيانا عن تأثير تلك، لأن هذه الأدوات، وهى شبه خفية عند القراءة أو الاستقبال العادى لتقريرات المفكر، تنفذ من غير انتباه واضح إلى ذهن المتلقى، وتطبعه بطابعها غالبا، اللهم إلا إذا انتبه إلى وجودها فحاربها على نحو صريح، وتبقى معه تفعل فعلها فى تناوله هو، أى تناول القارئ والمتلقى، لمسائل مختلفة تماما يقوم بها لحسابه. بعبارة أخرى، فإن هذه الأدوات الذهنية هى التى تشكل ذهن المتلقى، وذلك من حيث الناحية التكوينية فيها، فى مقابل الناحية المضمونية، وتبقى معه طويلا. ونحن نعتقد أن قراءة قاسم أمين كانت من الموجهات التشكيلية الأساسية لذهن كاتب هام من مثل طه حسين، وأنه لن يصح استيعاب طريقته فى فهم الأمور وتناولها، منذ كتاباته الأولى فى «الجريدة» وغيرها، إلا بالاستعانة بالنموذج التوجيهى المودع ضمنا، ولكنه الموجود يقينا، بين سطور كتابات قاسم أمين.

وسنرى من بعد، فى خلال هذا الفصل وعند تناول دراسته

للمسائل الاجتماعية، مفاهيم معينة من مثل «العادة» و«الحال» و«الحوادث الاجتماعية» و«الوراثة» و«قانون التقليد» وغيرهما مما استعملها أدوات فى فهم الواقع الاجتماعى والتاريخى المصرى، ونشير الآن إلى بعض آخر من المفاهيم سواء منها ما انصب مباشرة على الظاهرة الاجتماعية أو كان أداة للفهم العلمى بوجه عام، ثم إلى عدد من العمليات الذهنية المنهجية العامة.

من تلك المفاهيم مفهوم «العوامل» جمع «عامل»(٥٧)، وقريب منه، فى استخدام قاسم أمين، مفهوم «العنصر»(٥٨)، وكذلك أيضا مفهوم «الوسيلة»(٥٩)، وخاصة مفهوم «المؤثرات»(٦٠). وهناك مفهوم «البناء»، وإن كان نادر الظهور على قلم قاسم أمين، ويبدو فى استخدامه له وكأنه يستخدمه كتشبيه («بناء آل أمره إلى الخراب والتهدم، وقد انقض أساسه وانحلت مواده»(٦١))، ولكنه يطبقه على كيان المجتمع، فيبدو وكأنه يقترب من معنى اصطلاحى اجتماعيا. ونجد عنده أيضا مفهوم «قانون التزاحم فى الحياة» منسوبا إلى العالم البريطانى داروِن(٦٢)، ولكنه، أى قاسم أمين، حساس بوجه عام إلى مفهوم «الصراع»، ويظهر عنده تحت تعبير «الجهاد»(٦٣)، وربما يقصد به المغالبة. ونجد عنده مفهوم «التطبع بالوسط البيئى»(٦٤)، وهو مرتبط بعلم التاريخ الطبيعى كسابقه.

ثم هناك عدد من المفاهيم التى يغلب عليها الطابع المنهجى. ونبدأ أولا بفكرة الموضوعية فى معنى البحث عن الحق لذاته، فى مقابل الخضوع للهوى والشهوة والإلف والعادة[٦٥]، وهى الفكرة التى تقف في خلفية إعلان مقدمة «تحرير المرأة»، التى تتحدث عن ضرورة إعلان الحق الذى «لايحتاج فى تقريره إلى تصديق منا به»[٦٦]. ويوجد فى مقابل المعنى السابق معنى الهوى كما رأينا، وكذلك معنى التوهم أو إيهام النفس، بل «غش النفس» صراحة (إذا كان القارئ «لا يغش نفسه بالتزويق والتزيين الوهميين، وإنما يسمع صوت وجدانه السليم ويرجحه على كل هوى سواه..»[٦٧]). ونجد هنا مفهوم « الوجدان السليم » ، وهو يعنى « الحس السليم»، ولكن على المستوى الذهنى ، وربما كان التعبير الفرنسى bon sense ، الذى يعود إلى ديكارت، وكان يعنى به «العقل السليم»، يقف وراء تعبير قاسم أمين المذكور. وربما يتأيد هذا النظر حين نقرأ قوله فى موضع آخر: «إذا استخدمنا عقولنا، واتخذنا الفكر السليم رائدا لنا، فلا شك أنا... الخ»[٦٨]، وهو هنا يشير إلى نفس المعنى بأداء مختلف بعض الشىء. ويتصل بهذا كله مفهوم «الدليل» من غير شك. والدليل قد يكون شهادة التجربة أو ترجيحا عقليا، ولكنه على كل الأحوال يقابل «القضايا المسلمة»[٦٩]

بغير فحص وبتأثير الإلف والعادة والهوى. ومن المفاهيم التى يعود إليها قاسم أمين كثيرا، خاصة وهو بصدد إثارة مسألة عوامل الانحطاط وأسباب القوة فى العائلة أو المجتمع أو الأمة الإسلامية، مفهوم «التلازم»، الذى يدل على أمرين يجتمعان معا ويرتفعان ويتبدلان معا، وهو ما يظهر مثلا من قوله: «الحالة العقلية والحالة الأدبية متلازمتان تلازما تاما، بل هما فى الحقيقة حالة واحدة، وإنما وضع لهما اسمان بحسب اختلاف الجهة التى ينظر منها إليها..»[٧٠]، و«التلازم» اصطلاح منطقى معروف فى اللغة العربية التقليدية، وهو يقابل الفرنسى concomitance[٧١]. ونشير أخيرا إلى مفهوم «التنبؤ» العلمى، حيث يرى قاسم أمين أن المعرفة العلمية تفيد فى تقدير ما سيحدث فى المستقبل، وهو يربط ما بين فكرتى «القانون الطبيعى» و«التنبؤ»، وأن كان لا يستخدم هذا الاصطلاح حرفيا، وهو ما يظهر من قوله: «الحوادث الاجتماعية خاضعة لقوانين طبيعية يسهل معها العلم بما سيكون من أمرها فى المستقبل»[٧٢].

ونأتى الآن إلى عدد مما سميناه «عمليات ذهنية منهجية»، تتمثل فى طرائق يستخدمها المفكر وهو بسبيل فحص مسائله. أشرنا من قبل إلى ميل قاسم أمين إلى المقارنة بين الطبقات والشعوب

والحضارات، هذا الميل يقابله، منهجيا، وعلى نحو إيجابى، منحى عقله نحو اقامة «الموازاة» بين شيئين، وأحيانا بينهما وبين أضدادهما. وأشهر مثال على ذلك ربطه ما بين ارتقاء الأمم وارتقاء المرأة، والانحطاط المقابل على المستويين معا[٧٣]، ويقابل نفس هذه الموازاة موازاة أخرى ما بين انحطاط حال المرأة وانحطاط حال عائلتها بأسرها، والعكس بالعكس[٧٤]، وكذا أيضا الموازاة بين أخلاق الفرد فى عائلته وأخلاقه فى أمته[٧٥]. وأحيانا ما تأخذ هذه الموازاة شكلا مخصوصا حين تكون بين جانبين مختلفين نوعا أو فى المقدار، ولكنهما يتقابلان تماما وتظهر فى الأكبر السمات التى للأصغر والعكس بالعكس، والمثال هنا هو تقابل العائلة والأمة[٧٦]، وكما نرى من تقرير قاسم أمين فى بحثه عن الحجاب: «الحجاب على ما ألفناه مانع عظيم يحول بين المرأة وارتقائها، وبذلك يحول بين الأمة وتقدمها»[٧٧]. وهذا التقابل يمكن تسميته بالموازاة الترابطية، إذا اتبعنا لغة قاسم أمين فى نفس الإطار: «إذا انتهى القارئ من تلاوة هذا الباب، رأى كيف ترتبط المسائل بعضها ببعض، وكيف أن أصغرها يتوقف عليه أعظمها»[٧٨]. نفس هذا المعنى نجده فى ربط قاسم أمين ما بين «منزلة الإنسان فى الوجود ومرتبة المرأة فى البيت وشأنها فى العالم»[٧٩]. ويرتبط

بعملية الموازاة هذه، على نحو ما، ما سبق أن أشرنا إليه من استخدام قاسم أمين لعملية إقامة «التناسب العكسى» فى المقارنة بين أمرين، ولعل أدق ما يوضح هذه العملية هو هذا النص الجميل المعبر: «تساوت النساء عندنا في الجهل مساواة غير محبوبة، ولا يظهر اختلافهن إلا فى الملبس والحلى. بل يمكن أن يقال إنه كلما ارتفعت المرأة مرتبة في اليسر زاد جهلها، وإن آخر طبقة من نساء الأمة وهى التى تسكن الأرياف هى أكملهن عقلا بنسبة حالها»(٨٠).

إن قاسم أمين على حس قوى بترابط الأشياء، وعلى مستوى الكون كله نظاما وقوانين وعلاقات. ويمكن أن نقول إن إدراكه لسمة «التفاعلية» بين الأشياء والأمور جعله يستخدمها على المستوى الذهنى لفهم الواقع، وأحيانا ما نراه يدرك أمراً ما من الوجهة التفاعلية العضوية (والبيولوجية)، أو تلك الكيميائية، أو تلك التاريخية، بحسب طبيعة الأمر. وقد سبق أن أشرنا إلى إدراكه للطابع المركب، والتركيبى بالتالى، للظواهر والأشياء، وهذه النظرة تتداخل تداخلا قويا مع النظرة التفاعلية، ويظهر هذا كله فى هذا النص القوى فى أول سطور «تحرير المرأة»: «كل تغيير يحدث فى أمة من الأمم، وتبدو ثمرته فى أحوالها، فهو ليس بالأمر البسيط، وإنما هو مركب من ضروب من التغيير كثيرة تحصل بالتدريج فى

نفس كل واحد شيئاً فشيئا، ثم تسرى من الأفراد إلى مجموع الأمة، فيظهر التغيير فى حالة ذلك المجموع نشأة أخرى للأمة»[٨١]. وبعد ذلك بصفحات قليلة نجد استخدام قاسم أمين لتشبيه «الغاز المحبوس» الذى لا يمكن أن يكتم بالضغط، «ولكن الضغط يُحدث فيه فرقعة قد تأتي على هلاك ماحواه»[٨٢]، وهو تشبيه من ميدان علمي واضح، يتضح من اختياره التوجه التفاعلي الأكيد لعقل قاسم أمين.

يتصل بالسابق أيضا بروز الحس الزمنى عند قاسم أمين، واهتمامه بادراك الأمور وفهمها وتفسيرها بالرجوع إلى عامل الزمن[٨٣]. والأمثلة على ذلك كثيرة عنده، ومنها نظرته إلى ثبات أو فقد المضمون التعليمى بحسب السن وعوامل أخرى[٨٤]، وتفسيره للتقدم العلمى عند المسلمين باستخدام فكرة الجيل[٨٥]، وانتباهه إلى ظهور الحضارات ونموها ثم انهيارها فى الزمن[٨٦]، بل هو يربط فى «المصريون» ما بين الحضارات والشعوب ويقول فى وضوح: «وهكذا تولد الأمم وتنمو ثم تموت، شأنها شأن الكائنات الحية التى هى تتألف منها: هذا هو تاريخ المدنيات الشرقية»[٨٧]. ومن المؤسف أن قاسم أمين يطبق هذه النظرة على الحضارات الشرقية وحدها، ولا يطبقها، من حيث الموت، على الحضارة

الأوربية، أو من حيث الميلاد الجديد، على حضارة جديدة للأمة التى ينتمى هو إليها[٨٨].

ونأتى أخيراً إلى عمليات ذهنية منهجية ذات طابع منطقى أظهر. فنجد قاسم أمين على وعى، فيما يبدو، بمفاهيم وعمليات الاستقراء العلمى، ونعلم على كل حال أنه يعرف جون استيوارت ميل، ويبدو أنه يعرفه معرفة جيدة. ومن أمثلة استقراء الوقائع الاجتماعية عنده.

كما أنه أحيانا ما يستخدم الفروض من أجل جلاء حقيقة موقف اجتماعى أو أخلاقى ما وهو يحاول جاهدا، فى الأمور الهامة، أن يرجع عوامل الموقف إلى مبدأ أو أصل[٩٠]. أول أو إلى عامل تكون له الحاكمية على العوامل الأخرى، مثل إرجاعه انحطاط الأمة إلى انحطاط المرأة، وانحطاط المرأة إلى جهلها، واختصاره لكل ما يريد قوله فى «تحرير المرأة» فى عبارة: «الارتباط التام بين الرجل وأمه»[٩١].

وتبقى بعض الملاحظات الهامشية على هذا العرض «لأدوات الفهم العلمى» عند قاسم أمين. صحيح أننا أضفنا على مصطلحه كثيرا من المصطلحات التى لم يخطها قلمه، ولكننا حاولنا دائما تبرير هذا الاستخدام بالرجوع إلى مضمون واضح لنص منه أو

لنصوص. ثم إنه لا ينبغى أن يقال إن شرط وجود «المفهوم» عند كاتب ما أن يكون هو واعيا بتعريفه مثبتا له، فهذا ضرب من المغالاة، وخاصة مع حالة مفكرى البدايات، وإنما اللازم هو تجسد المفهوم فى عبارات واضحة لا تسمح باللبس. أخيراً، فإنه من غير المشكوك فيه عندنا أن قاسم أمين، قاضياً، كان شديد الحساسية للعمليات المنهجية ولتمايز الأفكار معاً، وما ينبغى لنا من بعد ذلك أن نطالبه بأن يقدم تقدمة نظرية بحتة لمشاركاته ذات الهدف الاصلاحى أولا. ومن نافلة القول أن سائر ما يحتويه هذا الفصل بأقسامه الأربعة يدخل فى إطار أدوات الفهم العلمى، وخاصة ماسندرسه فى القسم التالى، وإنما كان التقسيم لأجل الفصل والترتيب ومراعاة لتجانس المادة المعروضة فى كل قسم من أقسام هذا الفصل.

رابعا: مناهج واتجاهات:

نستعمل كلمة «مناهج» هنا بالمعنى العام، الذى قد يشير حينا إلى المنهج العلمى بالمعنى الدقيق، سواء فى الطبيعيات أو الإنسانيات، ولكنه يشير فى العادة إلى طرائق فى البحث موعى بها تتسم بالدقة ووضوح الخطوات، من أجل الوصول إلى نتائج يوثق

بها ويعتمد عليها. والحق أن أى فكر سليم لابد أن يقوم بعملياته على نحو «منهجى» مرتب مناسب لطبيعة الموضوع الذى يتناوله، ومن هنا إمكان تعدد المناهج التى يستخدمها الفكر لاستجلاء الغامض والوصول إلى الإثبات أو النفى القويين.

أ - خطوات المنهج :

ويمكن أن نثبت، على اليقين، الوعى الواضح عند قاسم أمين بأمور المنهج، وهو ما يتضح من أولى سطور أول كتاب ينشر له وهو «المصريون» (١٨٩٥م)، حيث يحدد ما يريد القيام به وهو بسبيل الرد على محتويات كتاب الكاتب الفرنسى الدوق داركور «مصر والمصريون» (باريس، ١٨٩٣). ويحسن أن نترجم هذه السطور بحروفها: «اهتممت على الخصوص بأن أعارض القوانين العامة التى أراد استنباطها من الوقائع التى لاحظها... ولكن الذى ماكنت لأقبل به مطلقا هو أن يكون مقضيا علينا قضاء وقدرا بألا نخرج أبداً من حالة انحطاط مستمر. وسيرى القارئ أننى اعترفت بعيوبنا، محاولا أن أفسرها وأن أجد العذر لها... كان من الضرورى مقارنة العادات (فى أوربا وعندنا) وإبراز مزاياها ومساوئها... (وقد أردت أن أكون) مخلصا كل الاخلاص... ولم أقل

شيئا واحدا لم أكن على اقتناع كامل به»[٩٢]. إن هذا النص ليحتوى على برنامج منهجى كامل، فضلا عن المصطلح الذى يستخدمه صراحة، ولذلك فلن نقف أمامه هنا تفصيلا، مكتفين بمحض الإشارة إلى حديثه عن «القوانين العامة» و«استنباطها» و«الوقائع التى لاحظها» (ويستطيع القارئ أن يرى فى خلال الكتاب كيف يوقع قاسم أمين بالكاتب الفرنسى، حين يبين التناقض ما بين الوقائع التى يستشهد بها والنتائج التى يستخرجها منها، بل وفقر الملاحظات أو انعدامها، وعدم الاتساق بين التقريرات، واستخراج نتائج من غير أساس ... إلى غير ذلك)، وفكرة الضرورة والحتم فى «قضاء وقدراً»، وفكرة القبول والرفض فى «أقبل»، والأمانة الفكرية فى «اعترفت بعيوبنا»، ومفهوم «التفسير»، ومفهوم «المقارنة» بين العادات الحضارية، ومفهوم «الإخلاص» المتصل بالأمانة، وفكرة ضرورة «الاقتناع الكامل» المتصلة بمشكلة اليقين من جهة والأمانة العلمية من جهة أخرى.

وربما لا يحتوى «تحرير المرأة» على إشارات محددة تفصيلية إلى خطوات الطريقة العلمية على ما سنرى مع «المرأة الجديدة»، ولكن المؤلف واحد والفارق الزمنى فى التأليف لا يزيد عن سنة ما بين ظهور الأول والثانى، وقد خصص الأول لعرض القضايا

المركزية للمؤلف، بينما سيدور الثانى، بجرأة أكبر وصراحة أقطع، حول بعض المسائل التى دار عليها الخلاف مع المعلقين والمنتقدين للكتاب الأول. ويمكن أن نتوقف على الأقل فى «تحرير المرأة» عند مراعاة الكاتب لأصول المنهج السليم فى عرض المسائل وتأصيلها والتأريخ لها، وبيان وجهات النظر والمفاضلة بينهما، والرجوع إلى الوقائع، والتذكير بطبيعة المشكلة المطروحة كل حين وآخر، والاهتمام بتلخيص الخطوات السابقة كلما همّ المؤلف بالانتقال إلى خطوة جديدة، ثم التلخيص العام للنتائج، إما فى كل فصل على حدة، أو للكتاب ككل. ولا يعوز المؤلف، وهو القانونى والكاتب المدقق المنتبه، الاصطلاح المنطقى أو شبه المنطقى، ونكتفى بالإحالة إلى نص من سطور عشرة، فى بداية عرضه للجانب الاجتماعى من مسألة الحجاب، حيث يلخص ما فعل فى الأقسام السابقة، ويشير إلى ما هو ذى تأثير على ما سيلى، ثم يعلن عن قصده وعن موضوع القسم الذى هو بصدده، وحيث نجد «بينا» و«ذكرنا» و«قررنا» و«استدلالنا» و«نريد أن نبرهن على»، مع استخدام «تترتب على» و«أسباب» و«كيف ترتبط المسائل» وغير ذلك[٩٣].

أما «المرأة الجديدة» فإنه الكتاب الذى يحتوى على حديث مباشر عن خطوات المنهج العلمي. فهناك أولا ذلك العرض

الدقيق[٩٤] لكيفية استقراء أوضاع حقوق النساء ما بين النظريات من جانب «والواقع» من جانب آخر، وربما أخذ قاسم أمين هنا كلمة «نظريات» بمعنى التصورات المجردة غير المرتبطة بالوقائع التى يختلقها «رجل يعيش فى عالم الخيال»، ويظن أن مجرد كتابتها على الورق مساو لتمثيلها للواقع. فى مقابل هذا العائش بين مجردات الخيال هناك ما يمكن أن نسميه «رجل البحث العلمى». فلننظر بدقة كيف يكون سلوك هذا الرجل، «الذى اعتاد على أن يحلل النظريات ويختبرها بقياسها إلى الواقع»[٩٥].

ونضيف أخيراً، فيما يخص الاستقراء، أن شواهد استقراء قاسم أمين للوقائع كثيرة فى كتاباته، ونكتفى بالإشارة إلى أمثلة سريعة، من مثل استقرائه لمواقف احتقار الرجل للمرأة[٩٦]، ومواقف النتائج السيئة لجهل المرأة فى ميدان المعاملات[٩٧]، كما أن الاستقراء قد يمتد إلى وقائع التاريخ لمقارنتها مع الوقائع الحالية، كما فى مثال مقارنة المرأة المصرية مع المرأة العربية قبل الإسلام وفى الحاضر (فى إطار دراسة «منشأ صورة المرأة فى عقول المسلمين»)[٩٨].

ويكمل النص الذى حللنا معانيه فى شأن الاستقراء نص آخر من نفس كتاب «المرأة الجديدة»، يبدأ فيه المؤلف بالحديث عن

مضـمون «التربيـة العلمـية»، ولكنه يتـضـح من بعد سطور أنه إنما يتحدث عن طبيعة المواقف الواجب اتخاذها فى عمليات «الأبحاث العلمـيـة»، أو هو يتناول حـسب اصطلاح قـاسم أمـين: «التـربيـة العلمية»[٩٩].

أخيـرا، فـإن المقـالة الأولى من مـقـالات «أسبـاب ونتـائج» ذات أهمية منهجية مؤكدة، وإن لم تتعرض لخطوات البحث العلمى إلا جزئياً.

ب - مناهج منوعة :

لا شك أن القارئ قد لاحظ فى خلال هذا الفصل، استخدام قاسم أمين لعدد كبير من مناهج البحث ، ومنها ما هو ذو طابع منطقى وما هو أقرب إلى ما يستخدمه العلماء على مستوى الملاحظة بل والتجربة أحيانا، سواء العلماء الطبيعيون أو أولئك الاجتماعيون. وسوف نشير إلى هذه المناهج المنوعة غير متوقفين إلا عندما لم نشر إليه من قبل، أو ما يستحق بعض التفصيل، وذلك بحسب تتالي كتب قاسم أمين.

ربما كان منهج المقارنة الشامل بارزا فى «المصريون»، وهو أمر طبيعى باعتبار موضوع الكتاب، كما أن الكاتب نفسه يشير إلى

هذا المنهج تخصيصا تحت اسم «مقارنة العادات» فى مقدمة الكتاب[١٠٠]. ويستخدم الكتاب نفسه منهج فضح التناقض بشكل موسع أيضا، حيث ينبه قاسم أمين فى مواضع كثيرة إلى تناقضات فى أقوال الدوق داركور مؤلف الكتاب المنتقد[١٠١]. أخيرا، فإن هناك فى «المصريون» منهجا بارزا ثالثا يمكن أن نسميه منهج «إعادة تفسير الوقائع»، وهو يستخدمه مثلا بصدد.

وفى «تحرير المرأة»، يستخدم المؤلف منهج المقارنة، والاعتماد على المشاهدة والملاحظة، والفحص بافتراض السلب والإيجاب، ويلجأ كثيراً إلى الافتراض من أجل الإفحام، ويهتم، كما رأينا، بمظاهر لما يمكن أن يسمى «بالتناسب العكسى»، كما أنه كثيرا ما ينتقل من جزئيات الملاحظة إلى تعميمات كلية، وقد رأينا وسنرى، على كل ذلك، الكثير من الشواهد، فليس من داع لاثباتها فى مظانها هنا مرة أخرى.

ولكن كتاب «المرأة الجديدة» هو أحفل كتابات قاسم أمين بالإشارات النظرية إلى المسائل المنهجية، وهو ممتلئ أيضا بمواضع تطبيقية منهجية كثيرة، وإن كان كتاب «المصريون» يفوقه من هذه الزاوية الأخيرة.

ويشير قاسم أمين إلى منهج مقارب لمنهج، كما يستخدم طريقة

الاثبات بالخلف، وطريقة الاثبات بالامتناع[١٠٣]، ويؤكد على أهمية المقدمات: «كلما أراد [المتعود على الأبحاث العلمية] أن يشتغل بمسألة طبيعية أو تاريخية مثلا، جمع الحوادث التى تتعلق بها ورتب الوقائع واستنبط منها القاعدة التى يحكم بصحتها بناء على ماحصّل من المقدمات»[١٠٤].

جـ - اتجاهات منهجية :

نبدأ أولا بالإشارة إلى اتجاهين كبيرين فى التناول المنهجى عند قاسم أمين: النظرة الكلية، وتلك النسبية، ثم نشير إلى عدد آخر من اتجاهاته المنهجية.

إن الناظر فى كتاب «المصريون» يجد أن مؤلفه يربط فيه جوانب كل موضوع يتناوله ربطاً قوياً يظهر التأثير المتبادل بينهما، وهو ينظر إلى الأمور دوماً من خلال وضعها فى سياق تاريخى ممتد، أو يراد له أن يكون ممتدا أعظم ما يكون الامتداد، ولا يدرك المسألة إلا فى علاقاتها بالمسائل الأخرى، ولا الطبقة أو الجماعة إلا وعينه على نظائرها، ولا ينظر إلى الريف وحده، بل إلى الريف والمدينة معا، ولا إلى مصر وحدها، بل إلى مصر واوربا جميعا، ولا يرى فى اوربا محاسنا وحسب، بل يضع النقاط فوق الحروف

ويظهر مرات ومرات أدق معايبها مما لا تعرفه إلا عين خبير، وكانت عينه كذلك. نعم، هذه شيمة القاضى رجل القانون، ولكنها أيضا شيمة المفكر الأمين المنتبه. ثم انظر اليه فى «تحرير المرأة»، تجده ينظر إلى المرأة فى إطار بعث الأمة، ويرى الأمة فى حاضرها وفى سياق ماضيها ومستقبلها، ويرى شتى جوانب حياة الأمة، ويفصِّل فى بحث شتى جوانب حياة المرأة. وتظهر هذه النظرة الكلية مطبقة فى جمعه معاً لأهم مسائل شئون المرأة والأمة فى هذا النص الذى أشرنا إليه سريعا من قبل، ويحسن أن نضعه أمام القارئ كاملا فى سطوره العشرة: «بينا عند الكلام على تربية المرأة مالها من المزايا الجليلة والآثار الحسنة التى يترتب عليها فى شئونها نفسها وشئون بيتها وفى الاجتماع الذى هى فيه، وذكرنا أن من أكبر أسباب ضعف الأمة حرمانها من أعمال النساء، وأن تربية الطفل لا تصلح إلا اذا كانت أمه مرباة، وقررنا أن الولد، ذكراً كان أو أنثى، لا يملك صحة ولا خلة ولا ملكة ولا عقلا ولا عاطفة إلا من طريقين: الوراثة والتربية... ونريد أن نبرهن هنا على أن تربية الأم نفسها لا يمكن أن تتم إذا استمر حجاب النساء على ما هو عليه الآن، حتى إذا انتهى القارئ من تلاوة هذا الباب رأى كيف ترتبط المسائل بعضها ببعض، وكيف أن أصغرها يتوقف عليه

أعظمها»[١٠٥].

هذه النظرة الكلية، كما سمحت بإبراز الترابط بين الأمور، هى التى تسمح كذلك برد الكل إلى واحد أحيانا، مثلما يفعل قاسم أمين حين يرد الأمة إلى العائلة[١٠٦]، أو حين يقول جازما: «أود أن كل مصرى يرى أن مسألة التربية عندنا هى أم سائر المسائل»[١٠٧].

ومن نافلة القول أن قاسم أمين، دارس القانون والشريعة، يعرف جيد المعرفة المفهوم النظرى «للكليات» و«الجزئيات»، كما يظهر من حديثه عن «الجزئيات وردها إلى كلياتها»، و«الفروع الراجعة إلى أصل واحد»، ومقابلته «القواعد الكلية» بالأحكام الزمانية[١٠٨]. وما كانت هذه السطور السابقة إلا مشيرة إلى بعض من ملامح النظرة الكلية عند قاسم أمين، وهى تظهر فى مواطن أخرى كثيرة، منها، على سبيل المثال وحسب، نظره إلى الانسان فى اطار كليات أعم حتى يصل إلى الكون فى مجمله[١٠٩]، كما رأينا فى هذا الفصل، ومنها نظرته الكلية والتراتبية إلى أعمال الإنسان من حيث حياته وعائلته والوجود الاجتماعى[١١٠]، ومنها جمعه لشتى المؤثرات علي الحياة الإنسانية فى أمرين: الوراثة والتربية (وهو يعنى هنا بهذه الأخيرة ما يسمى اليوم بالثقافة، كما

يظهر من واقع تعبيراته)، ومنها، أخيرا وليس آخرا، إدراكه الفعلى لكلية «الثقافة» بحسب الاصطلاح الاجتماعى، حين يقول مستخدما بالفعل اصطلاح «الكليات»: «من «الخطأ ما يتوهمه الكثير منا من أن الترقى يحصل فى بعض شئون الأمة، ولا يؤثر فى سائرها، والصواب أن الترقى لا يكون ترقيا صحيحا إلا إذا وجد منه روح تظهر فى جميع شئون الأمة، جزئيتها وكلياتها، حتى اذا شاء باحث أن يحلل جملته وجدها مركبة من جزئيات من الترقى تظهر فى المسكن والمطعم والملبس والمبانى والطرق والجميعات والأفراح والمآتم وأساليب التعليم والتربية والتياترات والملاهى، كما تظهر فى الصنائع والتجارة والزراعة والعلوم والفنون، وعلى الجملة يجد أثرا للترقى فى جميع مظاهر حياتها العقلية والأدبية»(١١١).

وتأتى «النظرة النسبية» لتكمل منهجياً «النظرة الكلية». فهي تعنى إدراك الباحث أنه لا يوجد حكم مطلق، تماما كما أن، أو لأن، أى ظاهرة وأى موجود لا يمكن إدراكهما إدراكا سليما إلا فى ظل وضعهما إلى جوار، وفى مقابل، ظواهر وموجودات أخرى. لقد مرت علينا بالفعل، فى الفصل السابق، شواهد على هذه النظرة النسبية، ويهمنا هنا أن نركز النظر علي بعض معالم «النسبية الثقافية» بوجه خاص، فى اطار حس قاسم أمين القوى بالنسبية

الإنسانية بوجه عام.

في كتاب «المصريون» يظهر حس النسبية الثقافية حين يقوم المؤلف بالمقارنة بين الأخلاق الإسلامية، أو قل على الأدق أخلاق الإسلاميين، وأخلاق الأوربيين، فلكل آراؤه الأخلاقية الخاصة ووجهات نظر مختلفة في ادراك الحياة(١١٢). وهو يفصل في معايير المقارنة من غير أن ينزلق إلى الحكم علي الطرف الآخر بمعيار الأول، بل يدركهما معا ككفتي ميزان تتراوحان، وكل منهما كفة ميزان.

في «تَحرير المرأة» نجد قاسم أمين يوجه حديثه إلى بني وطنه، فنراه يؤكد مرات ومرات على تغير عوائد المجتمعات، وعلى أن التبديل هو سنة الكون نفسه، ثم هو يعرِّف «العادة» الاجتماعية من زاوية النسبية من حيث هي، أي العادة، «طريق خاصة... حسبما يناسب الزمان والمكان»، بل يستطرد إلى التصريح بأن: «عقل الإنسان يختلف باختلاف الأماكن والأزمان»(١١٣). ولذلك فان الوقوف عند موقف واحد، وعدم مراعاة «مقتضيات الزمان والمكان» في شأن الأحكام الشرعية، يؤدي بالضرورة إلى ظهور موجة جارفة تغمر من يجمد مثل هذا الجمود(١١٤). ويوضح قاسم أمين الفرق بين المطلق والنسبي في الأحكام الشرعية، ويتبع ذلك على الفور

بمقارنة تدخل فى صميم النسبية الثقافية: «القواعد الكلية التى تحدد أعمالنا بحدود يجب الانتهاء إليها، حسب ما ورد فى الكتاب والسنة الصحيحة، هى التى لا تقبل التغيير والتبديل. أما الأحكام المبنية على ما يجرى من العوائد والمعاملات، فهى قابلة للتغيير على حسب الأحوال والأزمان. وكل ما تطلبه الشريعة فيها هو أن لا يخل هذا التغيير بأصل من أصولها العامة. فكشف الرأس مثلا قبيح فى البلاد الشرقية، لأنه كان معتبراً فى العادة مخلا بالمروءة، ولهذا السبب اعتبر عند أهل الشرق قادحا فى العدالة، ولكنه غير قبيح فى البلاد الغربية»(١١٥). ويعود فى «المرأة الجديدة» إلى تقرير النسبية الأخلاقية مهاجما زعم «المطلق» فى الأخلاق: أن البعض «يستعملون من أنفسهم الأخلاق التي جبلوا عليها، ويعتقدون أنها أخلاق الإنسانية، فهم فى نظر أنفسهم يمثلون الرجل من حيث هو، والمرأة على حالتها المعهودة اليوم تمثل فى نظرهم المرأة من حيث هى، وما دروا أن الرجال يختلفون فى أخلاقهم ومزاياهم إلى مالا نهاية له، على حسب الزمان والمكان وطرق التربية، وأن المرأة تختلف خلائقها وآدابها على نحو ما يختلف به الرجل»(١١٦). وكما هو الحال عادة مع قاسم أمين، فإنه يضرب الأمثلة ويقدم المواقف التطبيقية، ولكنه دوما على وعى نظرى بالمبدأ، وأحيانا ما يثبته

إثباتا، كما هو الحال عندما يثبت هنا مبدأ النسبية الإنسانية العامة: «الأمزجة مختلفة والغرائز متباينة والأذواق متفاوتة على حسب الأشخاص والأعمار والأزمان والأمكنة، فوضع قاعدة واحدة لجميع الأعمال الخاصة بكل فرد لا يسهل على الطبائع البشرية قبوله»(١١٧).

أخيراً، فإن كتابات قاسم أمين تحتوى على دلائل واضحة لعدد آخر من الاتجاهات المنهجية ذات الأهمية. من ذلك توجهه نحو تفضيل «الإيجاز والتركيز»، على ما يقول فى السطور الأولى من «تحرير المرأة»(١١٨). واستعداده بالاعتراف بالوقائع وإن آلمته، لأن الحق حق، وهو ما يظهر من بعض ردوده على الدوق داركور فى «المصريون»(١١٩)، كما أنه يطلب إلى صاحب العقلية العلمية ألا «يأنف من تعديل رأيه بحسب ما يقتضيه الحال ويظهر العمل»(١٢٠)، كما مر علينا من قبل، بينما كان الدوق المذكور، كما نعى عليه قاسم أمين، «لايعترف بالوقائع التى لا تعجبه»(١٢١). ويعقب قاسم أمين: «إن فى هذا إدخالا لعامل التحيز، ولعامل حب الذات، ولعامل الفخر الوطنى، فى شأن التعامل مع المعلومات التاريخية الموثقة أعظم توثيق»(١٢٢). إن مبدأ النزاهة اتجاه منهجى أساسى عند قاسم أمين، وهو يدفع العقل الأمين إلى «تقرير الحق وإعلان

الحقيقة»[١٢٣]، كما رأينا فى نص مر علينا من قبل، والإجراء السلبى المقابل يقوم فى ألا يجعل الباحث الأمين «عقله ينخدع بإحساسه»، حتى لا يصبح شأنه شأن من يقوده الهوى، والذى «لايستحسن الشىء لأنه مطابق للحق، وإنما يعتقد الشىء مطابقا للحق لأنه يستحسنه»[١٢٤]، كما يقول قاسم أمين فى عبارة أنيقة.

خاتمة:

لاريب أن دراسة قاسم أمين القانونية تأدت به إلى دقة فى المنهج وصرامة فى استخدام الاصطلاح وتنبه إلى شمول الواقع الاجتماعى وإلى ضرورة رده الى أسس عامة تمتد لتشمل الكون كله، ولتطبق عليه، بالتالى، القوانين التى تحكم مسار كل شىء. ولكن كم من دارسى القانون والعاملين فى حقله استطاعوا تكوين مثل هذه النظرة العلمية الدقيقة المتسقة التى حاولنا استخراج معالمها من مجموع كتابات قاسم أمين؟ فينبغى إذن أن نضيف سببا ثانيا إلى جوار طبيعة التكوين القانونى لعقل قاسم أمين، ذلك هو مزاجه الشخصى، أو توجهه إلى التنظيم العام فى إدراك الظواهر ومحاولة تفسيرها.

لقد حاولنا استخراج معالم مفهوم العلم وما يتصل به عند

قاسم أمين، وأثبتنا حضوره الشامل فى كتاباته، هو والمفاهيم الأساسية التى تدور فى فلكه، من مثل الحقيقة والكون والنظام والطبيعة وقانون السببية. ثم رأينا إدراك قاسم أمين المحدد لأدوات الفهم العلمى فى عملية وصف الوقائع الاجتماعية وتفسيرها، سواء من حيث الإجراءات أو من حيث العمليات الذهنية المنهجية، أو من حيث إدراكه الدقيق لخطوات المنهج العلمى المناسب واستخدامه لعدد من المناهج المنوعة، من حيث توافر اتجاهات علمية أساسية لديه.

الهوامش

(١) انظر مثلا، «تحرير المرأة»، ٧٢، «المرأة الجديدة»، ٢٠١، «أسباب»، ٤٥.

(٢) «المرأة الجديدة»، ٥١.

(٣) نفسه، ١٦٦.

(٤) نفسه، ١٨٧.

(٥) «تحرير المرأة»، ٥.

(٦) حول كل هذه التعبيرات: «أسباب»، ١٨.

(٧) «المرأة الجديدة»، ٢٢٠.

(٨) «المصريون»، ٢٨٢.

(٩) «المرأة الجديدة»، ١٧٨٤.

(١٠) نفسه، ١٧١.

(١١) مثلا، «تحرير المرأة»، ٤٣، ١٦٠، «المرأة الجديدة»، ٦.

(١٢) «المرأة الجديدة»، ٢٠٨.

(١٣) نفسه، ٣.

(١٤) «تحرير المرأة»، ٣٧.

(١٥) نفسه، ٥٢.

(١٦) نفسه، ٥١.

(١٧) «المرأة الجديدة»، ١٥٥.

(١٨) نفسه، ١٦٠، وراجع ١٤٥.

(١٩) «تحرير المرأة»، ٤٤.

(١٩ مكرر) نفسه، ٤٥.

(٢٠) «المرأة الجديدة»، ١٦١.

(٢١) نفسه، ٣.

(٢٢) «تحرير المرأة»، ١٠٤.

(٢٣) نفس الصفحة.

(٢٤) نفسه.

(٢٥) «المرأة الجديدة»، ١٧٤.

(٢٦) نفسه، ٨٧.

(٢٧) قارن : «النظرية التى احتلت عقله»، نفسه، ٩٠.

(٢٨) نفسه، ٨٧ – ٨٨.

(٢٩) نفسه، ٣.

(٣٠) نفسه، ٨.

(٣١) نفسه، ٦٩ – ٧٠.

(٣٢) «المصريون»، ٢٨٢ وقارن ٢٩١.

(٣٣) «المرأة الجديدة»، ٦.

(٣٤) «المصريون»، ٢٠٤.

(٣٥) «أسباب»، ١٧ – ٢٠.

(٣٦) نفسه، ٢.

(٣٧) «تحرير المرأة»، ٣٠٥.

(٣٨) نفسه، ٣، ١٠٤.

(٣٩) «أسباب»، ٦٧.

(٤٠) «كلمات» ١٤.

(٤١) «تحرير المرأة»، ٤٥.

(٤٢) نفس الموضوع.

(٤٣) «المرأة الجديدة»، ١٩١.

(٤٤) نفسه، ١٦٠.

(٤٥) نفسه، ١٦١.

(٤٦) «تحرير المرأة»، ٣٦.

(٤٧) نفسه، ٣٧.

(٤٨) نفسه، ٢٨، وفيه يذكر «علماء الطبيعة».

(٤٩) «أسباب»، ١٨.

(٥٠) «تحرير المرأة»، ٧.

(٥١) «المرأة الجديدة»، ٥٠.

(٥٢) نفسه، ٨٩.

(٥٣) نفسه، ٦٥، ٧٨.

(٥٤) «تحرير المرأة»، ١٠٤.

(٥٥) «المرأة الجديدة»، ١٣٧.

(٥٦) «المصريون»، ١٧٥، وراجع «أسباب»، ١٨، حول رفض المصادقة.

(٥٧) راجع «تحرير المرأة»، ٩٧، ٩٩، ١٠٨، و«المرأة الجديدة»، ٧٦، و«أسباب»، ١٨.

(٥٨)

(٥٩) مثلا، «تحرير المرأة»، ٩٧ وما بعدها.

(٦٠) «تحرير المرأة»، ١٦٠، «المرأة الجديدة»، ٦٥، ٧٨، «أسباب»، ١٨.

(٦١) «تحرير المرأة»، ٥٤، ونفس الاستخدام في «المرأة الجديدة»، ١٤٥: «كل بناء يقام بعد ذلك على هذا الأساس هو بناء على الرمل، لا يلبث أن ينهار مهدوما».

(٦٢) «تحرير المرأة»، ٩٤، «المرأة الجديدة»، ٨٢.

(٦٣) «تحرير المرأة»، ٦.

(٦٤) مثلا، «المرأة الجديدة»، ٢٢٠.

(٦٥) نفسه، ١٩١.

(٦٦) «تحرير المرأة»، ٣.

(٦٧) نفسه، ٦٩ – ٧٠.

(٦٨) «المرأة الجديدة»، ٦٩.

(٦٩) نفسه، ٦٠. وفي هذه الصفحة نجد المصطلح المنطقي وافر الحضور: قضية، بديهية، مقدمة الدليل، فضلاً عن «أهل النظر»، وحول «النتيجة اللازمة»، راجع «أسباب»، ١٩.

(٧٠) «المرأة الجديدة»، ٢٠٤.

(٧١) أحيانا ما نجد مجرد تعبير « الارتباط التام » : « فهذا الارتباط التام بين الرجل وأمه هو الأمر المهم الذى أريد أن يفهمه الرجال » ، « تحرير المرأة »، ١٠٦.

(٧٢) «المرأة الجديدة»، ١٠٠.

(٧٣) «تحرير المرأة»، ١٠٨.

(٧٤) نفسه، ١٠٧.

(٧٥) نفسه، ١٠٧ – ١٠٨.

(٧٦) نفس المكان.

(٧٧) نفسه، ٧٠.

(٧٨) نفس المكان.

(٧٩) «المرأة الجديدة»، ٦٩.

(٨٠) «تحرير المرأة»، ٢٦.

(٨١) «تحرير المرأة»، ٢ – ٣.

(٨٢) نفسه، ٦.

(٨٣) قارن «تحرير المرأة»، ٥، «المرأة الجديدة»، ٦.

(٨٤) «تحرير المرأة»، ٧٠ – ٧١، وراجع ٩٢.

(٨٥) نفسه، ٩٩.

(٨٦) نفس المكان.

(٨٧) «المصريون»، ٢٤٢.

(٨٨) ولكن راجع «تحرير المرأة»، ٣، ٩٣.

(٨٩) انظر مثلا، «تحرير المرأة»، ص ١٤ – ١٥، ٢٢، و«المرأة الجديدة» ص ٩٢ – ٩٣، وغير ذلك من المواضع.

(٩٠) انظر مثلا، «المصريون»، ص ١٢٤ – ١٢٦، «تحرير المرأة»، ص ٦٩ – ٧١، «المرأة الجديدة»، ص ٥٦ وغير ذلك.

(٩١) «تحرير المرأة»، ١٠٧.

(٩٢) «المصريون»، ٥ – ٧.

(٩٣) «تحرير المرأة»، ٧٠.

(٩٤) «المرأة الجديدة»، ٨٧ – ٨٩.

(٩٥) راجع النص الهام الذى يحتوى على وصف هذا النموذج، «المرأة الجديدة»، ص ٨٧ – ٨٨.

(٩٦) «تحرير المرأة»، ١٤ – ١٥.

(٩٧) نفسه، ٢٢.

(٩٨) «المرأة الجديدة»، ٩١ – ٩٢.

(٩٩) نفسه، ١٩٠.

(١٠٠) «المصريون»، ٦.

(١٠١) حول تناقضات الدوق، انظر مثلا، ص ٥، ١٨، ٢٢، ٢٣، ٢٦، ٧٣، ٩٩ – ١٠٠، ١٢٠، ١٢٢، ٢٢١، ٢٩٢، وغيرها.

(١٠٢) انظر مثلا، ص ١٠٦ – ١٠٧.

(١٠٣) «المرأة الجديدة»، ٥٧ – ٥٨.

(١٠٤) نفسه، ١٩٠.

(١٠٥) «تحرير المرأة»، ٧٠.

(١٠٦) نفسه، ١٠٧.

(١٠٧) نفسه، ٤٣.

(١٠٨) نفسه، ١٥٦ – ١٥٧، ١٣٤.

(١٠٩) نفسه، ٧.

(١١٠) «المرأة الجديدة»، ٨٢.

(١١١) نفسه، ٢٠٣.

(١١٢) «المصريون» ٦٩٥.

(١١٣) «تحرير المرأة»، ٧ – ٨.

(١١٤) نفسه، ١٣٣.

(١١٥) نفسه، ١٥٧.

(١١٦) «المرأة الجديدة»، ٦٠.

(١١٧) نفسه، ٣٧ – ٣٨.

(١١٨) «تحرير المرأة»، ٢.

(١١٩) «المصريون»، ١١٥.

(١٢٠) «المرأة الجديدة»، ٨٨ – ٨٩.

(١٢١) «المصريون»، ٢٢١.

(١٢٢) نفس المكان.

(١٢٣) «المرأة الجديدة»، ١٩١.

(١٢٤) نفسه، ١٩٠.

الفصل الثالث

قاسم أمين عالما اجتماعياً

أولا : صفة العالم الاجتماعى :

إن كان هناك فى مصر، فى عصر قاسم أمين، عالم اجتماعى، فإنه هو نفسه على التأكيد. ومن السذاجة أن يفكر البعض فى رفض اسباغ صفة «العالم» عليه، لأنه ليس على هيئة العلماء الاجتماعيين اليوم، إذا أخذنا الأمر من زاوية المظاهر الخارجية وأدوات العمل. ولابد من الإشارة إلى أن كلمة «عالم» تطلق بأوجه مختلفة على أشخاص مختلفين فى نشاطاتهم وفى مناهجهم، وإلى أن هناك، لايزال، من لا يرى فى المتعرضين لدراسة الشئون الاجتماعية، بل والإنسانية عامة، «علماء» على طريقة وسمات علماء العلوم الطبيعية. إنما المهم هو تحديد مضمون الصفة على نحو وأضح محدد بما يجعل تسمية قاسم أمين بالعالم الاجتماعى أمرا مقبولا. إن «العالم» لابد له أولا من معارف كثيرة، بل وشاملة فى

ميدانه المخصوص، ومن إحاطة بالعلوم المتصلة بذلك الميدان إحاطة جيدة، ومن استخدام لمناهج منضبطة فى عمله، بحسب طبيعة الميدان، ومن إنتاج يخرج به على الناس يدرس فيه بعض جوانب هذا الميدان، بحيث تتوافر فى هذه الدراسات شروط العرض السليم (تحديد المشكلة، بيان السوابق، الإشارة إلى الجوانب المتعددة، التزام نقطة بدء مناسبة... الخ)، وشروطٌ لقبول النتائج المعتمدة على مقدماتها أيا ما كانت، مع مراعاة إمكان الاختلاف حول هذه المستنتجات بحسب طبيعة الميدان (وهو الحال مع الإنسانيات عامة). إذا أخذنا بهذا المضمون، فإن قاسم أمين عالم اجتماعى من غير أدنى شك، على ضوء ما رأينا بالفعل فى المبحث السابق، وعلى ضوء ما سنرى.

ثانيا : توجهه إلى ذلك :

ربما تضافرت عوامل ثلاثة مجتمعة على انطلاق قاسم أمين على خط الدراسة العلمية لشئون المجتمع. هذه العوامل هى : طبعه وعمله القضائى وحادثة ظهور كتاب الدوق داركور «مصر والمصريون» (باريس، ١٨٩٣م). أما طبعه، فيهمنا منه هنا مزاجه التأملى الذى يميل به إلى فحص الأمور مع التروى فى الأحكام،

وأما عمله القضائي، ويدخل فيه دراسته القانونية، في «مدرسة الحقوق» في القاهرة ثم في فرنسا، وكذلك عمله في النيابة العامة، فإنه يحمل بالطبيعة على حسب الاستقصاء، ورد الأمور إلى أصول، والتدقيق، وتمييز العرضي من الجوهري، والظاهري من الحقيقي، ومراعاة سلامة الاستنتاجات، والتعبير الدقيق الموجز في نهاية الأمر، مع الاهتمام بالتسبيب. ولكن العامل الثالث قام بدور الظرف المفجر لإمكانات قائمة ووضعها موضع النشاط الفعلي، حيث اقتضى الرد على الدوق الفرنسي المتعصب، ليس فقط فحص أقواله، بل وكذلك مقابلتها على الوقائع، ومن هنادراسة هذه الوقائع ذاتها، وهي لا تشمل أقل من مجموع مظاهر الحياة في مصر، بل وكذلك طبيعة الديانة الإسلامية[1]. وحيث أن قاسم أمين اختار أسلوب المقارنة مع الغرب، فإنه قام كذلك بوضع مدنية الغرب وديانته موضع الدرس والفحص والتنقيب[2]. ونحن نعتبر أن الشهور التي قضاها قاسم أمين في الإعداد للرد على كتاب المؤلف الفرنسي هي الفترة التكوينية لظهور صفاته كباحث وصاحب رأي على السواء[3]، بل إننا نرى أن هذا الجهد العظيم هو المدخل المباشر لسائر كتابات قاسم أمين المنشورة التالية، سواء منها مقالات جريدة «المؤيد» أو كتاباه الكبيران، حتى وإن كان في هذين

الأخيرين يختلف أحيانا عن مواقفه في «المصريون»، ذلك أن المادة التى تجمعت بين يدى قاسم أمين عام ١٨٩٤م، وخاصة منها الأسئلة والمشكلات، ظلت تفعل فعلها فى عقله من بعد نشر رده، ومن هنا كانت مقالاته في جريدة «المؤيد»، والتى ستجمع فى مجموعتى «أسباب ونتائج» و«أخلاق ومواعظ»، ثم يأخذ قاسم أمين فى تعديل أفكاره، بل والتراجع الفعلى عن بعض ما قاله فى «المصريين» بشأن المرأة(٤)، ويقوده الفكر العلمى الأمين النزيه إلى إعلان نتائجه الجديدة فى «تحرير المرأة» وفى «المرأة الجديدة»، عامى ١٨٩٩ و ١٩٠٠ م على التوالى.

ولا يترك لنا قاسم أمين المجال مفتوحا على مصراعيه من أجل الجدال حول كونه عالما اجتماعيا أم لا، بل هو يحسم الأمر بنفسه، ويعلن عن هذه الصفة بكلماته، حتى وإن لم تحتو على تلك الألفاظ ذاتها. إن المقالة الأولى من «أسباب ونتائج» تحمل البرنامج العلمى لقاسم أمين، فى أساسياته وعمومياته(٥)، وفيها يقابل بين المؤرخ الذى يهتم بالماضى، وقد صار التاريخ «من أهم العلوم التى موضوعها الإنسان الاجتماعى»، وبين «الكتاب المشتغلين بالأحوال العمومية فى الحال»(٦)، ومن الواضح أنه منهم، ومن الواضح كذلك أنه يقصد بهم، أو يضع بينهم على الأقل، ما نسميه اليوم بالعلماء

الاجتماعيين، وذلك أنه يردف على الفور تلك التسمية ببيان مضمون نشاطهم، الذى هو:

أ - درس الحال درسا تاما.

ب - دراسة كيفية ارتباط الحاضر بالماضى[٧]، من حيث الأخلاق والعوائد والمعتقدات والسياسات.

جـ - محاولة الوصول إلى تصور للحاضر واضح ودقيق، «بكيفية لا تقبل الشك»، أى على اليقين، وهو ما يعنى البحث عن العلل كما يقول نصا.

د - وأساس هذا كله أن «الجسم الاجتماعى» خاضع لقانون السببية العام[٨].

أخيرا يقول قاسم أمين : «شرعت فى هذا العمل باحثا عن حالتنا الحاضرة»[٩]، وذلك بحسب الشروط السالف ذكرها بطبيعة الحال، أى أن بحثه بحث علمى بهذا المعنى.

وفى «المرأة الجديدة» (نشر ١٩٠٠) نجد تعبيرا مماثلا ويريد قاسم أمين أن يشير به إلى نفسه: «كل ناظر فى أحوال هيئتنا الاجتماعية الحاضرة»[١٠]، بعد أن كان قد أشار إلى «حالتنا الحاضرة» وإلى مطلب البحث عن الحقيقة، التى لابد أن تنجلى للكل عاجلا أم آجلا، وهو هدف البحث العلمى. وقد سبق له أن صرح:

«نحن طلاب حقيقة، إذا عثرنا عليها جاهرنا بها، مهما تألم القراء من سماعها»[١١]، وأكد أن أحد أهدافه الوصول إلى «الأصول العلمية» التي ينبغى أن توضع عليها «الحالة الاجتماعية»[١٢]. أما فى «تحرير المرأة»، فإنه يدخل هذا العمل ضمن إطار «نشر كل فكرة علمية أو أدبية» (يقصد بأدبية «أخلاقية») تصل فى ذهن الباحث إلى غاية نموها الطبيعى»، أى بعد اكتمال البحث على شتى أوجهه[١٣]، ويكرر الإشارة إلى «عناء البحث والإجراء» من أجل «الفهم»، الذى موضوعه القوانين التى تحكم المجتمع[١٤]. أخيرا، فإنه لا حاجة بنا إلى تبرير استخدام الصفة «اجتماعى»، وهى الشق الثانى من تعبير «العالم الاجتماعى»، لأنها كثيرة الورود فى كتابات قاسم أمين، وقد مرت بنا للتو ومن قبل، ويكفى أنه يخصص أن جانبى دراسته للحجاب «للجهة الاجتماعية»[١٥].

ثالثا: علمية دراسة المجتمع:

أ- الواحدية والنظام:

ربما كانت نقطة انطلاق قاسم أمين فى هذا المجال هى أخذه «بالواحدية»: واحدية الحضارة وواحدية الإنسان وواحدية المجتمع وواحدية العلم، ومن وراء هذا كله واحدية الإنسان والمادة، نوعاً ما

من الواحدية، في إطار الكون[١٦]. ونقصد «بالواحدية» هنا اعتبار أن كل جانب من هذه الجوانب المعدودة يخضع لنفس القوانين أو أن له نفس البنية. وتجتمع الإشارة إلى معظم هذه «الواحديات» في نص مركز من «المصريون»، نص يدل بمحض وجوده على اتساق نظرات قاسم أمين وإدراكه الشمولي لها رغم تعددها: «إن تاريخ تأسيس الدول في العالم موضوع تأملت عليه العقول باستمرار، ويثبت هذا التاريخ بحق أن الجنس البشرى واحد في كل مكان، بأخطائه ومكامن ضعفه وألوان بؤسه، وكذلك أيضا بفخره بذاته وبعظمته. إن القانون الأبدى الذى يشرف على تحولات المادة يشرف هو نفسه أيضا على تحولات البشر والأنظمة. ولا تستطيع أية قوة كانت أن تقاوم هذا القانون المحتوم الذى يوجه تطور الإنسانية. هذا القانون يظهر في كل مكان على نفس الشكل، ويتبع في حركته نفس العمليات»[١٧]، وسوف تقابلنا، من بعد، إشارات أخرى عديدة إلى سائر هذه الجوانب، ولكننا نضيف على التخصيص ما يدل على واحدية العلم عند قاسم أمين، وهو نص أثبتناه من قبل، ونجتزئ منه قوله الحاسم: «العلم في الحقيقة واحد، يشبه شجرة ذات فروع وأفنان تتصل كلها بأصل واحد»[١٨]. والنتيجة الواضحة التى ينبغى استخراجها من كل ما سبق أن العلم الذى يدرس الطبيعة هو نفسه

الذى يدرس الإنسان ونظمه، فيكون لدينا هكذا إثبات أول لعملية دراسة المجتمع، أى لإمكان النظر فى شئون المجتمع بحسب النظرة العلمية. وربما نجد أساسا ثانيا لهذا الإمكان فى استخدام قاسم أمين لمفهوم «النظام» مطبقا على المجتمع، مع ملاحظة كثرة ورود هذا الاستخدام وتعدد ظهور اصطلاح «النظام». ومن ذلك حديثه عن «النظام الاجتماعى» بعد كلام عن «نظام البيوت» (أى ترتيب العلاقات العائلية)[١٩]، وكان قد تحدث فى «أسباب ونتائج» عن «نظام الاجتماع»[٢٠]، ويتحدث فى «المرأة الجديدة» عن «نظام معيشتنا»[٢١]، بل هو يتحدث عن ظاهرة جزئية تخص النساء اللائى يعشن فى الوحدة والانفراد، فيستخدم فى هذا الصدد اصطلاح «نظام الوجود»[٢٢]. ورجل القانون يدرك أنه حيثما يكون «نظام» يكون «علم»، أى معرفة مرتبة قابلة للانضباط.

هذان هما الأساسان العامان، فى نظرنا، اللذان تقوم عليهما نظرة قاسم أمين العلمية إلى المجتمع. ونفصل بعض الشىء، فى القسم الذى يلى هذا مباشرة، فى بيان موقفه المبدئى بشأن كون الإنسان، والمجتمع بالتالى، موضوعا للعلم، الذى نموذجه دائما فى ذهن قاسم أمين العلم الطبيعى على ما تطور فى الحضارة الغربية حتى عصره.

ب - الإنسان الاجتماعى موضوعا للعلم :

اصطلاح «الإنسان الاجتماعى» برنامج بحد ذاته، ولعل قاسم أمين هو أول من استخدمه فى اللغة العربية الحديثة، حيث يقول فى مقالته الافتتاحية لمجموعة «أسباب ونتائج» (١٨٩٥م): «صار التاريخ من أهم العلوم التى موضوعها الإنسانى الاجتماعى»[٢٣]، ثم يقرن بالتاريخ، الذى يدرس ذلك «الإنسان الاجتماعى» فى الماضى، دراسة «الأحوال العمومية فى الحال»، وهو ما يقابل دراسة المجتمع بالمعنى الواسع[٢٤].

لقد رأينا، فى فقرة سابقة، أن قاسم أمين يعتبر أن القوانين المسيطرة على مسرى المادة[٢٥] هى ذاتها القوانين التى توجه تحولات الجماعات البشرية. وربما لا نجد قاسم أمين صريحا على نفس هذا القدر من الصراحة التي استخدمها فى كتاب «المصريون»، وهو الذى كتبه بالفرنسية فلم يتيسر الإطلاع عليه إلا لعدد محدود من المصريين، وغالبا ما سيكونون من الصفوة الموافقة لتوجهات قاسم أمين، مادامت تقرأ بالفرنسية بالدرجة التى يكتب هو بها فى هذه اللغة، نقول ربما لا نجده على مثل هذه الصراحة فى الحديث عن «المادة» وعن وضع الإنسان على نفس الميزان فى كتاباته العربية. ومع ذلك فإنه من السهل أن نجد فى هذه الكتابات

ما يترجم هذا المعنى على نحو مقبول للكافة، بغير أن يصير ممكنا للبعض مهاجمة قاسم أمين من هذه الناحية، كما سيهاجم خلفهم طه حسين حين سيتحدث عن «الطبيعة» من بعد جيل من وقت قاسم أمين. فمن التعبيرات الطريفة التى تترجم معنى كون المجتمع كالمادة من حيث كونهما معا موضوعين للعلم، تعبير «الجسم الاجتماعى»، حيث تأخذ كلمة «جسم» هنا مكان كلمة «المادة»، حيث يقول فى نفس المقال المشار إليه: «من الخطأ الجسيم أن نعتقد أن الجسم الاجتماعى ليس خاضعا لذلك القانون العام (قانون العلية) كغيره»[٢٦] (لاحظ كلمة «كغيره»، وهو ما يشير إلى بقية أعضاء المملكة الحيوانية والنبات وكافة الظواهر الطبيعية أو المادية إن شئت)، كما نلاحظ أنه يستخدم فى نفس الإطار اصطلاح «الحادثة الاجتماعية». ولا يأتى كتاب «المرأة الجديدة»، وهو الكتاب الثورى حقا بين كتابات قاسم أمين، إلا وهو يستخدم صراحة تعبير «المادة الإنسانية»، وذلك فى اطار هجومه على صاحب «النظرية الخيالية»: «فهو لا ينظر إلى الأشخاص الحقيقيين... ولا يخطر بباله أن للمادة الإنسانية صورة غير الشكل الخيالى الذى ملك عقله، لذلك لا يهتم بأن يرى تلك المادة فى صورة امرأة راعية أو زارعة أو صانعة أو تاجرة، ولا أن يبحث إن كانت غنية أو فقيرة، عائشة وحدها أو فى

عائلة، ساكنة فى المدن أو القرى أو البادية»[٢٧]. وكان قاسم أمين قد استخدم من قبل فى «تحرير المرأة» تعبير «جسم الأمة»، حين يتحدث عن أهمية الالتفات إلى «وجود النظام فى العائلات التى يتكون منها جسم الأمة، لأن العائلة هى أساس الأمة»[٢٨].

ويؤكد هذا التوجه، أى النظر إلى الاجتماع الإنسانى باعتباره كيانا موضوعيا مقابلا للمادة، وبما يسمح بتسميته «بالجسم»، وبإطلاق كلمة «المادة» على إمكانات تعدد أشكال الظواهر الاجتماعية، يؤكده تصريح صريح من قاسم أمين بأن : «أحوال الإنسان مهما اختلفت، وسواء أكانت مادية أو أدبية[٢٩]، خاضعة لسلطة العلم»[٣٠]. ومن المفهوم، كما أشرنا من قبل، أن قاسم أمين يضع نصب عينيه نموذج العلم الطبيعى الأوربى، أو ما يسميه فى نفس الإطار «العلوم العصرية الحديثة»[٣١]، وهو يوازى فى موضع آخر ما بين «علوم الهيئة الاجتماعية» و «العلوم الطبيعية»[٣٢].

الإنسان إذن، عامة، والمجتمع الإنسانى، أو الإنسان الاجتماعى، خاصة، موضوع للعلم وقابل للدراسة العلمية مع ما يستتبعه ذلك من نتائج شتى. وسنوجه النظر الآن إلى بعض الجوانب المخصوصة التي تجسد علمية دراسة المجتمع عند قاسم أمين.

جـ - التغير الاجتماعي :

إذا كانت هناك فكرة كبرى حاول قاسم أمين إبرازها وتبريرها في مجال دراسة المجتمع والحياة الإنسانية بعامة، فإنها من غير شك فكرة «التغير»، وما يرتبط بها من كون التغير مركبا فوق كونه متعدد المناحي مترابطها. يقول في الصفحة الثانية من «تحرير المرأة»: «كل تغيير يحدث في أمة من الأمم ... مركب من ضروب من التغيير كثيرة»[٣٣]. والتغير هو القاعدة العامة التي يخضع لها الكون كله في كل آن[٣٤]، فالتغير إذن ظاهرة دائمة متصلة لاتنقطع، وهو شرط الحياة والتقدم[٣٥]. و«العوائد والآداب تتغير دائما تغيرا غير محسوس تحت سلطان الإقليم والوراثة والمخالطات والاختراعات العلمية والمذاهب الأدبية والعقائد الدينية والنظامات السياسية وغير ذلك»[٣٦]. ومن المفهوم أن قاسم أمين يقرر قانون التغير الدائم الشامل قانوناً كونياً واجتماعياً وإنسانياً، كمقدمة لتأسيس ضرورة الإصلاح الشامل، الذي سيقضي بتبديل حال اجتماعية بحال أخرى، نموذجها، أي نموذج الحال الجديدة، هو وضع المجتمعات «المتمدنة» في الغرب، مع ما يتطلبه هذا من نبذ الحال الماضية، أي وضع المدنية الإسلامية التقليدية، فالهدف هو «إنشاء حال خاصة بنا، تليق بزماننا»، وترك «التمسك بالماضي» الذي لا ترجى منه فائدة[٣٧].

د - حركة المجتمع تخضع لقوانين :

فى «التمهيد» لكتاب «تحرير المرأة» يقول قاسم أمين : «أحكام النواميس الطبيعية... يخضع لسلطانها النوع الإنسانى وسائر المخلوقات الحية»[٣٨]. هذا هو الموقف الأساسى الذى يربط أحوال الإنسان عامة والقوانين الطبيعية التى تحكم الكون كله. من هذه القوانين العامة قانون العلِّية، ومنطوقه عند قاسم أمين أنه «ليس فى الكون شىء وجد بلاموجدٍ وسببٍ واضحٍ أو خفىٍ، معروفٍ الآن أو يكشفه المستقبل»[٣٩]، و «الجسم الاجتماعى... خاضع لذلك القانون العام كغيره»[٤٠]، كما رأينا منذ قليل. ويبدو أن قاسم أمين يضع فى صدر برنامج الدراسة العلمية للمجتمع محاولة الفهم العلِّى لظهور الظواهر الاجتماعية بسبب مشروعه الاصلاحى الذى أشرنا إليه، وهو يقول فى هذا الصدد: «الحالة الاجتماعية متى عرف كيف وجدت يعرف كيف تزول»[٤١]، مع هذا القانون العام، هناك قوانين تتصل بميادين معينة تدرسها علوم مخصوصة، من مثل «العلوم الطبيعية والاجتماعية والتاريخية (التى تحدد)... القوانين الصحيحة التى ترجع إليها حركات الكائنات وأحوال الإنسان»، كما أن هناك «قانون الصحة ووظائف الأعضاء»[٤٢]. من جهة أخرى فإن قاسم أمين منتبه إلى أهمية الوصول إلى القوانين الاجتماعية من جهة

مختلفة، لعله أول من نبه اليها فى عالم الكتابة باللغة العربية الحديثة: تلك هى جهة إمكان التنبؤ بما سيحدث فى المستقبل للكيان الاجتماعى. يقول: «الحوادث الاجتماعية خاضعة لقوانين طبيعية يسهل معها العلم بما سيكون من أمرها فى المستقبل»(٤٣).

فى التقريرات السابقة يظهر ما هو أهم من مجرد إثبات وجود قوانين اجتماعية، ألا وهو أن هذه القوانين فرع من القوانين الطبيعية التى تحكم الكون كله، أو قل، على الأقل، إنه يظهر فيها إثبات ترابط قوى ما بين قوانين حركة شتى الكائنات وقوانين أحوال الإنسان. ولكن قاسم أمين يشير كذلك إلى ما يمكن تسميته «نوعية» القوانين الاجتماعية، حيث يشير إليها فى مواطن أخرى على وجه التخصيص. يقول مثلاً عن وجود قوانين خاصة تخص الأفراد (وربما فى هذا إشارة إلى ما سيسمى علم النفس) وأخرى تتصل بالاجتماع: «إن لسير الإنسانية قوانين خاصة يجب مراعاة أحكامها فى نمو الأفراد أو فى الاجتماع، وإن كان مخالفة لهذه القوانين لها أثر سئ وضرر عظيم يلحق الفرد والهيئة الاجتماعية»(٤٤).

وسوف نعود إلى النظر فى بعض القوانين الاجتماعية المعينة التى تشير إليها صفحات قاسم أمين.

رابعا : مفاهيم أساسية فى المصطلح الاجتماعي :

ستثبت الدراسة الأسلوبية، ولا نعلم أن أحداً قد قام بها إلى اليوم أو أنها نشرت، أن قاسم أمين هو الأصل المباشر لطريقة الكتابة العلمية، والفكرية بوجه أعم (ولا نتحدث عن الكتابة الأدبية)، فى اللغة العربية فى الأعوام المائة الأخيرة، فى مصر أولا، ومنها إلى سائر بلاد لغة الضاد. ورغم استقرار الأسلوب الجديد فى كتابات قاسم أمين، إلا أن المصطلح عنده سيظل على حالة التجريب، التى ستستمر أيضا عند أحمد لطفى السيد، مع مزيد من الاستقرار النسبى، حتى نصل إلى عصر ما بعد ١٩١٩م. ويهمنا فى هذا المقام المصطلح الاجتماعى، وإذا كنا نتحدث فى هذا القسم مستخدمين كلمة «المجتمع» بشكل مطرد، إلا أن الواقع، فى كتابات قاسم أمين، أن هذا المصطلح لا يأتى إلا فى المرتبة الثالثة، من حيث عدد مرات الورود، بعد اصطلاحى «الهيئة الاجتماعية» و«الاجتماع» على الترتيب. وإذا كان الاستعمال الحديث والحالى قد استقر على كلمة «المجتمع» للدلالة على الكيان الجمعى المنظم، وأبقى كلمة «اجتماع» فى تعبير «علم الاجتماع» وحسب، وإن أخذ منها الصفة «اجتماعى» وجعلها الصفة المعتمدة مسقطا استخدام الصفة «مجتمعى»، فإنه من الجهة الأخرى أسقط تماما

تعبير «الهيئة الاجتماعية».

والمصطلح الاجتماعى غنى فى كتابات قاسم أمين، وهو يستخدم للدلالة على «المجتمع»، وإلى جوار هذا اللفظ نفسه، كلمات: الهيئة الاجتماعية، الاجتماع، الجمعية، الجامعة، ويستخدم أيضا، نادراً، «هيئة المجتمع» و«مجموع الأمة» و«الوجود الاجتماعى» كذلك[٤٥]. ونظن أنه يستخدم أيضا مصطلحى «الأمة» و«الوطن»، أحيانا، فى معنى قريب من معانى هذه المصطلحات الأخرى . ونذكر ، كمثال على تعدد مصطلحه للدلالة على «المجتمع»، أنك إذا نظرت فى صفحتين متتاليتين من صفحات «تحرير المرأة» (ص ١٩ - ٢٠)، لوجدت على ترتيب الورود ومع تكرار الاستخدام: الأمة «نظام الأمة»، الهيئة الاجتماعية، الأمة «نصف عدد الأمة»، مجتمع («مجتمع الاحياء»، وهو استخدام أقل فى اصطلاحيته من الاستخدامات الأخرى)، وطن، مجتمع («كل مجتمع إنسانى»).

ما علة الاجتماع؟ وما أصل المجتمع؟[٤٧] لايتناول قاسم أمين هذه المسائل وما يتصل بها تناولاً مباشراً، وانما هو ينطلق من واقعة قيام المجتمع، ويعتبر أن الاجتماع «غاية أصلية»[٤٨]، و«حب الاجتماع» كأنه غريزة، فهو مشاهد «فى كل شىء وفى كل إنسان»[٤٩]. ولا يشك قاسم أمين فى منفعة الفرد المؤكدة فى

وجوده فى جماعة، ومن فوائد ذلك «حفظ نفسه» وتمتعه بأعمال كل أعضائها[٥٠]. وقد كان قاسم أمين على دراية بنظرية العقد الاجتماعى[٥١]، ولكننا لم نجد فى كتاباته ما يقابل مباشرة الإجابات المختلفة التى قدمها فلاسفتها الأوربيون بشأن سؤال أصل المجتمع.

ولكن قاسم أمين كثيرا ما يتعرض لمشكلة العلاقة بين الفرد والمجتمع[٥٢]، وهى مشكلة تناولتها نظريات العقد الاجتماعى، وسنعود فى فصل تال إلى ما يخص الجانب السياسى من هذه المشكلة، ونقف هنا عند ما يخص المسألة الاجتماعية وحسب. يرى قاسم أمين، فى الأساس، أن هناك حلقات ثلاثا فى المجتمعات الحديثة: الفرد والعائلة والمجتمع، وهى الرؤية ألت« يراها للمجتمع المصرى، أما حلقة «القبيلة»، فهى تذكر عنده فى مجال الحديث عن التكوين التاريخى القديم للجماعات الإنسانية[٥٣]. وهو لا يضع إلى جوار تلك الحلقات الثلاث الجوهرية شيئا آخر، من قبيل الطبقات[٥٤] أو الجماعات الفئوية، اللهم إلا الحكومة[٥٥] وعنصر التنظيمات، وهو ليس عنصراً بشرياً بطبيعة الحال، لا هو ولا عنصر «الشعور بالروابط الوطنية»[٥٦]. إن العائلة[٥٧] فى نظر قاسم أمين هى «أساس كل جامعة»[٥٨]، أى كل مجتمع، ولكن لا

شك أن كل شيء يختزل في النهاية إلى وجود الأفراد، فقبل الاجتماع كان هناك «الإنسان في حالته الفطرية الأولى»[٥٩]، فكأن قاسم أمين يعتبر حالة الوجود الفردي المطلق واقعة حقيقية سابقة على الاجتماع. وعلى كل حال، فإن قاسم أمين يرى، كما يتضح من ثنايا كثير من مواقفه، أن الفرد هو المكون الحقيقي للمجتمع، وأن المجتمع هو المكون من أفراد، وبدونهم هو لا يقوم، وبالتالي فإن للأفراد سبقا زمنيا ومنطقيا عليه، بل هو يرى أن المجتمع ما هو إلا «مجموع» أفراده، ولهذا فإن كل تغيير ينبغي أن يبدأ من الأفراد، «ليسري من الأفراد إلى مجموع الأمة»[٦٠]، وليس العكس. وما هذا إلا أخذ بالمواقف الأساسية للنظرية الاجتماعية اللبرالية. ومع ذلك، ورغم كون الآراء السابقة هي السائدة في ذهن قاسم أمين، إلا أنه يدهشنا، كما يفعل من وقت لآخر، حين ينتبه إلى الفكرة المضادة، فيقرر: «الاجتماع هو القوة الحقيقية التي بدونها لا ينجح شيء»[٦١]. أم هو ينظر هنا إلى الفاعلية، وليس إلى أولويات التكوين؟ من جهة أخرى، فإنه يدهشنا أيضا حين يأخذ أحيانا بما يبدو وكأنه النظرة العضوية إلى مكونات المجتمع، فلا يعود الفرد في المجتمع كقطعة الطوب في بنيان ما يظن أنه مجرد مجموع هذه القطع، بل يصبح النموذج هو الكائن الحي، حيث «تكون جميع

أعضاء المجتمع... حية عاملة قائمة بوظائفها»[٦٢].

وإذا نظرنا، الآن، إلى علاقة الفرد بالمجتمع من زاوية التعارض، وجدنا أن قاسم أمين يأخذ الموقف الليبرالى المتسق، ويقول برفض تدخل الحكومة فى شئون الأفراد[٦٣]، ولكنه لا يقول صراحة برفض تدخل «المجتمع»، ربما لأنه هو نفسه يؤكد دور التربية ودور العائلة بعامة فى تكوين الأفراد، فالمفهوم إذن من ثنايا مواقفه أن من الطبيعى أن يتدخل المجتمع فى توجيه الفرد، وخاصة فى المراحل التكوينية الأولى من عمره، وربما حتى بلوغه سن الثلاثين[٦٤].

ومن الجهة المقابلة، نجده يؤكد على حقوق الهيئة الاجتماعية على الأفراد، ويرفض فى الوقت نفسه كل ما قد يعد إساءة من جانب الأفراد إلى كيان المجتمع[٦٥]. ويمكن أن تقول إن قاسم أمين لا يأخذ بموقف الفردية المطلقة، وإنما إطاره العام هو مفهوم المنفعة العامة[٦٦]. وهو يشير إلى الترابطات التى تربط ما بين الفرد والعائلة والمجتمع، حيث يتحدث عن «الارتباط الاجتماعى» و«الارتباط العائلى»[٦٧]، بحيث يصبح النموذج كالتالى: «صارت الحقوق والواجبات متشعبة موزعة على كيفية التضامن العام بين المجتمع، بحيث صار الواحد منا اليوم مرتبطا بأهل بلده ارتباطا شديدا لا يمكن أن أشبهه بأحسن مما يعبر عنه المتشرعون فى

اصطلاحهم بارتباط التعهدات المتضامنة»[٦٨]. ويظهر رفض قاسم أمين للفردية المطلقة فى هجومه على «حب النفس» باعتباره من «عيوب تربيتنا»[٦٩]، بحيث يتوجب على تربية الأطفال أن تسعى إلى أن يصير «حب الاجتماع فطرة فيهم، فلا يكون حب النفس من العيوب المفضية إلى انحلال أجزائنا والإضرار بجامعتنا كما هو الآن»[٧٠]. بل أنه يعتبر أن قوة التضامن الاجتماعى، في مقابل قوة سلطان حب النفس، معيار الترقى، ويرى علامة هذا «التضامن» فى «نمو الإحساس بحاجة كل فرد من أفراد الأمة إلى الآخر»، «والترقى الأدبى إنما هو هذا التضامن بعينه»[٧١]. وقد جمع قاسم أمين أهم الروابط الاجتماعية، أو ما يسميه «جملة الأمور الجوهرية الأساسية» للأمة، فى هذا التعداد: «الدين والوطن والسلطة العمومية والعائلة والعلم والفضيلة، وكل عمل شريف أو جميل أو نافع»[٧٢].

ولكن قاسم أمين يهاجم أحيانا «الرأى العام»، وهو الحالة التى يكون عليها وعى المجتمع فى أكثريته، والتى تمثل قوة ضغط واضحة على الأفراد. يقول فى شأن الحكم على المرأة بنقصان العقل وبأن طبيعتها أحط من طبيعة الرجل: «إذا سألنا الرأى العام، فالجواب سهل معلوم. ولكن الرأى العام لا يصح أن يكون له

صوت فى مسألة علمية كهذه، لأن مبنى الرأى العام القضايا المشهورة، التى صاغتها العادة وقررتها الإلفة، بدون بحث ولا تنقيب، فهى مرجع العامة فى أحكامها، يردون إليها كل حادث طبيعى أو اجتماعى لا يعرفون أسبابه»(٧٣). ولا شك أن قاسم أمين يتخذ هذا الموقف وأمثاله(٧٤) بعد أن مر بتجربة الهجوم العاصف على كتابه «تحرير المرأة».

ونأتى الآن إلى عدد من المفاهيم التى يتكرر استخدامها فى نظرات قاسم أمين الاجتماعية، وذلك بالاضافة إلى تلك المفاهيم التى تعرضنا لتعريفها فى سياقات سابقة.

١ - الحال والحالة : يستخدم قاسم أمين هاتين الكلمتين استخداما تبادليا، وهما يردان كثيرا على قلمه فى صيغة المفرد، وكذا فى صيغة الجمع «أحوال». وهو أحيانا ما يستخدمهما معاً فى نفس السطر قاصدا نفس المعنى: «الحالة الاجتماعية متى عرف كيف وجدت يعرف كيف تزول، فهى لا تتغير أبدا إلا بحال آخر»(٧٥). وعندما يضيف قاسم أمين صفة ما فإن الأغلب أن يختار كلمة «الحالة»، فى مثل : «الحالة الاجتماعية»، «حالتنا الحاضرة»، «الحالة الاقتصادية»، ولكنه يقول أيضا: «الحال الاجتماعية»(٧٦).

ويظهر من مجمل مواضع الاستخدام أنه يقصد بهاتين الكلمتين

ما تكون عليه الأمور، أو هو نفس المعنى المقصود من الاستخدام الحالى لكلمتى «وضع» و «أوضاع». وعلى حين أن هاتين الكلمتين ليستا مصطلحين اجتماعيين، فإنه ظاهر أن قاسم أمين أراد للحالة وللحال أن يكونا كذلك، كما هو ظاهر فى النص المذكور، وهى نص فنى. والأغلب أن قاسم أمين يستخدمهما فى مقابل كلمة état الفرنسية[٧٧].

٢ – الحادث والحوادث : يستخدم قاسم أمين كلمة «الحادث» بالمعنى الذى توحى به إلى الذهن مباشرة، وفى معنى قريب من معنى «الظاهرة»[٧٨]، فى تعبيرات من مثل : «كل حادث طبيعى أو اجتماعى»، «الحوادث الاجتماعية»، «حوادث العائلات»[٧٩].

٣ – العادة والعادات والعوائد: مصطلح «العادة» هو أهم مصطلحات قاسم أمين الاجتماعية على الإطلاق، وربما كان حجر الأساس فى شتى تطورات الحجة التي يعرض لها فى «تحرير المرأة». وهو يقابل كلمة moeurs الفرنسية[٨٠]، على الأغلب، وهى الكلمة التى يستخدمها قاسم أمين فى كتابه «المصريون»[٨١]. ويقابل قاسم أمين ما بين العادة والطبيعة[٨٢]، بحيث أن العادة هى بالضرورة نتاج تاريخى[٨٣]، وأنه يمكن «خلعها»[٨٤] واستبدالها بغيرها. والعادة موضع للتقليد[٨٥]، وهي حين تستقر تظهر وكأنها

من ثوابت الطبيعة، غير قابلة للتبديل[٨٦]. وللعوائد أسبابها، كما أن لها آثارها فى الأحوال الاجتماعية[٨٧]. وقد تعرض قاسم أمين لتعريف «العادة» تعريفا مباشرا مقصودا، مما يدل على مركزيتها فى عرضه، وليس مرة واحدة بل مرتين وعلى صفحتين متتاليتين: «العادة عبارة عن اصطلاح أمة على سلوك طريق خاصة فى معيشتهم ومعاملاتهم حسبما يناسب الزمان والمكان». «العادات ... هى عبارة عن طريق سلوك الإنسان فى نفسه ومع عائلته ومواطنيه وأبناء جنسه»[٨٨]. ويتكرر إلحاق تعبير «وطرق المعاملة» بكلمتى «العادات» و«العوائد»[٨٩]. وأهم مثال للعادات يعرض له قاسم أمين هو عادة الحجاب[٩٠]. وتأتى خطورة العادة من أن سلطانها أنفذ من سلطان أى أمر آخر، بما فى ذلك التشريع[٩١].

٤ – المدنية والتمدن : يستخدم قاسم أمين هذين الاصطلاحين بمعنى واحد، وهو المقابل لكلمة civilisation الفرنسية[٩٢]. وهو يساوى ما بين المدنية والحضارة نصاً[٩٣]. والاصطلاحان معا قد يدلان عنده على مجموع أحوال الأمم المتقدمة بحسب عصورها، فهناك المدنية الإسلامية، أو التمدن الإسلامى[٩٤]، فى السابق، وهناك التمدن الغربى فى عصر قاسم أمين، ويسميه أيضا «التمدن الحديث»[٩٥]، و «المدنية الأوربية» وغير ذلك. وواضح أن استخدام

قاسم أمين للاصطلاحيين يحتوى على عنصر تقويمى واضح، ولذلك فإنهما يقابلان فى العادة حالتى التوحش والجهل[٩٦]، كما يتلازمان مع التقدم والرقى. ويشير قاسم أمين إلى بعض «ظواهر» التمدن، ومنها النظامات السياسية، والحالة العائلة، والآداب (الأخلاق)، فضلا عن العلوم[٩٧]، وربما يدخل فيها كذلك جميع مظاهر الحياة، بما يؤدى إلى أن فهمه يحتاج إلى المعرفة التامة بلغات الأمم وتاريخها وعاداتها وأخلاقها[٩٨]. بل يبدو أن قاسم أمين يقارب ما بين المدنية والحالة الاجتماعية، وهو ما يظهر فى قوله : «عند كلامنا على المدنية الإسلامية لم نقصد الحكم عليها من جهة الدين ، بل من جهة العلوم والفنون والصنائع والآداب والعادات، التى يكوِّن مجموعها الحالة الاجتماعية التى اختصت بها»[٩٩]. من جهة أخرى، فإن اصطلاح «التمدن» على الخصوص يحمل شحنة تقويمية أقوى بكثير من صاحبه، وهو ما يظهر من اقترانهما فى نفس النص، ولكن «التمدن» هو الذى يحمل المضمون الغائى للتقدم والترقى: «لما تقدم العالم فى المدنية... ومن ثم صارت غاية التمدن أن...»[١٠٠]. ولذلك فإن الصفة «متمدنة»، وليس «المتمدينة»، هى المستخدمة فى إطار التقويم: « إن كانت (الأمة) نشيطة متربية متمدنة كان لها الحظ فى الدنيا، وإن كانت كسولة جاهلة ذات أخلاق رديئة كان لها

الشقاء فيها»[١٠١].

خامسا: قوى المجتمع:

فى نفس الوقت الذى يدرك فيه قاسم أمين وجود تجمعات متجانسة لسبب أو لآخر، فى داخل المجتمع ككل، إلا أن موقفه الفردى الأساسى لم يسمح له بإدراك جانب الصراع بين هذه التجمعات، وإنما نظر إليها من حيث مجرد إثبات الاختلاف، وفى إطار التكامل الوظيفى من جهة، وإطار دعوة عامة إلى نوع ما من التساوى من حيث الصفة البشرية، يجد أنها تميز الدين الإسلامى، ذلك كله اللهم إلا فى نص واحد من كتاب «المصريون»، وهو يخص الغرب الأوربى على كل حال، يشير فيه إلى صراع الطبقات بالمعنى القوى.

أما عن وجود تقسيمات فى داخل المجتمع، فإن قاسم أمين، الملاحظ الخبير والمولع بالمقارنات، يشير إلى العديد منها، مع اختلاف فى معيار التقسيم:

- فهناك الرجال والنساء، والمعيار هو اختلاف «الصنف»: النساء «قسم من أفراد الأمة»[١٠٢]، وعلى الأمة «أن تنتفع بجميع أفرادها، نساء ورجالا»[١٠٣]، والنساء «نصف عدد الأمة»[١٠٤].

- وهناك المسلمون والأقباط، والمعيار اختلاف الدين(١٠٥).

- وحين يتساءل قاسم أمين فى مفتتح الفصل الذى خصصه عن «المجتمع المصرى» فى كتاب «المصريون»، عن «العناصر التى تكون المجتمع المصرى الحالى»(١٠٦)، فإن إجابته هى :

أ - «المصريون الحقيقيون من مسلمين وأقباط، وهم الذين يشكلون الغالبية العظمى من السكان»،

ب - الأتراك،

جـ - المشرقيون : السوريون والأرمن واليهود وماشابه،

د - الأوربيون. والمعيار هنا هو العرق.

ونلاحظ أن قاسم أمين إنما كان ينظر إلى عناصر «السكان» فى الواقع، وليس إلى عناصر «المجتمع المصرى»، بالمعنى الذى يتوقعه منه القارئ الحالى(١٠٧).

- وهناك أهل الريف وأهل المدن(١٠٨)، أو على الأدق، بحسب تعبير قاسم أمين، الفلاحون من جهة، وهم نصف أهل مصر، ثم هناك من الجهة الأخرى النصف الآخر الذى ينقسم إلى قسمين: الأول يشمل التجار والصناع، والثانى يحتوى على الموظفين وأرباب المعاشات، وهم الطبقة المتظاهرة بحالة اليسار نوعاً ما فى معيشتهم، ثم يضيف «أرباب الأطيان من الذوات والعمد والمشايخ

والأعيان»[١٠٩]. والمعيار هنا نوع الأعمال أو المهن أو مصدر الدخل.

– وقد يوزع قاسم أمين «أعضاء المجتمع»[١١٠]، أى أفراده، تقسيمات أخرى، مثلما «انقسم العالم الإنسانى فى كل أمر إلى فريقين، فريق المحافظين، وفريق المصلحين»[١١١]، ومثل توجيهه الحديث إلى «الناشئة الحديثة، التى هى مستودع أمانينا فى المستقبل»[١١٢]، وذلك فى مقابل غيرهم من فئات العمر الأخرى بطبيعة الحال، ومثل حديثه عن «الهيئة الحاكمة والمحكومة»[١١٣]، وغير ذلك.

هذه بعض التوزيعات الاجتماعية التى نجدها منثورة فى كتابات قاسم أمين ، ولكن يبدو أن إجابته المباشرة عن طبيعة توزيع «القوى» الاجتماعية تقوم فى أنها : الفرد ، والعائلة، والحكومة[١١٤]، بالإضافة إلى « القبيلة » ، التى تأتى فى الترتيب بعد العائلة ، فى حالة التكوينات الأولى للجماعات البشرية[١١٥]. ومن هؤلاء جميعا تتكون الهيئة الاجتماعية أو المجتمع أو الاجتماع أو الأمة، بحسب تعبيرات مختلفة، ولكنها متقاربة المعنى كثيرا[١١٦].

هل يمكن أن نستنتج مما سبق أن قاسم أمين لا ينتبه إلى التعارضات الممكنة، بل والصراعات، التى يمكن أن تنشأ بين تجمعات أو فئات فى المجتمع، وأنه اذن لا ينتبه إلى وجود «طبقات»

فى المجتمع؟ إن الاجابة عن هذا التساؤل ليست يسيرة، لأنه واجد فى مؤلفات قاسم أمين ما قد يشير إلى الإثبات وإلى النفى. أما ما يشير إلى الإجابة بالنفى عن ذلك التساؤل، وإلى أنه يدرك وجود طبقات فى المجتمع تتصارع فيما بينها، فهو هذا النص القوى الفريد من كتاب «المصريون»، وإن كان موضوعه المجتمعات الغربية وليس المجتمع المصرى: «إنى أرى فى كل أنحاء أوربا عقولا قلقة ونفوسا مضطربة، وأرى الصراعات بين الطبقات تغدو أكثر وأكثر حدة، والأغنياء يرتعشون والفقراء يزمجرون؛ وأرى كل أعراض كارثة هائلة مروعة تعلن عن نفسها، وهاهى عقول مخلصة كريمة، عقول العلماء والكتاب، تحلم بتسوية الأمر كله والوصول إلى مصالحة عامة»(١١٧).

ونرى فى هذا النص العجيب نفاذ رؤية قاسم أمين، الناتجة عن معرفة دقيقة ومن الداخل لأمور الحضارة الغربية، لا تقارن إلا بنفاذ نظرة رفاعة الطهطاوى، حيث أنه يتنبأ ليس فقط بأحداث ١٩١٤م، عام قيام الحرب الأوربية الكبرى الأولى، بل وكذلك بالصدام الهائل بين الأغنياء والفقراء، والذى لم تكن أحداث ١٩١٧م فى روسيا القيصرية إلا بداية له. ومع هذا فإن ذلك الصراع الطبقى الذى يشير إليه إنما هو صراع بين «الأغنياء»

و«الفقراء». فالمعيار هنا هو مستوى الداخل المالى، فلسنا بإزاء مفهوم الطبقة الاجتماعية، التى تجتمع على مصالح مشتركة وأيديولوجية طبقية مناسبة وطرائق فى السلوك، ثم يتشابه أعضاؤها من بعد ذلك من حيث المستوى الاقتصادى منظورا اليه من زاوية الثروة. ولذلك، فإنك واجد فى «المرأة الجديدة» حديثا مفصلا بعض الشىء عن «الطبقات الثلاث» التى ينقسم إليها الأوربيون، «كما تنقسم سائر الأمم»: العليا والوسطى والدنيا(١١٨)، ولكنك ستدرك أن الفروق بينها فروق أخلاقية أو معنوية على الأفضل، وإن كان استخدام الصفات الثلاث المذكورة يوحى بأن وراءها كذلك اختلافا فى مستوى الدخل المالى: «فأما الطبقة الدنيا فأكبر حظها من التربية معرفة القراءة والكتابة وقليل من مبادئ العلوم، وهم فى أخلاقهم الشخصية أشد فسادا من عامتنا فى أخلاقها، وأما الطبقة العليا فتصيب حظا عظيما من التربية العقلية، ولكن يغلب عليها ما يغرى به الغنى والبطالة، وتستولى عليها الشهوات، فهم يتفننون فى اللذائذ تفنن أهل الجد فى الاختراعات والصنائع...»(١١٩). ويتأكد لدى القارئ انطباع الرؤية اللاطبقية عند قاسم أمين، تحت تأثير المقولات الليبرالية وشعارات الثورة الفرنسية، حين يجده يقول فى «أسباب ونتائج»: «وقد مرت على

أوربا أزمان كان فيها أمراء البلاد، متى قدم لهم رجل، يسألونه: ابن من أنت؟ ثم أتى حين بعد ذلك كانوا يسألونه فيه: ماذا تصنع؟ والآن لا يسألون إلا عن قيمة الشخص فى حد ذاته، من حيث مبادئه وأعماله»[١٢٠].هذا، وإن كان فى «المصريون» لا يزال يقول بوجود تفاوتات واختلافات وانقسامات، «تفصل، فى المجتمعات الأوربية، الغنى عن الفقير، النبيل عن الرجل العامى»، وهو ما يبدو أنه يسميه بالطبقات، حيث أنه يعارض هذا الوضع الأوربى بما يراه قائما فى المجتمعات الإسلامية، فيقول على الفور: «إن الكل فيها فى الكل، واندماج الطبقات فيها تام»[١٢١]، وإن كان قاسم أمين يرى فى هذه الانقسامات والتوزيعات مجرد «فروق دقيقة متعددة جدا»، هى أو عائدة إلى التشبث «بشكلية الألقاب»[١٢٢].

وكما رأينا للتو، فإن قاسم أمين يرى أن المجتمع الإسلامى، من حيث هو إسلامى، يرفض مزايا الميلاد، ولا ينظر إلا إلى نتائج أعمال الأشخاص، فيضعهم على سلم الشرف بحسب مجهوداتهم[١٢٣]، بل يذهب إلى اعتبار أن «المبدأ العزيز عند بعض الاقتصاديين: «لكل بحسب عمله»، هو شعارنا وكان كذلك دائما»[١٢٤]، ويؤكده بالأبيات المشهورة:

كن ابن من شئت واكتسب أدبا تغنيك أمجاده عن الحسب

إن الفتى من يقــول هــاأنــذا   ليس الفتى من يقول كان أبى[١٢٥]

ويلخص الأمر كله فى هذا التقرير: «يمكن لنا، إذن، أن نقرر أن كل شعب مسلم ليس مكونا إلا من طبقة واحدة وواحدة فقط، وهى التى تضم مجموع الأهالى. ويوجد بين هؤلاء القوى والضعيف، العالم والجاهل، الغنى والفقير، ولكن لا توجد بينهم لا طوائف ولا أنظمة فئوية. إنهم جميعا متحدون، لهم نفس الحقوق، ونفس المزايا ونفس المرتبة، وهم جميعا يكوِّنون الأمة»[١٢٦]. ثم يذكر قاسم أمين علاج الفقر بالزكاة[١٢٧]، وحل المشكلة الطبقية بوسيلة الأخذ باتجاه جماعى فريد، بل هو يسميه صراحة بالاشتراكية، ويعتبره أعلى من المذاهب الاقتصادية الأوربية[١٢٨]. ولابد من الاعتراف بأن القارئ المدقق يتوه فى خلال هذه الصفحات حين يحاول التمييز بين ما هو خاص بالوضع الأيديولوجى المثالى وما هو وصف للواقع. ولا ينبغى أن ننسى بحال أن كتاب «المصريون» إنما هو فى النهاية كتاب دفاعى.

سادسا : حركة المجتمع :

ينعى قاسم أمين ، تكراراً ، سكون المصريين إلى حد الخمود وإلى ما يقرب من الموت ، وذلك ليس فقط فيما يخص الحالة

المعيشية[١٢٩]، بل وكذلك فيما يخص تطوير الفكر والعوائد وطرق المعاملة[١٣٠]، وهو تعبير آخر عن أحوال المجتمع ككل . وفى مقابل ذلك يلاحظ أن البلاد الغربية تعيش فى حركة دائبة على شتى الجبهات[١٣١]، ومنها بالطبع جبهة أحوال الاجتماع . ومما لا شك فيه أن قاسم أمين يتجه بنظرة الفاحص المتأمل فى حركة المجتمعات ابتداء من غرضه الإسلامى ، ولكن فحصه ينطلق دوماً من الاعتماد على تقرير الوقائع وعلى محاولة استخلاص القوانين منها، لتصبح هذه القوانين ، من بعد ذلك ، ليس وصفا للواقع وحسب ، بل وتقريرا للحالة النموذجية التى ينبغى على الجماعة التى ينتمى إليها أن تصل إلى تحقيقها، ذلك عن طريق الوسائل التى يجتهد قاسم أمين فى تحديد أهمها وأكثرها فاعلية، لأنها أنفذ إلى جوهر الحال المنشودة . ويمكن أن نقول إن قاسم أمين يتبع ، على نحو عام، خطة ذهنية تتمركز حول الخطوات التالية:

١ – وضع المشكلة.

٢ – تقرير الوقائع والوصول إلى فهم لهيئتها وتكونها.

٣ – بيان القوانين التى تحكمها.

٤ – وضع نموذج إيجابى للحالة موضع التناول ابتداء من هذه القوانين.

٥ - الإشارة إلى الوسائل الكفيلة بتحقق الحال النموذجية الجديدة.

ولا غضاضة أن يمتزج في هذه الخطة العامة للبحث ما هو علمي وحسب وما هو اصلاحي ذو طابع عملي ونفعي. إن قاسم أمين ليس مجرد ملاحظ للمجتمع غايته تقرير أوضاعه على نحو دقيق، بل هو مصلح رأى أن الإصلاح الحق لا يقوم إلا على قوائم من المعرفة العلمية، فهو عالم اجتماعي لأنه مصلح اجتماعي. ومن نافلة القول إن التخطيط الخماسي المذكور هو تركيب مصطنع يجد مسوغاته في سطور كتب قاسم أمين، ولكنه ليس موضوعا فيها بنصه، ولا هو متبع في مكان ما منها على نفس الترتيب، وعلى نحو مقصود، وإنما هو تخطيط يحاول أن يضع العديد من الخطوات، التي يقوم بها قاسم أمين بالفعل، على شكل مرتب.

وتطبيقا لهذا التخطيط المنهجي، فإن المشكلة التى ينطلق منها قاسم أمين هى «تدنى» أو «تأخر» أحوال الأمة المصرية فى عصره، وقد قام بالبحث عن مظاهر هذا التدنى، ووصل إلى أنه الوجه الآخر للجمود بأشكاله المختلفة[١٣٢]، وأنه تكون نتيجة لسيادة عدد من التصورات الفكرية والحالات الأخلاقية المعينة، وأنه يرتبط فى نهاية الأمر بنظام التربية من جهة وبوضع المرأة فى الهيئة

الاجتماعية من جهة أخرى[١٣٣]. وقد انتهى إلى عدد من «القوانين»، بمعنى القواعد العامة، التى تحكم تلك الحالة وضدها معا، أى حالة التقدم والترقى وحالة التأخر والتدنى، وربما وجدها فى :

أ - التغير هو القانون العام فى الكون وفى الحياة بأشكالها، وهو علة التقدم.

ب - نظام التربية يشكل الأداة الكبرى الواقفة وراء تكون أحوال الفكر والعوائد وطرق المعاملة فى المجتمع.

جـ - هناك ترابط بين الحالة العقلية للأمة وحالة العوائد والآداب فيها.

د - أن المرأة هى العامل الأهم في نظام التربية وهى ميزان العائلة.

هـ - أن العائلة هى أساس المجتمع.

و - أن هناك ترابطاً طردياً ما بين أحوال المرأة فى العائلة وحالة المجتمع السياسية من حيث نظام الحكم، وتلازماً عاماً بين حالة المرأة وحالة الأمة تقدما وانحطاطا، وغير ذلك من القوانين المتصلة بغاية الحياة الإنسانية.

أما النموذج الإيجابى، المقابل للحال السلبية التى انطلق منها، فقد وجده فى أحوال البلاد الغربية، ووجد فيها التطبيق الناجح

للقوانين المذكورة[١٣٦]. وتبقى الوسائل. وستكون التربية، وتعديل الأخلاق الاجتماعية والفردية، وتغيير أحوال المرأة ، وإنشاء عادات جديدة، في مقدمة أدوات التغيير المنشود، في رأى قاسم أمين[١٣٧].

يمكن أن نقول إن تصور قاسم أمين عن حركة المجتمع هو تصور فردى وإرادى معاً. فردى، لأن الفرد هو المكون الحقيقى للمجتمع، وما المجتمع إلا مجموع أفراده وسبيل أى تغير فى المجتمع يكون عن طريق تغير أفراده[١٣٨]، وتغير ما بنفوسهم على الأخص. وهنا يلتقى الموقف اللبرالى مع التفسير الذى يختاره قاسم أمين للآية القرآنية: «إن الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»[١٣٩]. وهو أيضا تصور إرادى، لأن قاسم أمين يرى أنه لابد أن تتجه عقول الأفراد نحو إرادة التغيير، وأن تتحرك عزيمتهم لتحقيقه، ويتضح هذا المعنى فى «الخاتمة» التى تتوج كتاب «تحرير المرأة»، والتى ترى أن تحقيق الإصلاح، هو وغيره من سائر الأعمال النافعة، «إنما يتم بالعلم والعزيمة»[١٤٠]. وتمضى هذه الخاتمة لتفصيل القول فى هاتين الأداتين. ونلاحظ أن هذه النزعة الإرادية تتفق، هى الأخرى، مع منطوق الآية الكريمة، التى يبدو أن مركزها هو عبارة «حتى يغيروا»، والتى لقيت اهتماما كبيرا فى مدرسة الشيخ محمد عبده، ومن قبله عند الأفغانى، وعند مدرسة

عـصـر مـحـاولة الوثبـة المصـرية (١٨٧٦ - ١٨٨٢م)، وربما عند الطهطاوى من ورائهم جميعا.

أخيرا، فإن تصور قاسم أمين «الفردى» عن حركة المجتمع لا يعنى أنه يهمل تماما قوة الجماعة، على العكس، ولكن هذه الجماعة تبقى دائما مكونة من أفراد، وإرادة الجماعة هى مجموع إرادات الأفراد. ونرى اجتماع هاتين الظريتين معاً فى الصفحات الثلاث الأخيرة من خاتمة «تحرير المرأة»، حين يدعو قاسم أمين، من جهة، لتكوين جمعية جديدة يرأسها كبير من كبار المصريين، لتضع أفكار ذلك الكتاب موضع التنفيذ ولتجاهد عنها فى وجه المنتقدين، «لأن فى قوة الجماعة من الاقتدار على المدافعة ما ليس فى قوة الفرد الواحد، والاجتماع هو القوة الحقيقية التى بدونها لا ينجح شىء»[١٤١]، ولكنه، من جهة أخرى، كان قد وضع الأساس العام لرأيه فى فردية التغيير فى الصفحة السابقة مباشرة حين قال: «إن كان لنا أمل فى نجاح ما نعده صالحا لنا، فإنما يكون فى الرجل الذى يحب أن يعرف، ويبحث ليعرف، وعرف بالفعل ما تحتاج إليه بلاده، وله عزيمة تدفعه إلى العمل فى جلب ما ينفعها، ودفع ما يضرها، بالوسائل التى تؤدى إلى المطلوب بطبيعتها، طال الزمان أم قصر»[١٤٢]. (ونلاحظ هنا سريعاً أن تعبير «يبحث ليعرف» يقابل

الخطوة الأولى من الخطوات الخمس التى قدمنا الحديث عنها فى مفتتح هذا الجزء المخصص لحركة المجتمع، وتعبير «يعرف بالفعل» يقابل الخطوة الثانية، وكلمة «بالوسائل» تقابل الخطوة الخامسة، وكلمة «بطبيعتها» تشير من طرف ما إلى الخطوة الثالثة المتصلة بالقوانين الحاكمة للأحوال).

إن الإرادة هى العنصر الذى يملأ الفجوة القائمة بين التغير والتغيير، أو قل على الأدق: بين التغير والتغيير إلى الأفضل. ذلك أنه إذا كان التغير هو القانون العام فى الإنسان والحياة والكون(١٤٣)، فإنه يمكن أن يكون تغيراً إلى الأسوأ، إلى «الانزلاق والسقوط»(١٤٤). فتأتى الإرادة، القائمة على العلم، والمتجسدة فى وسيلة التربية الموجهة، لكى «تمكن الأمة من الارتقاء فوق أعلى منصات المدنية والحضارة»(١٤٥). ولكن يبدو لنا أنه من الممكن كذلك أن نقول إن قاسم أمين يرى إن الإرادة الجاهلة يمكن أن توجه قانون التغير وجهة سيئة، أو أن تتجاهله بالكلية: «لِمَ يعتقد المسلم أن عوائده لا تتغير ولا تتبدل، وأنه يلزمه أن يحافظ عليها إلى الابد؟ ولم يجر على هذا الاعتقاد فى عمله؟»(١٤٦). إن القول بضد التغير هو خروج عن القوانين الطبيعية(١٤٧).

إن التغير هو الذى يحكم أحوال الإنسان عامة، ومنها أحوال

التمدن، ولكن ربما استطعنا أن نقول إن هناك قانونا يحكم مبدأ التغير المستمر نفسه، ألا وهو قانون الكمال[١٤٨]، و «سنة التقدم والترقى»[١٤٩]، هى التى توجه مسيرة الإنسانية والعالم على طريق المدنية والتمدن.

ويرى قاسم أمين، متابعا فى هذه الاتجاهات التطورية بأنواعها فى الفكر الأوربى فى عصره، أن التمدن، وهو ينال الإنسان الفرد والجماعة المشكلة على هيئة أمة على وجه سواء، له «أدوار»[١٥٠]. وينتبه قاسم أمين دوما إلى عامل الزمن، فلا يمكن تحقيق التقدم، أو التغير عامة، على نحو فورى، ولا يمكن «حرق» مرحلة ما بتجاوزها إلى المرحلة الأعلى، فهنا يكون خطر الانزلاق والسقوط، «فيضيع الوقت بين صعود وهبوط وتقدم وتأخر»[١٥١]. من جهة أخرى، فإنه يدرك أن الماضى أساس الحاضر[١٥٢]، ولكن لا ينبغى أن نسجن الحاضر والمستقبل فى سجن الماضى، لأن كل شىء فى تغير[١٥٣].

إن للتغير الاجتماعى عوامل متعددة: «العوائد والآداب تتغير دائما تغيراً غير محسوس، تحت سلطان الاقليم والوراثة والمخالطات والاختراعات العلمية والمذاهب الأدبية والعقائد الدينية والنظامات السياسية»[١٥٤]. والتغير ظاهرة مركبة وليس فعلا

بسيطا: «كل تغيير... مركب من ضروب من التغيير كثيرة، تحصل بالتدريج فى نفس كل واحد شيئا فشيئا، ثم تسرى من الأفراد إلى مجموع الأمة، فيظهر التغيير فى حال ذلك المجموع نشأة أخرى للأمة»[١٥٥]. (لاحظ هنا الموقف الفردى من حركة المجتمع). من جهة أخرى، وكما يظهر من هذا النص الهام، فإن التغير أمر تفاعلى بين أطراف، وتنتج عنه ظواهر جديدة، والتعدد فيه ليس على مستوى أطرافه وحسب (فرد وأفراد والأمة)، بل وكذلك على مستوى تنوع أشكال التغيير ذاتها، ومن هنا نستطيع الحديث عن نزعة حركية متداخلة وتبادلية على شتى جبهات الحياة الاجتماعية، وعلى شتى جبهات الحياة الفردية كذلك: فالأفكار تؤثر فى الأخلاق والعادات وطرق المعاملة، وحالة المرأة فى العائلة انعكاس للنظام السياسى العام وموجه لنوع التربية وللسلوك الاجتماعى، الذى يعود ليدعم أوضاع العائلة والسياسة وغيرها، وهكذا فى كل شىء من أمور المجتمع.

أخيراً، فإنه مما يتصل بموضوع حركة المجتمع، أن قاسم أمين يرى أن لكل عضو فيه وظيفة عليه تأديتها[١٥٦]، كما يؤكد على أهمية التوازن ما بين حب النفس عند الفرد وما يمكن تسميته «بالعمل ذى القيمة الاجتماعية»: «التربية الحسنة النافعة إنما تظهر

في اختيار المنافع الشخصية، وانتخاب ما يكون موافقا منها لمصلحة الهيئة الاجتماعية»[١٥٧]. ونلاحظ في النهاية أن النزعة «الفعلية» عند قاسم أمين تجعله يرى في العمل المستمر، وعلى أعلى درجة من النشاط، النموذج الاجتماعي والإنساني بعامة، حيث تصبح الحياة «جهادا» مستمرا، بما في ذلك بين أفراد المجتمع أنفسهم، وفي جميع فروع النشاط[١٥٨].

سابعا: بعض القوانين الاجتماعية:

يستخدم قاسم أمين، معظم الوقت، كلمتي قانون وقوانين، ولكنه يستخدم أيضا «السنة» و «السنن» و «الناموس»[١٥٩]، وأحيانا ما يستخدم للدلالة على نفس المضمون تعبير «الفطرة»، وقد يقول أيضا: «قانون الفطرة»[١٦٠]، وإذا كان أحيانا ما يضيف «الطبيعي» و «الإلهي» إلى القانون أو إلى الناموس، أو يقول: «سنة الله»[١٦١]، إلا أنه لا يستخدم نصا صفة «الاجتماعي» للقانون، وأحيانا ما يستخدم كلمة «نظام» للدلالة على القانون[١٦٢]، كما يستخدم كلمة «القاعدة» في نفس المعنى[١٦٣].

ولا نجد تعريفا صريحا «للقانون» العلمي عند قاسم أمين، وربما كان هذا أمرا متوقعا عند رجل القانون الوضعي الذي يلتقي

بالكلمة عشرات المرات كل يوم، فهى أمامه واضحة المعنى ومفهومه للجميع، ومواطن استخدامات الكلمة فى كتاباته تدل على مضامينها بغير لبس ممكن. ويمكن أن نعبر عن فكر قاسم أمين إذا قلنا إن «القانون» هو القاعدة المطردة الحاكمة، وينطبق هذا، بوجه عام، على القانون الوضعى، وعلى ذلك الاجتماعى وذلك الطبيعى، وعلى ما يمكن تسيته بالقوانين العامة أو الكونية الشاملة. وربما اهتم قاسم أمين بتأكيد الصفة «الحاكمة» للقانون، فلا مناص من الخضوع لأحكامه، ويستخدم قاسم أمين نصاً لفظا «الخاضع» و«يخضع» فى كلامه عن اتباع الجسم الاجتماعى لقانون العلّية العام[١٦٤] ولقانون التغير العام[١٦٥]. وربما نلمح تعبير رجل القانون حين يتحدث قاسم أمين عن وجوب الطاعة لقوانين سير الإنسانية، و «مراعاة أحكامها»، وينهى عن «مخالفة قوانين نمو (المرأة) العقلى والأدبى»[١٦٦]. أخيرا فإنه يتحدث عن «قانون القوة»[١٦٧]، قاصدا إلى جهة الإجبار فى القانون. وبوجه عام، فإن القانون الطبيعى، ومعه القانون الاجتماعى، يتمتع فى تصور قاسم أمين بالعمومية، على ما يتضح من كثير من المواضع، وبالحتمية كذلك على ما قد يبدو أحيانا[١٦٨]. وربما يدل قوله «القوانين الصحيحة التى ترجع إليها حركات الكائنات وأحوال الإنسان»[١٦٩]، على أن هناك كذلك

قوانين يعلنها البعض، بينما هى «غير صحيحة»، ولكنه لا يعرض موقفه صراحة من هذه المسألة، وإن كان هجومه الدائم الشامل على أهل الجمود والثبات المنكرين لمبدأ التغير الدائم خاصة، ربما جعلنا نظن أنه يقصد، على نحو ما، أن قولهم بثبات الأشياء «قانون» غير صحيح[١٧٠].

ولنأتِ الآن، بعد هذا التقديم عن طبيعة القانون بعامة، إلى القوانين الاجتماعية التى تشير إليها تآليف قاسم أمين. وقد سبق لنا أن قررنا إدراكه للطبيعة النوعية لهذه القوانين وخصوصيتها: «إن لسير الإنسانية قوانين خاصة»[١٧١]، ولكن هناك قوانين أخرى عامة وكونية تخضع لها الظواهر الاجتماعية هى الأخرى، فهى من هذه الجهة تدخل فى دائرة القوانين العامة الحاكمة من بعيد لظواهر الاجتماع.

ولعل أكبر وأهم قانون اجتماعى عام اهتم به قاسم أمين أن يكون قانون التغير الدائم، وقد فحصناه عن قرب عنده من قبل[١٧٢]، كما فحصنا أيضا قانون السببية مطبقا على ظواهر الاجتماع[١٧٣]، ونضيف هنا تطبيقا جزئيا لذلك القانون: «المرأة الآن ناقصة العقل، شديدة الحيلة، (وهو) مما لا يختلف فيه اثنان. وقد بينا أن هذه الحالة هى أثر من آثار الجهل والانحطاط اللذين

عاشت فيهما أجيالا طويلة، وأنه متى زال السبب، فلا شك أن المسبب يتبعه»[١٧٤].

ثم هناك ، كما أشرنا من قبل، قانون الكمال، أو قل : قانون التقدم والترقى نحو الكمال، أو بتعبير قاسم أمين «قانون القابلية للكمال والاتجاه نحوه الذى يحكم الكون كله»[١٧٥]، ويسميه فى «تحرير المرأة» سنة التقدم والترقى»[١٧٦]، وسنعود إلى مفهوم الكمال الإنسانى فى فصول أخرى.

ويتصل بقانون الكمال قانونان مكملان: قانون التطور والتدرج، وقانون التزاحم فى الحياة. أما عن التطور بوسيلة التدرج، فإن قاسم أمين يعبر عنه فيما يخص المرأة بأن يقول إنها مثل الرجل، «مستعدة بضروب من الاستعداد إلى ضروب من الكمال، وإنها سارت وتسير فى طريق الكمال التدريجى، متنقلة من منزلة إلى أرقى منها، ومن مرتبة إلى أرفع منها»[١٧٧]. وينتقل إلى أعم المستويات: «الإنسانية فى سيرها الأدبى (أى المعنوى والأخلاقى) لا تنتقل من حال إلى حال أحسن منها إلا بالتدريج، وبعد تمرين طويل، يعرض لها فيه كثير من التخبط والاختلال والتجارب المؤلمة، حتى تستقيم فى سيرها. ويضيف على الفور: «تلك سنة الفطرة[١٧٨]، فلا يجوز لنا أن نتخيل أن فى إمكاننا الخلاص منها،

ولا الفرار من قيودها. كذلك لا يكون من الحكمة أن نرجع إلى الوراء، أو نوقف تقدمنا إلى الأمام»[١٧٩]، وينتج عن هذا القانون أن سير التقدم بطئ غير محسوس لا تكاد تشعر به الأمة[١٨٠].

وكما يرتبط قانون التدرج بمفهوم الكمال، يرتبط به أيضا «قانون التزاحم فى الحياة»، الذى «لايوجد بين أنواع الحيوانات، من أفضلها إلى أدناها، فرد إلا وهو خاضع له»[١٨١]. أما مضمونه، فهاهو: «هذا ماسماه داروين: قانون التزاحم فى الحياة، فطرة الله التى فطر عليها جميع الأنواع، وأودعها لها لتعددها إلى الرقى فى درجات الكمال، فما ضعف منها عند التزاحم عن مغالبة منازعه اضمحل ونبذه الوجود إلى خفاء العدم، وما قوى عند التغالب أظهره الله بالنصر المبين، فيرجع من ساحات هذا القتال الدائم مبرهنا بظفره على أنه أفضل بنى نوعه وأكرمهم، فيعيش ويبقى ويتناسل وينمو، ويظهر فيه كمال نوعه، وتخلد به آثاره»[١٨٢].

ثم هناك قانون الوسط أو البيئة، وهو «الناموس المعروف عند علماء التاريخ الطبيعى القاضى بأن كل حيوان يتطبع بطبيعة الوسط الذى يعيش فيه»[١٨٣]، وقاسم أمين يطبق هذا اجتماعيا بالإشارة إلى تأثير مخالطة الغربيين (الوسط) على تغير أحوال المرأة المصرية نحو «التحسن والترقى»[١٨٤].

وهناك ما يمكن أن نسميه بقانون الوراثة الاجتماعية. إن قاسم أمين يعرض لقانون الوراثة البيولوجية، الذى يخضع له كل فرد من الأنواع الحية، ومنها النوع الإنسانى[١٨٥]، ولكنه يطبقه أيضا على الخصائص المعنوية والأخلاقية التى تحاول التربية غرسها، ويرى أن التقدم الأدبى، أى الأخلاقى، والارتقاء العقلى لا يظهران طفرة واحدة، إنما يحتاج رسوخها «فى النفوس والعقول لعدة أعصر متوالية، فيترك كل عصر إلى ما يليه تركته، ويرث الخلف من السلف كل مملوكاته التى ورثها من أسلافه، والتى اكتسبها بجده الذاتى. وهذا ما يسمى عند علماء الطبيعة بقانون الوراثة»[١٨٦]. ولاشك أن مفهوم الوراثة الاجتماعية، الذى نراه مقررا فى وضوح فى هذه الأسطر، ثورى من جوانب كثيرة، حتى بالإضافة إلى الفكر الأوربى ذاته، ومضمونه واضح في هذا النص، وإن لم ينص قاسم أمين على تسميته بذلك الاسم نصاً.

ونذكر أخيرا ثلاثة قوانين اجتماعية فى اشارات سريعة. الأول هو ما يسميه قاسم أمين نفسه «قانون الفطرة»، ولعله يقصد به ما يوضع أحيانا تحت اسم «الطبيعة الإنسانية». الثانى هو ما يمكن أن نسميه بقانون التفاعل بين الظواهر: «الحالة السياسية والحالة العائلية... متفاعلتان، وإن لكل منهما تأثيرا فى مقابلتها»[١٨٧].

وربما مال قاسم أمين أحيانا إلى تصور أن اتجاه التأثير يأتى من الأعلى إلى الأسفل: «شيخ البلد الذى كان يسلب منه عشرة جنيهات (على يد الحكام والمديرين)، كان يستردها مئة من الأهالى، والعمدة الذى كان يضرب مائة كرباج، كان عند عودته إلى بلدته ينتقم من مائة فلاح»[١٨٨]، ولكن موقفه الظاهر هو التفاعل المتبادل: «انظر إلى البلاد الشرقية، تجد أن المرأة فى رق الرجل، والرجل فى رق الحاكم، فهو ظالم فى بيته، مظلوم إذا خرج منه»[١٨٩]. القانون الثالث لا يسميه قاسم أمين نفسه بهذا الاسم، ولا يعلن عنه الإعلان التأسيسى كما هو الشأن مع ما سميناه بقانون التفاعل فى السطور السابقة، ولكنه مع ذلك يقرره على وجه التعميم الكلى، وهو جدير بالاعتبار لأن قاسم أمين يهتم بمفهوم الوظيفة كثيرا، ونقصد بذلك القانون ما يمكن أن نسميه بقانون الوظيفية العامة: «ليس فى الوجود شىء إلا وله وظيفة يؤديها وعمل يشتغل به»[١٩٠].

ثامنا: نماذج تطبيقية للبحث الاجتماعى:

نعرض هنا لبعض الحالات الخاصة التى تجسد طرائق البحث الاجتماعى عند قاسم أمين، وهى حالات مختارة من بين عديدة

غيرها. ونشير مرة أخرى، إشارة خاطفة، على سبيل التهيئة لما نحن بصدده الآن، إلى ما سبق أن فصّلنا القول فيه بعض تفصيل فى أثناء حديثنا عن النظرة العلمية، بشأن الأسس المنهجية التى انتبه إليها قاسم أمين والأساليب العلمية التى يمكن أن نجد شواهد عليها فى كتاباته. فمن هذه الأسس المنهجية خطوات الطريقة العلمية، وهدفية الوصول إلى قوانين للظواهر المبحوثة، وسيادة مبدأ العلية، والقول بوجود نظام عام للأشياء، وبترابط كل ما فى الكون، وبالاهتمام بالتوجه إلى ما هو أصل، والتنبيه إلى عمومية التغير والحركة، وإلى النسبية ومنها النسبية الثقافية، ومن هنا توجيه النظر إلى بدائل المطلق والنسبى والثابت والمتحول، والاتجاه إلى التعميم ما أمكن ذلك، مع إدراك وجود نوع من الضرورة بل والحتمية التى تحكم الظواهر، والاعتماد فى كل ذلك على شواهد التجربة جنبا إلى جانب مع مقتضيات الأدلة العقلية، واعتبار الحق هدفا أعلى للعلم. أما عن الأساليب العلمية التى طبقها قاسم أمين فمنها الملاحظة، وما يشبه منهج المتشابهات والبواقى، والإحصاء والمقارنة والاختبار التاريخى، والبحث عن التفسير سواء منه الاجتماعى أو النفسى، وما يمكن أن نسميه بالفهم الإجرائى والاهتمام بالتنبؤات، كل ذلك مع عدم إهمال

استخدام التفنيد المنطقى أحيانا (بل والمجادلة الشديدة مع البعض)، وربما كان لقاسم أمين بعض الولع بعملية «الإثبات بالخلف»، ولنضف إلى كل ذلك تقديم الفروض المنوعة والاهتمام بالخطوة الأولى فى كل بحث وبالسؤال الصحيح مبتدأ له، مع الارتكان إلى ما يسميه «بالفكر السليم»، واتخاذ الاتجاه الموضوعى واتباع مبدأ النزاهة العلمية.

وقد اهتم قاسم أمين بميادين عديدة فى ظاهرة الاجتماع مأخوذة فى مدلولها الشامل[١٩١]:

- فقد اهتم بالتاريخ، وهو عنده موضوع لعلم اجتماعى[١٩٢]، واجتهد فى خصوص بعض المسائل، وفى مقدمتها مكان المرأة فى المجتمع، أن يتتبع «سلسلة التاريخ فى جميع الأزمان»[١٩٣]، ونظر إلى التاريخ الإسلامى، ومن زاوية حضارية، نظرات جديدة كان فيها مفتتحا لموقف جديد نقدى[١٩٤]، كما نظر إلى الحضارة الغربية نظر العارف الخبير[١٩٥]، ويجد القارئ لكتاب «المصريون» المدخل التاريخى حاضراً فى سائر فصوله، وسائدا فى بعضها[١٩٦].

- واهتم بدراسة المجتمع المصرى فى عصره، فى معظم جوانبه وفى أهمها عند أهل الوقت على كل حال، من حيث نظام العائلة،

والتفاعل ما بين السياسى والعائلى والأخلاقى، ونظام التربية والتعليم، والتوزيع البشرى للأنشطة والأعمال والوظائف، مع نظرة قريبة إلى بعض الفئات، ومن أهمها الموظفون وعلماء الأزهر، فضلا عن فئات، أو «حلقات» أخرى بلغة المستويات المعيشية، بل إنك واجد عنده إشارات انثروبولوجية قليلة ولكنها نافذة(١٩٧)، ومقارنة دائمة ما بين الحضر والريف والبدو. وفضلا عن دراسته الشاملة لأوضاع المرأة، ومن الوجهة «الاجتماعية» بحسب لفظه(١٩٨)، فإنه عرض لمسألة كانت فى مركز اهتمامات أهل العصر ومن قبلهم، وهى تفسير «انحطاط» أو «تأخر» المجتمع المصرى، وذلك الإسلامى وذلك الشرقى من ورائه بعامة.

– واهتم أيضا بدراسة الأخلاق والوجدانيات والعواطف، وحاول أن يجمع فى نظرته ما بين المدخل الفسيولوجى وذلك النفسى وذلك الاجتماعى أيضا، ولكن الأخلاق فى النهاية ظاهرة اجتماعية مهما يكن لها من أسس أخرى(١٩٩)، وهو يدرسها من حيث فسادها دراسة المنتبه الخبير بحكم موقعه القضائى، ويقارن دوما ما بين الأوضاع المصرية وتلك الأوربية، سواء فى «المصريون» أو فى «تحرير المرأة» أو فى «المرأة الجديدة» وغيرها.

وهاهى بعض الحالات الخاصة المختارة، التى تشهد على قدرة

قاسم أمين باحثا اجتماعيا بالمعنى الواسع، ونراه فيها متبعا لطرائق علمية منوعة، من ملاحظة إلى مقارنة إلى استشهاد بالوثائق إلى دراسة لمغزى الاحصاءات إلى تتبع للتاريخ الاجتماعى لبعض الظواهر:

١ - علاقة المصرى بالسلطة الحاكمة :

تناول قاسم أمين هذا الموضوع أكثر من مرة، وهذا نص مترجم من كتابه «المصريون» يتحدث فيه حديث المشاهد المباشر والمفسر المفكر:

«ولكن هناك شيئا يخشاه المصرى خشية تفوق خشيته للمرض، أو لطلقات البنادق بل وللموت نفسه: تلك هى السلطة. نعم، السلطة، التى هى مصدر الرعب للفلاح. إنها السلطة التى تجعله يجرى بأقصى سرعته ما أن يدرك من بعيد طرف طربوش. إنها هى التى تفرض عليه قبول كل أنواع الإذلال وكل أنواع الظلم بغير احتجاج. إنها هى التى سمحت للسيد الدوق داركور أن يشاهد مناظر رأى فيها يونانيا يضرب فلاحا أُتي به إليه ليعاقبه. وقد تقولون: «ياللغرابة، ولم كانت السلطة مرهوبة إلى هذا الحد؟» إن الأمر، مع ذلك، واضح كثيرا. إن الإنسان قد يستخف بالموت، لأنه يعرف أنه أمر بضع دقائق من الآلام المعنوية الرهيبة عليه أن يتحملها، أما

السلطة فإن المصرى لا يعرف مطلقا متى سينتهى أمرها معا. إن الضرب بالعصى ربما استمر لساعات، وربما اتصل السجن لسنوات، وربما تتابع التعذيب لشهور، وميكن ألا تكفى كل ممتلكات المعذب المسكين هو وعائلته لإرضاء شهية موظف السلطة التى لاتشبع.

«لقد رأيت بعينى فلاحين، كان يونانيون قد قاربوا على قتلهم من شدة الضرب على رؤوسهم، ولكن الذى عوقب بالضرب كان الفلاح، وهو الذى وضع فى السجن، وهو الذى اقترض جنيهات ليرشو بها السلطة. لقد رأيت موظفين يضربون بالكرباج الشاكى والمشكو منه فى حالات مشاجرة، ويصرفانهما معا. ورأيت شهودا، استدعوا للشهادة بشأن وقائع وصلت إلى عملهم، رأيتهم يهانون وينهبون ويوضعون فى السجن شهورا. ووجدت أمامى، حين قمت بافتتاح محكمة بنى سويف الجديدة، أكثر من مائتى محبوس كان علىّ أن أفرج عنهم فوريا. وكان من بينهم، على الخصوص، أربعة غفراء كانت تهمتهم أن حالة زنا قد ارتكبت فى منطقتهم دون أن يمنعوها. لقد عرفنا، جميعا، الوسيلة التى كان يستخدمها الخديو اسماعيل لنهب أموال الفلاحين: إنها الكرباج فى الصباح، وعند الظهر، وفى الليل كذلك»(٢٠٠).

٢ - تفسير لجوء الفلاح إلى استعمال الكذب :

«إن السيد الدوق داركور ينقل محادثة كان أجراها مع أحد رجال القضاء، وهى تبين أن الفلاحين لا يستعملون غير الأكاذيب وشهادات الزور للدفاع عن أنفسهم، حين تعرض قضاياهم أمام المحاكم: إن هذا صحيح، بوجه عام، ولكن الذنب ذنب من ؟ إن لم يكن ذنب المزورين الذين لا مثيل لهم والمرابين الأجانب الذين استخدموا كل ألوان التدليس وكل أشكال الغش وكل طرق الاحتيال من أجل اغتصاب أراضى الفلاحين من بين أيديهم؟».

«إن أكبر ما يثبتنى على نظرتى هذه هو أننى وجدت رجلا ممتازا يقول بها، وهو رجل اشتغل فى وظيفة قاضى فى المحاكم المختلطة لمدة سنوات. إنه مؤلف الكتاب المشهور، فى مجلدين، والمعنون: «مصر وأوربا». وسوف أضع رأيه المثبت بالكتابة بشأن صدق المصريين، فى مواجهة رأى رجل القضاء الآخر المذكور سالفا. يقول: ...إن الميل إلى الصدق، على وجه العموم، أكثر انتشارا بين الطبقات العليا عنه بين صفوف العامة غير المتمدنة. وليس الأمر مختلفا فى حالة مصر. ولكن لا يمكن للمرء أن يقول إن الفلاحين وفقراء المصريين فى المدن أكثر كذبا أو أقل صدقا من الريفيين وأهالى المدن غير المتمدنين فى أوربا. صحيح، أنه

ينبغى استثناء المصريين الذين أفسدتهم خدمتهم للأوربيين وللأجانب الشرقيين، وهؤلاء وأولئك، فى أعين الصريين، قوم كفرة يعيشون فى ترف سفيه، وهم غير جديرين بالاحترام مع ذلك، ويعاملونهم إما معاملة قاسية أو معاملة مهينة. إن الخدم لا يعترفون بالحق مطلقا إن كان على أنفسهم، ويكذبون بغير رمشة جفن من أجل الخروج من المآزق. وكذلك يفعل الفلاحون الذين عانوا الكثير من المرابين ومن الأجانب الآخرين الذين يستغلونهم تحت الحماية القنصلية الأجنبية، فهم لا يعودون يقولون الصدق فى شأن علاقاتهم مع الأوربيين واليونانيين والمشرقيين، ولا حين يظهرون أمام المحاكم المختلطة التى لا توحى إليهم بأى قدر من الثقة مع ذلك، ومع هذا الاستثناء، فإنه ينبغى أن نقول إن الفلاحين، بوجه عام، صادقون فى أقوالهم وفى إقراراتهم أمام المحاكم»(٢٠١).

٣ - تحويل الانتباه فى فعل الطلاق من الألفاظ إلى السياق الاجتماعى لإطلاق ألفاظه وإلى المعانى المقصودة فعلا:

ينبه قاسم أمين إلى صعوبة الأخذ بأن «الطلاق يقع بكلمة، لمجرد التلفظ بها، مهما كانت صريحة»، لأن الطلاق عقد، فهو عمل، وينبغى توافر ركن النية المتجهة إلى ذلك العمل، بينما كثير من

الفقهاء التقليديين يقصرون أبحاثهم على الكلمات والحروف»[٢٠٢].

ويطالب قاسم أمين بالتنبيه إلى قصد المتلفظ بلفظ الطلاق، مما يجعله قريبا من بعض مناحى الدراسات اللغوية الحديثة التى تهتم بالطابع «العملى» للغة، وبالسياق الاجتماعى الذى تتم فيه، ويقول مدينا بعض الفقهاء لأنهم: «قصروا أبحاثهم جميعها على الكلمات والحروف، وامتلأت الكتب بالاشتغال بفهم : طلقتك، وأنت طالق، وأنت مطلقة، وعلىَّ الطلاق.. على أننا نظن أن علم الشرائع يقبل أبحاثا أخرى غير تأويل الألفاظ.. ولو ترك فقهاؤنا الاشتغال بالألفاظ وبحثوا فى مآخذ الأحكام التى يقررونها... لتبين لهم أن الطلاق لا يكون طلاقا إلا إذا كان مصحوبا بنية الانفصال... نحن فى زمان ألف رجال فيه الهذر بألفاظ الطلاق ... فترى الرجل منهم يناقش آخر، فيقول له: إن لم تفعل كذا فزوجتى طالق، فيخالفه، فيقال وقع الطلاق وانفصمت العصمة بين الحالف وزوجته، وهى لاتعلم بشىء، ولا تبغض زوجها ولا تود فراقه، بل ربما كان الفراق ضربة قاضية عليها، وكذلك الرجل ربما كان يحب زوجته ويألم لفراقها، فإذا افترق منها بتلك الكلمة، التى صدرت منه لابقصد الانفصال من زوجته وإنما بقصد إلزام الشخص الآخر بالعمل الذى كان يريده، كان الطلاق على غير نية منه...»[٢٠٣].

٤ - ملاحظة نتائج اختلاف البيئة ما بين حضرية وريفية وبدوية على بعض جوانب حياة النساء :

أ - «من المشاهد الذى لانزاع فيه أيضاً أن نساء العرب ونساء القرى المصرية، مع اختلاطهن بالرجال على ما يشبه الاختلاط فى أوروبا تقريبا، أقل ميلا للفساد من ساكنات المدن اللائى لم يمنعهن الحجاب من مطاوعة الشهوات والانغماس فى المفاسد، وهذا مما يحمل على الاعتقاد بأن المرأة التى تخالط الرجال تكون أبعد عن الأفكار السيئة من المرأة المحجوبة. والسبب فى ذلك أن الأولى تعودت رؤية الرجال وسماع كلامهم، فإذا رأت رجلا أيا كان لم يحرك منظره فيها شيئا من الشهوة، بل ولو عرض عليها شىء من هذا فإنما يكون بعد مصاحبة طويلة وقضاء أوقات فى خلوات كثيرة، يحدث فيها ما قد يُشعر كل واحد منهما بانجذاب إلى الآخر: وهذا هو مامنعته الشريعة وبينا امتناعه فيما سبق. أما الثانية فمجرد وقوع نظرها على رجل يحدث فى نفسها خاطر اختلاف الصنف، من غير شعور ولا تعمد ولا نية سيئة، وإنما هو أثر منظر الرجل الأجنبى، لأنه قد وقر فى نفسها أن لا تراه ولا يراها، فمجرد النظر إليه كاف فى إثارة هذا الخاطر.

«وقد شاهدت مراراً، كما شاهد غيرى، هذا الأثر عينه فى

الرجال، فرأيت أن الرجل الذى لم يتعود الاختلاط بالنساء، إن لم يغلبه سلطان التهذيب القوى، لا يملك نفسه إذا جلس بينهن، فلا تشبع عينه من النظر إليهن ومن المتأمل فى محاسنهن، وينسى فى ذلك كل أدب ولياقة، وربما طلب الوسائل لملامستهن بيده أو مماستهن بكتفه، ويندفع إلى أقوال وأعمال تشمئز منها نفوس الحاضرين.

«وقد شاهدت، وشاهد كل إنسان، ما يخالف ذلك فى بلاد أوروبا وفى الآستانة وفى القرى المصرية وبين الأعراب فى البادية، حيث يمر الرجال والنساء بعضهم بجانب بعض وكتفا لكتف ولا يلتفت أحدهم إلى الآخر»(٢٠٤).

ب - القوة والضعف عند الولادة : «إن ماتقاسيه المرأة من الآلام والمشقات حين الولادة فى مرة واحدة ربما يزيد على مايعانيه الرجل من المتاعب طول حياته، ولا يحتمله من النساء إلا القويات المزاج صحيحات الأجسام، كنساء القرى المتعودات على العمل البدنى المتمتعات بالهواء النقى. أما نساء المدن المحرومات من الحركة والتمتع بالشمس والهواء، فلا قدرة لهن على احتمال هذه المشقات، ولذلك فإن أكثرهن يعشن قليلا، بعد الولادة الأولى، وكثيرا ما يهلكن فيها، فقد بلغ عدد من يموت منهن فى النفاس

أكثر من ثلاثين في الألف»[٢٠٥].

جـ - مدى اقتراب المرأة من مستوى الرجل ما بين الريف والحضر : «المرأة الفلاحية تعرف كل ما يعرفه الرجل الفلاح، مداركهما في مستوى واحد، لا يزيد أحدهما عن الآخر تقريبا، مع أننا نرى أن المرأة في الطبقة العليا أو الوسطى متأخرة عن الرجل بمسافات شاسعة. ذلك لأن الرجال في هذه الطبقات تربت عقولهم واستنارت بالعلوم، ولم تتبعهم نساؤهم في هذه الحركة، بل وقفن في الطريق»[٢٠٦].

د - اختلاف الحالة الاجتماعية والاقتصادية للمرأة يؤدي إلى اختلاف أوضاع حياتها : يعرض قاسم أمين لفكرة أن صورة المرأة في عقول السلف المسلمين جاءت من أحوال المرأة في جزيرة العرب، بما في ذلك قبل الإسلام، ثم يستطرد إلى عمل مقارنة نافذة تلتفت إلى ربط السياسي بالاجتماعي بالاقتصادي جميعا: «إن حياة العرب كانت حياة حرب وقتال، وأرزاقهم كانت من الغنائم، وغني عن البيان أن أمة معاشها متوقف على القتال لا يمكن أن يكون فيها للمرأة شأن كبير، إذ المرأة في هذه المعيشة لا تستطيع أن تجاري الرجل، ولذلك نزلت درجتها عندهم وسقطت منزلتها بينهم، حتى حسبت من المتاع وأدوات الزينة، وتناولها

السلب وعدت من الغنائم كما عد غيرها من الأموال. ومن هذا نتج التسرى وتعدد الزوجات. وكما أن المرأة لم يكن لها عمل عند الأمة العربية، لانحصار المعيشة كلها فى الغزو والدفاع عن القبيل. كذلك لم يكن لها عمل فى العائلة، لأن التربية عندهم كانت قاصرة على تغذية جسم الطفل بالرضاعة والأكل حتى ينشأ رجلا مقاتلا لا عالما فاضلا. فلا عجب إذا رأينا فى كلام العرب وشعرهم وقصصهم، بل وفى مؤلفات فقهائهم وعلمائهم وفلاسفتهم، ما يدل على احتقارهم المرأة.

«هذا هو منشأ تولد صورة المرأة فى عقول المسلمين، وهى صورة حقيقية إذا نظر إلى الماضى، ولكنها مزورة إذا نظر إلى الحال والمستقبل. ذلك لأن المرأة المصرية اليوم لا تشابه المرأة العربية التى كانت تعيش من آلاف السنين، لا فى الظاهر ولا فى الباطن، وتختلف عنها فى الملبس والمأكل والمسكن وفى العادات والأخلاق والحاجات والضرورات، لأن الحاجة الاجتماعية والاقتصادية التى هى موجودة فيها الآن تغيرت تغيرا كلياً عما كانت عليه فى الماضى، وتبع هذا التغيير لوازم وحاجات كانت مجهولة عند نساء العرب. فالمرأة العربية كانت تكتفى من طعامها بخبز من شعير، ومن ملبسها بقميص من قطن، ومن مسكنها ببيت

من شعر، وتحصيل ذلك وتدبيره لا يحتاج إلى علم واسع وحذق كبير. والمرأة العربية عاشت جاهلة بالشئون المعاشية، لأن عائلتها وقومها لم يكونوا محتاجين إليها فى قوام حياتهم العائلية والاجتماعية. والمرأة العربية كانت مستعبدة، لأنها كانت فى الحقيقة متاعاً يدخل فى حوزة الرجل بالسلب أو بعقد هو أقرب للبيع منه إلى الزواج. أما الآن، فنحن فى عصر أمن الناس فيه بعضهم بعضاً، واستقر النظام فيهم، فلم تبق الحرب شغلا شاغلا... وأصبح الناس غير محتاجين إلى الغزو فى كسب أرزاقهم...»[٢٠٧].

٥ - المعالجة الإحصائية لمشكلة النساء بغير عائل وتنبؤات رقمية :

عند معالجة موضوع تعليم النساء، ينقل قاسم أمين الحديث مع مجادليه من إطار إلقاء بعض الكلمات عن كون المرأة ضعيفة أو قاصرة العقل، إلى إطار واقعى يعتمد على استقراء الواقع: «إنما الذى يفيد فى فهم حقيقة هذه المسألة وحلها هو أن يعرف، أولا، هل يوجد نساء ليس لهن عائل يقوم بحاجاتهن، أو يوجد لهن عائل لكن كسبه لا يكفى لقضاء ما يحتجن إليه؟ ثم إذا كان يوجد نساء من هذا الصنف، فما عددهن، وهل هو كثير أو قليل؟. «ثم يمضى إلى النظر فى تعداد أهالى القطر المصرى لعام ١٨٩٧م، ليجد فيه أن جملة المصريات اللائى يشتغلن بصنعة أو حرفة هو ٦٣٫٧٣١،

أى ما يساوى ٢٪ من مجموع النساء، «ولم يدخل فى هذا الاحصاء نساء الأرياف اللاتى يشتغلن بالزراعة، ولا النساء الأجانب اللاتى بلغ عدد المحترفات منهن بصنعة عشرين فى المائة»، ليمضى، من بعد ذلك، إلى المطالبة بتعليم هؤلاء النسوة اللائى يحترفن صنعة لعدم وجود عائل لهن، على الأقل: «هل من مصلحة للرجال أو لعموم الهيئة الاجتماعية فى أن يعيش هؤلاء النساء ضعيفات جاهلات فقيرات؟»(٢٠٨). وهكذا تعتمد المطالبة بتعليم النساء على أساس إحصائى وعلى استقراء للوقائع. بل إن قاسم أمين يستخدم الإحصاءات للتنبؤ بازدياد عدد النساء الخاليات عن الزواج فى مصر، بحيث يتضاعف رقم الاثنين فى المائة مرات عدة(٢٠٩). وانظر إلى دقة قاسم أمين وتحوطه بإزاء صياغة الوقائع: «يظهر لى أن الزواج عندنا قد بدأ فى التناقص: فإنى أعرف كثيرا من الذكور والإناث تجاوزوا السن الذى يحصل فيه الزواج عادة، ولزمتهم العزوبة مختارين أو مضطرين، ولكن لا أدرى هل ذلك عام أو خاص ببعض المواضع، وإنما يمكننى أن أحقق أن متوسط السن الذى يحصل فيه الزواج زاد عما كان عليه فى الماضى، فهو الآن ما بين العشرين والثلاثين فى الغالب، وكان فيما مضى سن البلوغ ، كثيرا ما كان يحصل الزواج قبله»(٢١٠).

٦ - اختلاف المصرى المسلم والقبطى فى الدين واتحادهما فى شتى الجوانب الآخرى :

« ما هى العناصر التى تؤلف المجتمع المصرى الحالى؟ هناك، أولا، المصريون الحقيقيون، مسلمين وأقباطا، وهم الذين يشكلون الغالبية العظمى من السكان. إننى أسميهم «المصريين الحقيقيين»، لأنهم اليوم ينتمون إلى نفس العرق والأصل (race) . ذلك أنه من المؤكد أن المصريين المسلمين الذين يراهم المرء فى المدن، وفى الأرياف خاصة، لا ينحدرون من العرب، وليسوا عربا، إلا من حيث اللغة والدين. وليس على المرء إلا أن يلاحظهم حتى يقتنع أن لهم نفس الهيئة والملامح التى للاقباط. وإننى أعتقد إذن، والملاحظة تثبت ما أقول على ما يظهر، أن المسلمين المصريين ما هم إلا اقباط تحولوا إلى الدين الإسلامى. ورغم اختلاف الديانة الذى يميز بين المسلمين والأقباط، إلا أنهم يكون كلا متجانسا، يتكلم نفس اللغة، ويرتدى نفس الثياب، ويمارس نفس العادات. وما حدث، مطلقا، خلاف جدى بينهم منذ عاشوا معاً، جنباً إلى جنب. وقد خلقت مآسى مشتركة نفس الشعور بالوطنية فيما بينهم، شعور بالوطنية غلّب عندهم وحدة العرق والأصل على اختلاف الدين. ويكفى أن نذكر هؤلاء الذين يريدون أن يفرقوا فيما بيننا بأن

الأقباط أثناء ثورة عرابى ، مشوا إلى جوار المسلمين يدا بيد، ولم يوجد مسلم واحد خطر على قلبه التعرض لقبطي حينذاك، بينما اعتبر أن المسلمين الأتراك والشراكسة أعداء لمصر.

« إن السيد الدوق داركور قد أساء فى كتابه إلى مواطنىّ القبط إساءة شديدة، لأنه لم يفهمهم البتة. وهو يعترف هو نفسه، فى كتابه، أنه لم تتح له الفرصة لأن يعرف أحداً منهم معرفة شخصية. فلا ندهش إذا كان قد أساء الحكم مثلما أساء الحكم علينا. وكل ما سأقول فى خلال هذا الكتاب، من أجل تبرير النقائص التى ينعاها علينا الأوربيون أو تقديم العذر لها، ينطبق على الأقباط انطباقه علينا، فيما عدا ما يخص الدين»(٢١١). ونلاحظ أن نون الجمع فى «علينا» فى السطرين الأخيرين تشير إلى المسلمين والأقباط جميعا، لأن الدوق الفرنسى كان قد هاجم الجميع، كما أن نون الجمع في «يريدون أن يفرقوا فيما بيننا» تدل هى الأخرى على كل المصريين من حيث هم مصريون.

خاتمة :

فى هذا الفصل رأينا الجانب التطبيقى لاستخدام قاسم أمين لأساليب العلم فى وصف الوقائع الاجتماعية ومعالجتها وتفسيرها.

وقد اهتممنا بتفصيل القول فى سلامة نسبة صفة «العالم الاجتماعى» إليه، وربما كان أهم ما كشفه هذا الفصل هو أن قاسم أمين يرى أن المجتمع ظاهرة موضوعية ويمكن أن تستخدم معها طرائق العلم مطبقة على ما هو اجتماعى، ولربما كان هو الأول الذى يعرض هذا الموقف فى ثقافتنا الحديثة كلها مع هذا القدر من الوضوح ومع هذا القدر من التفصيل والشمول معاً. ولقد أثبتنا النصوص الصريحة التى تدل على هذا التوجه نحو «علمية» دراسة المجتمع، أو «الإنسان الاجتماعى» كما جاء مرة على قلم قاسم أمين . وينبغى أن تدرك مدى الثورية فى إثباته القاطع المتكرر أن حركة المجتمع إنما تخضع لقوانين، ولتأكيده على فكرة التغير الاجتماعى. ومما يدل على رسوخ قدم قاسم أمين فى ميدان الدراسة العلمية للمجتمع أنه صاغ عدداً من المصطلحات الدقيقة، وأحيانا ما اهتم بتحديد معانيها تحديدا واضحا مقصودا. ثم إننا رأينا هذا المفكر النابه وهو يدرس جوانب عدة من الواقع الاجتماعى فى عصره، من مثل القوى الاجتماعية وحركة المجتمع، ويحاول فى أثناء هذا صياغة عدد من القوانين الاجتماعية العامة، متأثرا من غير شك بتطورات العلوم الغربية فى عصره، وعلى الأخص بنظرية التطور. ومصداقا للقضية التى حاولنا التدليل عليها

من خلال كل هذا الفصل، فقد أنهيناه بنماذج تطبيقية للبحث الاجتماعي مستقاة من نص قاسم أمين على نحو مباشر، وهى من غير أدنى شك، فى رأينا، أول نماذج العلم الاجتماعى فى ثقافتنا الحديثة.

الهوامش

(١) هذه هي ترجمة عناوين فصول وهي غير مرقمة في الأصل ذاته: تصدير، المصرى، المجتمع المصرى، المصريون وعلو قدرهم فى الحرب، العبودية، الحكومة، النساء، تعدد الزوجات، الطلاق، كلمات فى شأن الحب، الدين، الأخلاق، الإسلام والتعلم، العلوم والآداب، أوربا، خاتمة.

(٢) انظر مثلا فى «المصريون»، ص ٢٦ - ٢٧، ٤٢ - ٤٣، ٧١ - ٧٢، ٩٠ - ٩٤، ١١٢ - ١٥ وغيرها.

(٣) يضاف إلى هذا وقت دراسته للقانون فى فرنسا بطبيعة الحال.

(٤) راجع «تحرير المرأة»، ص ٥: «هذه الحقيقة التى أنشرها اليوم شغلت فكرى مدة طويلة، كنت فى خلالها أقلبها وأمتحنها وأحللها، حتى إذا تجردت عن كل ما كان يختلط بها من الخطأ، استولت على مكان عظيم من موضع الفكر منى...» (التخطيط منا). ومن المحتمل أن تكون الاشارة هنا إلى تخلصه من بعض آرائه التى ضمنها كتاب «المصريون».

(٥) «أسباب» ، ص ١٧ - ٢٠.

(٦) نفسه، ص ١٨.

(٧) نلمح هنا سيطرة نظرية التطور التى كانت سائدة فى أوربا فى ذلك الوقت.

(٨) «أسباب»، ص ١٨.

(٩) نفسه، ص ١٩.

(١٠) «المرأة الجديدة»، ص ٢١٢.

(١١) نفسه، ص ١٧٤ - ١٧٥، و «أسباب»، ص ٢٠.

(١٢) «المرأة الجديدة»، ص ١٨٤.

(١٣) «تحرير المرأة»، ص ٥.

(١٤) نفسه، ص ٧ .

(١٥) راجع «تحرير المرأة»، ص ٥٦، ٦٨.

(١٦) راجع «تحرير المرأة»، ص ٩١، و «المرأة الجديدة»، ص ٤٨، ٥٨، ٧٣، ١٠٣، ١٧٥، ١٨٤.

(١٧) «المصريون»، ص ٩٤ - ٩٥.

(١٨) «تحرير المرأة»، ص ١٠٤.

(١٩) «المرأة الجديدة»، ص ٨٣.

(٢٠) «أسباب»، ص ٥٦.

(٢١) «المرأة الجديدة»، ص ١٧٥.

(٢٢) نفسه، ص ١١٣.

(٢٣) «أسباب»، ص ١٨.

(٢٤) نفس المكان.

(٢٥) وهى التى يسميها قاسم أمين أحيانا «أحكام النواميس الطبيعية»، «تحرير المرأة»، ص ٧.

(٢٦) «أسباب»، ص ١٨. ولا نظن أن قاسم أمين كان يقصد فى تعبير «الجسم الاجتماعى» معنى الجسم المادى، بل لعل المقابل الفرنسى الذى كان يلوح فى ذهنه هو "corps sa-ciel"، أى «التكوين» أو «الكيان» الاجتماعى. ولكن قارن هامش (٢٩) من بعد.

(٢٧) «المرأة الجديدة»، ص ٨٩.

(٢٨) «تحرير المرأة»، ص ١٠٧.

(٢٩) حول الموازنة بين «المادى» و «الأدبى» (أى الأخلاقى أو المعنوى) فى الظواهر الإنسانية، انظر أيضا قوله : «النمو الأدبى لا يختلف فى سيره عن النمو المادى»، «المرأة الجديدة»، ص ٧٨.

(٣٠) «المرأة الجديدة»، ص ١٨٣ - ١٨٤.

(٣١) نفسه، ص ١٨٣.

(٣٢) «أسباب»، ص ١٨.

(٣٣) «تحرير المرأة»، ص ٢.

(٣٤) نفسه، ص ٧.

(٣٥) نفس المكان.

(٣٦) «تحرير المرأة»، ص ٨.

(٣٧) «المرأة الجديدة»، ص ١٨٣.

(٣٨) «تحرير المرأة» ص ٧.

(٣٩) «أسباب»، ص ١٨.

(٤٠) نفس المكان.

(٤١) «أسباب»، ص ١٩.

(٤٢) «المرأة الجديدة»، ص ١٦١. وقارن : «كان حب الذات هو القانون الوحيد» فى حالة الفطرة الأولى، «أسباب»، ص ٥٥، وراجع «المصريون»، ص ٢٩٢.

(٤٣) «المرأة الجديدة»، ص ١٠٠.

(٤٤) نفسه، ص ١٥٤.

(٤٥) «أسباب»، ص ٢٧، «تحرير المرأة»، ص ٣.

(٤٦) راجع «أسباب»، ص ٥ - ٥٦، و «المرأة الجديدة»، ص ٨٢، وراجع كذلك تعبير «الجسم الاجتماعى» (هامش ٢٦)، وهو يقصد من «الجامعة» المجتمع («أسباب»، ص ٤٦ - ٥٤). قارن بوجه عام دراستنا عند «الأمة والوطن والمواطن عند رفاعة الطهطاوى وخير الدين التونسى»، المنشورة فى كتابنا: «فى الفكر المصرى الحديث»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥، ص ٥ - ٣٢.

(٤٧) قاسم أمين شديد الانتباه فى العادة إلى السؤال عن الأصل والسبب والعلة والطبيعة. انظر مثلا: «أما أصل هذا الانجذاب وطبيعته وسببه، فهو أمر لا يزال غامضا كأصول كل الأشياء تقريبا» («تحرير المرأة»، ص٢٨).

(٤٨) «أسباب»، ص ٥٨ - ٥٩.

(٤٩) نفسه، ص ٥٨.

(٥٠) نفسه، ص ٥٦، وقارن «تحرير المرأة»، ص ٦٠.

(٥١) قارن «المرأة الجديدة»، ص ٣٦ - ٣٨، وفى ص ١٩٨ يجعل الاجتماع مرادفا للتضامن، ويرى فى ص ١٩٥ أن الفضائل الاجتماعية هى الركن الأقوى لبناء الأمم.

(٥٢) يقول مرة «الفرد من الأهالى»، «أسباب»، ص ٥٨.

(٥٣) تظهر هذه النظرة الأساسية فى تقسيمه لأنواع الأعمال الإنسانية، «المرأة الجديدة»، ص ٨٢. وراجع «أسباب»، ص ٥٦.

(٥٤) يدرك قاسم أمين وجود الطبقات، بالمعنى المقارب للمعنى الماركسى، فى أوربا (راجع فصل «المجتمع» فى «المصريون»). ولكنه حين يتحدث عن مصر، فإنه يقصد من «طبقات الأمة» («تحرير المرأة»، ص ١٦١) مستوياتها الاجتماعية المختلفة أو فئاتها. وقارن نفس المرجع، ص ٨٩، حين يتحدث عن «الطبقة الوسطى» فى الغرب.

(٥٥) راجع «أسباب»، ص ٥٦، ٥٨، والفصل الخامس من «المصريون»: «الحكومة».

(٥٦) راجع مثلا، «أسباب»، ص ٥٨ - ٥٩.

(٥٧) «تحرير المرأة»، ص ٩٣.

(٥٨) «أسباب»، ص ٤٦.

(٥٩) نفسه، ص ٥٥.

(٦٠) «تحرير المرأة»، ص ٣. الترابطات الاجتماعية بأنواعها هى التى تجعل الأفراد المكونين للأمة يجتمعون على «قلب رجل واحد» («أسباب»، ص ٥٨).

(٦١) «تحرير المرأة»، ص ١٦١.

(٦٢) نفسه، ص ٩١.

(٦٣) «المرأة الجديدة»، ص ٣٨.

(٦٤) نفسه، ص ١٠٠.

(٦٥) «أسباب»، ص ٤٠ ، ٥٦.

(٦٦) نفسه، ٤١.

(٦٧) نفسه، ص ٥٨.

(٦٨) نفسه، ص ٥٦، وراجع كذلك ص ٢٥.

(٦٩) نفسه، ص ٥٥ – ٥٩.

(٧٠) نفسه، ص ٥٩.

(٧١) «المرأة الجديدة»، ص ١٩٨.

(٧٢) «أسباب»، ص ٦٣.

(٧٣) «المرأة الجديدة»، ص ٥٠.

(٧٤) راجع «كلمات»، ص ٢٦، ٣٤.

(٧٥) «أسباب»، ص ١٩، وفى ص ١٨ يظهر «الحال» بمعنى «الحاضر».

(٧٦) «المرأة الجديدة»، ص ٢١٠، ١٨٢.

(٧٧) انظر «المصريون»، ص ٦، ٤٣، فيه تظهر كلمة situation ص ٢٨٩ – ٢٩٠، وراجع بوجه عام «تحرير المرأة»، ص ١٠، ١١٠، و «المرأة الجديدة»، ص ١٧٧، ١٨٣، ٢١٠ على سبيل الأمثلة. وهو يقول فى تعريف «الحالة الاجتماعية»: «العلوم والفنون والصنائع والآداب والعادات، التى يكون مجموعها الحالة الاجتماعية» («المرأة الجديدة»، ص ١٨٢).

(٧٨) يستخدم الجمع «ظواهر» فى نفس المرجع، ص ١٧٥: «ولكن كثيرا من ظواهر هذا التمدن (الإسلامى) لا يمكن أن يدخل فى نظام معيشتنا الاجتماعية الحالية»، ولكنه يستخدم نفس الكلمة «ظواهر» بالمعنى العادى فى نفس النص: «يدرس التمدن الإسلامى

ويقف على ظواهره وخفاياه» ص١٧٥.

(٧٩) راجع «المرأة الجديدة»، ص ٥٠، ٨٠، ٢٠١ على التوالى ، وكذلك «أسباب»، ص ١٩.

(٨٠) وهى اصطلاح فى علم الاجتماع الفرنسى، وتظهر فى تعبير Rcience ce moeurs ، الذى استخدمه «دوركايم» العالم الفرنسى الشهير. راجع كلمة uoeges، ص ٣٢.

(٨١) راجع فيه، مثلا، ص ٦، ٤٧.

(٨٢) «المرأة الجديدة»، ص ٥٠.

(٨٣) «تحرير المرأة»، ص ٤٣، ٧ - ٨.

(٨٤) نفسه، ص ٦٥ - ٩٦.

(٨٥) نفسه، ص ٨٣.

(٨٦) نفسه، ص ٧، ١٥٤.

(٨٧) نفسه، ص ١٥٤.

(٨٨) نفسه، ص ٧ - ٨، وراجع فيه بوجه عام ص ٨ - ٩، ١١، ٣١، ٤٣، ٦٥، ٨٣، ٩٥، ٩٨، ١٥٣ - ١٥٤.

(٨٩) راجع نفس المرجع، ص ١٥٣ مثلا، وص ٧.

(٩٠) نفسه، ص ١٦.

(٩١) نفسه، ص ٩.

(٩٢) «المصريون»، ص ٢٩٠.

(٩٣) «أسباب»، ٤٨.

(٩٤) «المرأة الجديدة»، ص ١٧٠ - ١٨٣.

(٩٥) نفسه، ص ١٨٨ - ١٨٩، ٢٠٣.

(٩٦) «أسباب»، ص ٤٨، «تحرير المرأة»، ص ٩.

(٩٧) «المرأة الجديدة»، ص ١٧٥ - ١٧٨.

(٩٨) نفسه، ص ١٩٦.

(٩٩) نفسه، ص ١٨٢.

(١٠٠) نفسه، ص ٣٦.

(١٠١) «أسباب»، ص ١٩.

(١٠٢) «تحرير المرأة»، ص ٤.

(١٠٣) نفسه، ص ١٦.

(١٠٤) نفسه، ص ١٩.

(١٠٥) «المصريون»، ص ٣١ – ٣٢.

(١٠٦) نفسه، ص ٣١.

(١٠٧) نفسه، ص ٣١ – ٣٤.

(١٠٨) راجع مثلا «تحرير المرأة»، ص ٣٥، ٧٤ – ٧٥، إلى جوار العديد من الصفحات الأخرى فى هذا الكتاب وفى بقية كتب قاسم أمين.

(١٠٩) «أسباب»، ص ٢٠.

(١١٠) «تحرير المرأة»، ص ٩١.

(١١١) «المرأة الجديدة»، ص ٣٣.

(١١٢) نفسه، ص ٦.

(١١٣) «أسباب»، ص ٦٤.

(١١٤) نفسه، ص ٥٦.

(١١٥) نفس المكان.

(١١٦) قارن «أعضاء المجتمع»، «تحرير المرأة»، ص ٩١، مع «كل عضو من الأمة»، «أسباب»، ص ٥٦.

(١١٧) «المصريون»، ص ٤٢.

(١١٨) «المرأة الجديدة»، ص ١٩٤.

(١١٩) نفسه، ص ١٩٤ – ١٩٥. وراجع «تحرير المرأة» ص ٢٦: «أخر طبقة من نساء الأمة...»، «الطبقة العليا والوسطى».

(١٢٠) «أسباب»، ص ١٢٠.

(١٢١) «المصريون»، ص ٣٨ – ٣٩.

(١٢٢) نفسه، ص ٣٨.

(١٢٣) نفسه، ص ٣٧.

(١٢٤) نفسه، ص ٣٧ – ٣٨.

(١٢٥) نفسه، ص ٣٨.

(١٢٦) نفسه، ص ٤٠ – ٤١.

(١٢٧) نفسه، ص ٤١.

(١٢٨) نفسه، ص ٤١ – ٤٢.

(١٢٩) «أسباب»، ص ٢٦.

(١٣٠) «تحرير المرأة»، ص ٦ – ٧.

(١٣١) نفسه، ص ٦.

(١٣٢) نفسه، ص ٦ – ٧.

(١٣٣) نفسه، ص ٧.

(١٣٤) انظر «تحرير المرأة»، ص ٢، ٦ – ٧ ، وغير ذلك.

(١٣٥) انظر حول هذا الأمر «تحرير المرأة»، ص ٨ – ٩.

(١٣٦) «المرأة الجديدة»، ص ١٨٤.

(١٣٧) «أسباب»، ص ٤٨.

(١٣٨) «تحرير المرأة»، ص ٣.

(١٣٩) «أسباب»، ص ١٨.

(١٤٠) «تحرير المرأة»، ص ١٥٣.

(١٤١) نفسه، ص ١٦٠.

(١٤٢) نفسه، ص ١٥٩. وحول مثال فرعي، «المصريون»، ص ٢٤٨.

(١٤٣) «تحرير المرأة»، ص ٧.

(١٤٤) «أسباب»، ص ٤٨.

(١٤٥) نفس المكان.

(١٤٦) «تحرير المرأة»، ص ٧.

(١٤٧) «المرأة الجديدة»، ص ٣٣ – ٣٤.

(١٤٨) راجع «تحرير المرأة»، ص ٢، «المرأة الجديدة»، ص ١٥٥.

(١٤٩) «تحرير المرأة»، ص ٥٦.

(١٥٠) «المرأة الجديدة»، ص ٣٦، ١٥٥، ١٧٥.

(١٥١) «أسباب»، ص ٤٨، «المرأة الجديدة»، ص ٣٢، «تحرير المرأة»، ص ٣.

(١٥٢) «المرأة الجديدة»، ص ١١، ١٧٥، وغير ذلك.

(١٥٣) نفسه، ص ٩١ – ٩٢.

(١٥٤) «تحرير المرأة»، ص ٨.

(١٥٥) نفسه، ص ٣. ونعرف أن «الحادثة الاجتماعية» نفسها مركبة، «أسباب»، ص ١٨.

(١٥٦) «المرأة الجديدة»، ص ٨٢، على سبيل المثال.

(١٥٧) «أسباب»، ٥٧.

(١٥٨) «تحرير المرأة»، ص ٦.

(١٥٩) راجع على الترتيب: «تحرير المرأة»، ص ٥٦، ٧، «المرأة الجديدة»، ص ٢٢٠.

(١٦٠) حول «الفطرة»: «أسباب»، ص ٢٦، «المرأة الجديدة»، ص ٧٨، ٨٥، ٩٥، وحول «قانون الفطرة»: المرجع الأخير، ص ٩٤.

(١٦١) «تحرير المرأة»، ص ٧.

(١٦٢) «أسباب»، ص ١٨.

(١٦٣) «المرأة الجديدة»، ص ١٩٠، وقارن «مقتضيات الاجتماع»، فى «تحرير المرأة»، ص ٥٦.

(١٦٤) «أسباب»، ص ١٨.

(١٦٥) «تحرير المرأة»، ص ٧.

(١٦٦) «المرأة الجديدة»، ص ١٥٤، وقارن كذلك ص ١٦١. حول «ثبات السنن واستمرارها»، وهو ما يسمى فى اللغة الاصطلاحية الحالية مبدأ «الاطراد»، «تحرير المرأة»، ص ٣٧.

(١٦٧) «تحرير المرأة»، ص ١٤، ١٠، وراجع «المرأة الجديدة»، ص ٧٨.

(١٦٨) راجع «أسباب»، ص ١٨، و «المرأة الجديدة»، ص ٧٨: «تلك سنة الفطرة، فلا يجوز لنا أن نتخيل أن فى امكاننا الخلاص منها ولا الفرار من قيودها». راجع كذلك كلمة fa-talement «بالجبر» فى «المصريون»، ص ٥.

(١٦٩) «المرأة الجديدة»، ص ١٦١.

(١٧٠) قارن : «القول بلزوم بقائها (أى المرأة) على حال واحدة لا تتغير ولا تتبدل هو خروج بها عن القوانين الطبيعية التى قضت بغير حالها فى الماضى»، «المرأة الجديدة»، ص ٣٣ – ٣٤.

(١٧١) نفسه، ص ١٥٤.

(١٧٢) راجع فى هذا الفصل: ثالثا: «علمية دراسة المجتمع»، جـ – التغير الاجتماعى.

(١٧٣) راجع فى الفصل الثانى من هذا الكتاب، «ثانيا – بعض المفاهيم الرئيسية».

(١٧٤) «تحرير المرأة»، ص ٤٨.

(١٧٥) «المصريون»، ص ٢٦.

(١٧٦) «تحرير المرأة»، ص ٥٦.

(١٧٧) «المرأة الجديدة»، ص ٣٣.

(١٧٨) نفسه، ص ٧٨. ويقول أيضا: «اقتضت سنة التدريج»، ص ٤٩.

(١٧٩) نفسه، ص ٧٨.

(١٨٠) «أسباب»، ص ٤٧. وحول رفض «الانقلاب الفجائى»، «تحرير المرأة»، ص ٩٢.

(١٨١) «المرأة الجديدة»، ص ٨٢.

(١٨٢) «تحرير المرأة»، ص ٩٤ - ٩٥.

(١٨٣) «المرأة الجديدة»، ص ٢٢٠. ويلاحظ أن قاسم أمين لا يتحدث وحسب عن الوراثة الحيوية («تحرير المرأة»، ص ٣٧)، بل وكذلك عن الوراثة الاجتماعية («أسباب»، ص ٤٧) (قارن مذهب هربرت اسبنسر). وربما نلمح فكرة «الهندسة الوراثية» فى «المرأة الجديدة»، ص ٤٢.

(١٨٤) «المرأة الجديدة»، ص ٢١٩.

(١٨٥) «تحرير المرأة»، ص ٣٧.

(١٨٦) «أسباب»، ص ٤٧.

(١٨٧) «المرأة الجديدة»، ص ١٦.

(١٨٨) «تحرير المرأة»، ص ١٤.

(١٨٩) «المرأة الجديدة»، ص ١٧.

(١٩٠) نفسه، ص ٨٢، ونلاحظ أنه يردف بهذا على الفور تقرير «قانون التزاحم فى الحياة»، راجع كذلك «تحرير المرأة»، ص ٩١.

(١٩١) راجع «المصريون»، ص ٢٨٧: «لقد قمت بملاحظة سلوك مواطنيَّ المصريين طويلا، وإننى لأقدر من الأجنبى على دراستهم وعلى معرفتهم، وأعتقد أننى قد توصلت إلى ادراك سر نفوسهم».

(١٩٢) «أسباب»، ص ١٨.

(١٩٣) «المرأة الجديدة»، ص ٣٣.

(١٩٤) نفسه، ص ١٧٠ - ١٨٣.

(١٩٥) انظر خاصة شتى فصول «المرأة الجديدة».

(١٩٦) راجع مثلا، ص ٦، ٤ - ٤٢، ٤ - ٥٣، ٥٦ - ٦٢، ٦٧ - ٧٢... وغيرها على امتداد الكتاب.

(١٩٧)مثلا «المصريون»، ص ٣١.

(١٩٨) «تحرير المرأة»، ص ٥٦، وراجع كذلك ص ١٩.

(١٩٩) نفسه، ص ٤٣.

(٢٠٠) «المصريون»، ص ١٤ - ١٦.

(٢٠١) نفسه، ص ١٩٩ - ٢٠٢.

(٢٠٢) «تحرير المرأة»، ص ١٤١ - ١٤٢.

(٢٠٣) نفسه، ص ١٤٢ - ١٤.

(٢٠٤) نفسه، ص ٧٧ - ٧٩ - وراجع أيضا ص ٧٤ - ٧٥.

(٢٠٥) «المرأة الجديدة»، ص ١٥٧ - ١٥٨.

(٢٠٦) «تحرير المرأة»، ص ٢٧، وراجع ص ٣٥.

(٢٠٧) «المرأة الجديدة»، ص ٩٠ - ٩٣.

(٢٠٨) نفسه، ص ٩٥ - ٩٧.

(٢٠٩) نفسه، ص ٩٩.

(٢١٠) نفسه، ص ١٠١ - ١٠٢.

(٢١١) «المصريون»، ص ٣١ - ٣٤.

الفصل الرابع
بداية حساسية جديدة

نقترح فى هذا المبحث استخدام مفهوم جديد فى دراسة تاريخ الفكر من جهة، وتاريخ التطور الثقافى والمقارنة الثقافية من جهة أخرى، ألا وهو مفهوم «الحساسية». ذلك أننا نرى أن لكل ثقافة وحضارة، ولكل أمة، ولكل عصر من عصور كل ثقافة، وربما كذلك لكل «جيل» من أجيال الأمة، «حساسية» خاصة يتميز بها وتميزه عن أشباهه فضلا عن أضداده، وكذل الحال مع تكوينات أخرى من مناطق جغرافية اجتماعية إلى شرائح سكانية وفئوية إلى الأفراد أخيراً. وظاهر من اسم «الحساسية» أنها تشير فى المحل الأول إلى امكانية خاصة للتأثر المتميز بالايجاب والسلب. ونقصد بها، على المستوى الاصطلاحى، ما يلى: أنها تكوين إدراكى وتوجيهى ينشأ عن التجمع المتجانس غالبا من مجموعة من الصفات الوجدانية، ذات الأصل العقلى أو العاطفى على السواء، والتى قد تكتسب من

خلال البيئة أو بالانتقاء الإرادى أو شبه الإرادى على السواء، والتى تظهر على هيئة اتجاهات وميول، شعورية أحيانا أو تحت شعورية، تفعل فعلها قصدا أحيانا أو تلقائيا على ما يظهر أحيانا أخرى، وهى توجه اهتمامات الشخص، أو الكيان الجمعى بمستوياته المختلفة من الفئة إلى الأمة، وتفضيلاته واختياراته وردود أفعاله بإزاء موقف ما (وذلك فضلا عن، وإلى جانب، عوامل أخرى توجه ردود الافعال، من مثل الإدراك الموضوعى لعناصر الموقف، والاعتبارات العقلية الصرفة أو تلك الارادية الصرفة)، وهى تساهم فى توجيه الفكر والإرادة والعواطف والسلوك جميعا، توجيها قد لا يكون ملموسا مباشرة ولا حتى مشعورا به عند الشخص نفسه أو الفئة أو الجماعة، بل قد يكون خفيا، وذلك بسبب التصاق تلك المجموعة من الصفات بسمات الشخصية العامة. وقد يكون تكوين الحساسية عاما، أى للفرد بصفة عامة أو للفئة أو للعصر أو للجيل أو للأمة، وقد يكون مخصوصا بجانب معين، فتكون هناك حساسية عقلية أو أخلاقية أو دينية أو جنسية أو فنية أو غير ذلك. وليس المجال مجال التفصيل فى هذا التعريف، وإنما نضرب أمثلة وحسب من تاريخ مصر القديم والحديث ومن الغرب: فهناك مثلا حساسية الثقافة المصرية عامة فى عصر الاضطراب الأول (من الأسرة

السادسة إلى العاشرة)، وحساسية فن النحت فى الأسرة الثانية عشرة، والحساسية العسكرية والسياسية بإزاء فلسطين والشام فى الدولة الحديثة عموما، وحساسية عصر أخناتون بوجه عام، والحساسية المصرية فى عصر محاولة الوثبة ١٨٧٨ - ١٨٨٢م، والحساسية الدينية أبان ثورة ١٩١٩، وحساسية خريجى دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعى منذ انشائهما إلى عام ١٩١٤م، وحساسية «أولاد الذوات» فى عصر ١٩٢٣ - ١٩٥٢م، ومن الغرب: حساسية عصر السفسطائيين عندإليونان، وحساسية عصر النهضة الاوربية أو ما يسمى باسم il Quatrocento، والحساسية الفنية فى عصر «الروكوكو» فى غرب أوربا عامة، وحساسية العصر الفكتورى فى بريطانيا، وحساسية «العصر الجميل» la Belle Epoque فى فرنسا، إلى غير ذلك.

هذه المقدمة تهدف إلى تبرير حديثنا الآن عن قاسم أمين باعتباره مؤسس «حساسية» جديدة فى الثقافة المصرية الحديثة. ونود أن نشير، من بين عناصر هذه الحساسية، التى كانت ثورية فى عصر قاسم أمين، إلى ما يلى على الخصوص : العقلانية، المنهجية، الدنيوية، إعلاء قيمة العمل، الحس التاريخى، التوجه المدنى والوطنى، والاهتمام بالجماليات، الاهتمام بالجانب الوجدانى

فى الإنسان. وهناك عناصر أخرى ذات أهمية، ومنها التأكيد على القيمة الذاتية للفرد الإنسانى، ولكننا سنعالج هذا العنصر الأخير فى فصل قادم، فضلا عن أن العناصر السابقة ذاتها إما أشرنا إلى بعض جوانبها فى الفصل المخصص «للنظرة العلمية»، وإما سندلل عليها بالتفصيل فى بحوث قادمة. لهذا كله، فإن عرضنا الحالى سيكون عرضا هيكليا أكثر من كونه استيفاء شاملا، فيهمنا هنا، فى المقام الأكبر، تجميع عدد من الأفكار الجوهرية بشأن كل عنصر من عناصر هذه الحساسية الجديدة، وهدفنا التدليل على الأهمية التأسيسية لتوجهات قاسم أمين وعلى خصب أفكاره خصبا يجعلها قابلة لإعادة الاستخدام والفهم من زوايا عديدة، ولكنها متداخلة ومتكاملة.

١ - العقلانية :

قد لا يكون قاسم أمين هو رائد العقلانية الأول فى مصر الحديثة، لأن هذه المكانة تعود إلى رفاعة الطهطاوى بغير منازع، ولكن قاسم أمين هو، بغير شك، داعيتها الأعظم تأثيرا، وهو بالتأكيد مصدر هذه السمة المباشر لعصر السيطرة الليبرالية ١٩٢٣ - ١٩٥٢، بخاصة، ولنا بعد هذا العصر إلى اليوم. ولكلمة

«العقلانية» تعريفات كثيرة، قد تتعدد بعدد الكُتَّاب وعدد السياقات التى ترد فيها، ولكننا نقصد بها، ونحن فى معرض نسبتها إلى قاسم أمين، عنصراً من عناصر الحساسية الجديدة التى نشرتها كتاباته أو ساعدت كثيرا على نشرها، نقصد بها فى المحل الأول الإيمان بالعقل، وذلك فى مقابل الايمان بمصادر أخرى يرجع إليها كسلطة حاسمة موجهة. ونقصد بها ثانيا، الاتجاه إلى استخدام العقل وعملياته لفهم الأمور وللسلوك على أساسه ولحل المشكلات التى تواجه الإنسان والأمم. ومن الواضح، فى هذين الاستخدامين؛ أننا لسنا بإزاء مفهوم فلسفى احترافى، بل بإزاء تصور يضعه الرجل المفكر من حيث هو فاعل فى الجماعة وجزء من الكون بوجه عام.

وأول ما نجد، عند قاسم أمين، من معالم هذه العقلانية هو الإشارة بالعقل بطبيعة الحال. ومحض الكلمة كثير الورود فى كتابات قاسم أمين. ومنذ أول صفحات «تحرير المرأة»، نرى العقل معياراً لارتفاع الأمم وانحطاطها[١]، ونراه أحد كفتى ميزان، والأخرى هى «الشرع»، وبهما معا تقاس الأمور ويفرز الصالح من غيره[٢]. ويشير قاسم أمين إلى ما يراه ضد العقل إنه «الوهم» و«الأوهام والظنون والخرافات»[٣]. ويشير أيضا إلى ما يدور مع

العقل فى فلك واحد: إنها الحقيقة والحق والعلم، وكثيرة هى النصوص التى يجمع فيها بين العقل وأحد هذه الأطراف[٤]. ومن الطبيعى أن يدعو قاسم أمين إلى جعل التربية العقلية فى مركز النشاط التربوى والتعليمى، للفتى والفتاة على حد سواء[٥]، بحيث تصبح «ترقية العقول» هدفا عاما للمجتمع[٦]. أليست «قوة العقل والعلم... هى أساس كل قوة سواها؟»[٧].

ومن يقول بالعقلانية، وقد كان قاسم أمين تجسيداً حياً لها ، يتوجب عليه القول ببعض المواقف وقبول بعض النتائج. ومن تلك المواقف: الموضوعية[٨]، والنزاهة[٩]، والحرص على إدراك الأمور إدراكا واضحاً ومن أمام وبلا مواربة[١٠]. ومن نتائج الأخذ بالعقلانية الاتجاه الواقعى[١١]، وسلوك سبيل الصراحة ولو كانت قاسية[١٢]، والاتجاه نحو ما يمكن تسميته «بكسر الشرنقة» التى تنسجها أوهام الغفلة والرضا بالحاصل من الأحوال[١٣]، وكذلك الاتجاه نحو ما يمكن أن نسميه «نزع التقديس الزائف» عن تنظيمات أو عوائد أو غيرها[١٤]، وربما أدت العقلانية كذلك إلى تشجيع النزعة الابتكارية، حتى لو ظهر فى أعين أهل الجمود أنها تأتى «ببدع»[١٥]. وإذا كان قاسم أمين قد انتقد أوضاع العقل العلمى فى رؤوس «علماء» العصر[١٦]، فإنه من جهة، قد نبه إلى

قواعد البحث العلمى الجديد فى مصر، حيث تتمثل هذه القواعد فى عدد من أبناء مصر يرعوا فى كثير من التخصصات الهامة[١٧]، كما رأى ، من جهة أخرى، أن الدين الإسلامى ذاته دين عقلانى، وحاول تفسير المأثور عن الرسول عليه السلام فى نفس الاتجاه[١٨].

٢ - المنهجية والتنظيم :

عرضنا من قبل لأهم جوانب الأفكار المنهجية عند قاسم أمين، فلن نعود إلى الحديث عنها ثانية، ولكن ينبغى أن نثبت هنا أن زرع الروح المنهجية، أو قل التوجه نحو تنظيم البحث الفكرى فى أى مسألة من المسائل، نظرية كانت أم علمية، كان من أهم ما يهدف إليه قاسم أمين، إن مباشرة[١٩]، وإن على سبيل التناول السليم الذى يكوِّن تجسيداً للروح المنهجية المنظمة، وهو ما نجد له العديد من الأمثلة فى كتب قاسم أمين، وبدءا من «المصريون» بالذات، وفى مقالاته وخواطره. ولا نضيف إلا أن الأخذ بالروح المنهجية، وبجوانب أخرى من عناصر الحساسية الجديدة التى نعرض لها فى هذه السطور، يؤدى إلى إبراز سمات عقلية ووجدانية، من مثل الاتجاه نحو الوضوح، وعدم النكوص عن المواجهة المباشرة، والشجاعة بل والجسارة، وعدم التردد فى إدراك الاختلاف بين

الأمور والأحوال والمواقف، وإثباته، أى هذا الاختلاف، حتى ولو كان مؤلما ذلك الإثبات، كما أن هناك أخيراً، وليس آخرا، التعود على خطو «النفس الطويل» بما يحمله معه من مثابرة وإصرار وقدر من التفاؤل، ناتج عن الإحساس بأن الأمر قد درس على أفضل وجه وبدء فيه من حيث ينبغى الابتداء.

٣ - الاهتمام بهذا العالم، أو «الدنيوية»:

لا تحتوى كتابات قاسم أمين على تعبير «الدنيوية» المشار إليه[٢٠]، ولكنها تحتوى على التأكيد على إشارات ومواقف تدل على محتواه، الذى هو الاهتمام بهذا العالم فى المحل الأول، بهذه الدنيا التى نعيش فيها، فى مقابل الإعراض عنها وعدم القيام بالواجبات الضرورية لتحسين أوضاع العيش فيها. ولعل أهم اتجاه نجده فى فكر قاسم أمين، فى هذا الصدد، هو تأكيده المستمر على مقابلة الوقائع والأفعال بالكلمات والألفاظ، والدعوة إلى الاهتمام كل الاهتمام بالأولى لا بالثانية: «لنترك هذه النظريات الخيالية التى لا قيمة لها أمام الوقائع»[٢١]، «ظن هؤلاء المساكين أنهم متى عرفوا كيف تستقيم العبارات، وكيف تعذب الألفاظ بالإعراب والصرف عرفوا ما فى الدين والدنيا، والبعد بينهم وبين الدين الحقيقى

عظيم»[٢٢]. إن قاسم أمين يدعو المصريين، والناشئة الجديدة بوجه خاص، إلى «اختبار العالم»، ليتعلموا علما هو أنفس مما تعلمه المدارس، «وهوعلم الحياة»[٢٣]، الذى يصل بينهم «وبين العالم الحى، وهو عالم الفكر والحركة والعمل»[٢٤]، منبها إلى أن ذلك لا يتم بقراءة الكتب، بل بالمشاهدة والمخالطة وتجربة الناس والحوادث»[٢٥]، ويتفق مع كل هذا الدعوة إلى الإقبال على المخاطرة الشريفة[٢٦]. ثم هناك الدعوة إلى الانتباه إلى عامل الزمن فى حياة الإنسان، وهو ما يمكن أن نسميه بتنمية الحس الزمنى إدراكا وتقييما معا، فقاسم أمين، على سبيل المثال، ينبه المعلمين إلى تنويع مادة التعليم بحسب سن الصبى والصبية[٢٧]، وهو منتبه إلى ظواهر النمو بوجه عام[٢٨]، وسنرى من بعد بروز الحس التاريخى عنده. وليس من المصادفة أن نجد قاسم أمين يأخذ بتوجه «النفس الطويل»، الذى سبق وأشرنا إليه، لأنه يدرك أن مسائل الاجتماع والأخلاق والتربية لا تتغير بين يوم وليلة، فيقول: «يرى المطلع على ما أكتبه أنى لست ممن يطمع فى تحقيق آماله فى وقت قريب»[٢٩]، ويصارح قارئه فى مقدمة «المرأة الجديدة»: «إنما نكتب لأهل العلم، وعلى الخصوص للناشئة الحديثة التى هى مستودع أمانينا فى المستقبل»[٣٠]. وهنا نلاحظ أن مفهوم «البذور»، التى تغرس ولا تنتج

نتاجا إلا بعد وقت طويل، يُلح على ذهن قاسم أمين ويتكرر ذكره على قلمه[٣٠].

ويتصل بعنصر الدنيوية في الحساسية المقترحة الجديدة، بعد مجموعات التوجهات الدائرة حول «اختبار العالم» وحول «الحس الزمنى»، فكرة أن العالم قائم أمام الإنسان ليتمتع به، فكأن «التمتع» بالعالم جانب جوهرى من جوانب نشاط الإنسان فى الحياة عند قاسم أمين[٣٢]، ونلاحظ أن الكلمة ترد مرات عديدة فى كتاباته. يقول مثلا : «خلق الله هذا العالم، ومكن فيه النوع الإنسانى، ليتمتع من منافعه بما تسمح له قواه فى الوصول إليه، ووضع للتصرف فيه حدودا تتبعها حقوق... وجعل متاع الحياة مشتركا بين الصنفين (المرأة والرجل)، شائعا تحت سلطة قواهما بلا تمييز»[٣٣]. ومن نافلة القول إنه يعيد تقييم مفهوم «التمتع بالنساء» على نحو متبادل وعاطفى وعقلى معاً، مؤكداً على ما يسميه «الناحية المعنوية» فى الزواج[٣٤].

ثم هناك ذلك الاعتبار الجوهرى فى كل نزعة نحو الاهتمام بهذا العالم: إنه الانتباه إلى المصالح والمنافع، والتنبيه إلى قيمة الثروة بعامة، والمال بخاصة. إن المصالح هى معيار الصالح من العوائد والأخلاق[٣٥]، والمنفعة العامة هى معيار سلامة الآراء والأفكار[٣٦]،

وفى مقابل هذا فإن: «من رأى علمائناإليوم أن الاشتغال بشئون العالم والعلوم العقلية والمصالح الدنيوية شيء لا يعنيهم... ويرون أن ليس للإنسان أن يعمل لمصلحة نفسه»[٣٧]. إن على شتى الطوائف «أن يزيدوا فى أعمالهم، فيزيدوا فى جنى ثمراتها. وليس الغرض من تحسين الحال على هذه الطريقة أن يجمع الإنسان المال حبا فى المال، بل المراد أن يكون عند كل واحد طموح شريف إلى العلاء. ولا يكون له ذلك إلا إذا سعى فى استزادة موارد كسبه ليتسنى له أن يحسن غذاءه وملبسه ومسكنه... وأن يأتى من الأفعال النافعة لهيئة المجتمع ما يغبطه غيره على فعله»[٣٨]. إن مغزى هذا كله هو الدعوة إلى الأخذ بسبيل «التزاحم فى الحياة»، أى الصراع من أجل الحياة، «تلك الحال الشريفة»، و«القتال» و«الكفاح» فى سبيل البقاء والسيادة والتفوق[٣٩].

أخيرا، وليس آخراً، فإن عاملاً جديداً، فى التوجه نحو الاهتمام بالعالم، يقوم فى إعادة تقييم الجسم الإنسانى وإعطائه ما هو جدير به من التكريم أولاً ومن الرعاية ثانياً، وهو موضوع يمكن التفصيل فيه، وإن لم يكن هذا مكانه[٤٠].

٤ - قيمة العمل :

فى خاتمة «المرأة الجديدة»، يشير قاسم أمين إلى «الأفكار التى.. تهدى الأمةإلى طريق النجاح»، ولعله يقصد «القيم» الجديدة، وهاهو ينص فى أولها: «هذا يدعوإلى العمل والنشاط، وذاك إلى... الخ»[٤١]، فالعمل والنشاط قيمة جديدة يدعو إليها قاسم أمين. ولعل الدعوة إلى العمل هى محور مقالاته فى «أسباب نتائج»، التى ينعى فيها نكوص المصريين عن التنافس مع المتنافسين الغربيين، حتى أن أحد تلك المقالات له عنوان الحديث الشريف: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا»، وهو «أجزل وصية نطق بها الإنسان للإنسان»[٤٢]، كما أنه، فى إطار الدعوة إلى «الإقدام على الشغل والعمل»، يذكّر بالآية الكريمة: «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى»[٤٣]. وقد سبق أن رأيناه يصف العالم الحى بأنه عالم الفكر والحركة والعمل فى معرض دعوته إلى دفع الصبية، ابتداء من سن الثانية عشرة، إلى اختيار العالم والبحث فى الحياة والإقدام على المشاهدات والمخالطات، ويقول إن المتعلم فى هذه السن «يندفع إلى الأعمال اندفاع الماء إلى المنحدرات»[٤٤]. فالعمل إذن ليس مجرد قيمة أكيدة وحسب، بل كأنه ملازم للفطرة الإنسانية.

بل إن العمل، وربما كان قاسم أمين يقصد هنا ما نسميه «بالفعل»، هو أساس كبير لكل الحياة الإنسانية وهى بسبيل السلوك: «إن جميع أعمال الإنسان، مهما اختلفت وتنوعت، هى صادرة عن أصل واحد، وهو عمله وإحساسه»(٤٥)، وهو يقول ذلك فى معرض حديثه عن ضرورة دفع المرأة إلى معرفة العالم واختباره: «ظن المسلمون أن تمتع المرأة بحريتها، واشتغالها بما يهتم به الرجال، والتوسع فى تربيتها، يفضى إلى إهمالها فى القيام بما يجب عليها فى الشئون العائلية، فوضعوا بينها وبين العالم الخارجى حجابا تاما... ولكن انظر إلى النتيجة، تجد أنها خلاف ما قصدوه»(٤٦). أما النموذج الإيجابى فهو نموذج مزاولة الأعمال واختبار العالم والمرور بالتجارب والتعامل مع الناس، وهذه كلها «منابع للعلم والآداب الصحيحة»(٤٧).

و «العمل» عند قاسم أمين قد يدل على النشاط على إطلاقه، كما رأينا للتو، وقد يدل على الممارسة، كما فى قوله: «من البديهى أن كل ما تحصله من الكتب يعد من قبيل الخيالات، إن لم تمكنه التجربة ويؤكده العمل»(٤٨)، وقد يدل، أخيراً، على التخصيص، على ضد البطالة(٤٩)، وهنا قد يستخدم قاسم أمين كلمة «الشغل» لتدل على نفس المعنى(٥٠).

إن العمل عند قاسم أمين قيمة وفطرة، وهو أيضا هدف بذاته، أيا كان الميدان الذى يمارس فيه المرء نشاطه[٥١]، كما أن العمل لا ينبغى أن يكون لمجرد تحصيل ما يسد الرمق، إنما ترقية الأحوال تلازم محبة النشاط والإقبال على «الزيادة فى الأعمال»[٥٢]. ثم إن «الابتكارات الشخصية» لا تظهر إلا مع وجود «ملكة الإقدام على العمل والمخاطرة فى الشغل»[٥٣]. وربما كان قاسم أمين أول من أبرز مفهوم «النجاح»، وهو المفهوم العزيز على الفكر اللبرالى الغربى عامة والانجلوساكسونى خاصة، فى أفق الثقافة المصرية فى عصره. وتظهر الكلمة بين حين وآخر على قلمه، ومن ذلك مثلا قوله القوى: «إنى أكرر ما قلته من أنه يستحيل تحصيل رجال ناجحين، إن لم يكن لهم أمهات قادرات على أن يهيئهم للنجاح»[٥٤]. وهو يعتبر النجاح الوجه الآخر للتمدن، ويشبه أن يكون سبيلا للسعادة[٥٥]. أخيراً، فإن قاسم أمين لا يغفل لحظة واحدة، وخاصة فى «أسباب ونتائج»، عما يمكن أن نسميه بالقيمة الاجتماعية للعمل، أو على الأقل، عن الجانب الاجتماعى فى عمل: «إن أول شىء يجب على كل فرد من أفراد أى أمة أن يكد فى طريقة تضمن له معيشته، إن لم يكن بعمل يعود نفعه على الهيئة الاجتماعية، فعلى الأقل بعمل لا يعود منه ضرر عليها»[٥٦]. وقد

سبق أن مر علينا تنبيهه إلى أن أحد معايير «اختيار المنافع الشخصية» هو أن تكون موافقة لمصلحة المجتمع، «فيخدم الإنسان نفسه ويخدم الناس فى آن واحد»(٥٧).

٥ - الحس التاريخى :

ليس من اليسير تقديم تعريف حاسم لما نسميه هنا بالحس التاريخى، ولا حتى إثبات سائر متضمناته، وهو الحال فى كل ما هو «حساسية»، لأنه بطانة وجدانية أولاً، فهو ليس عقلا صرفا ولا معرفة ولا علما، حتى وإن كانت بعض مكوناته تعود إلى أسس عقلية ومعرفية. وربما كان من الأفضل أن نقابل ما بين الحس التاريخى والحالة المضادة، وهى نفى التاريخية عن الحياة الإنسانية ومنتجاتها ومضموناتها، أو على الأقل نبذ هذه الصفة أو الحط من أهميتها. ففى هذه الحالة المضادة نجد عدم الاهتمام بالزمان، بل نفيه نفيا من بعض الجهات، ورفض الاعتراف بالتغير، وإنكار وجود اختلاف بين الأعصر وبين الحضارات (ومن هذه الجهة الأخيرة فإن دعاة الأخذ بتوجهات الحضارة الغربية والقول بالعصر الواحد المزعوم هم «لاتاريخيين» بنفس صفة خصومهم «السلفيين»، ولكن لهذا حديثا آخر)، ورفض القول بأن منتجات البشر مرهونة

بأزمانها وعصورها ، فيقعون مثلا فى سذاجة توهم أن أبا حنيفة أو أبا حامد الغزالى فكرا لنا إلياليوم، أو أنه يمكن «إحياء» التراث، والقطع بسقوط القول بالنسبة الإنسانية، بما يؤدى إلى القول بأن هناك، مثلا أخلاقية خالدة دائمة أبد الدهر وقد شخصها أشخاص بعينهم فهم أسيادنا إلى أبد الآبدين، والنظر إلى الماضى، ليس على أنه ماض تولى، بل على أنه استمرار للحاضر من جهة السابق، وأخيراً وليس آخرا فإن الحس اللاتاريخى، إن امكن هذا التعبير، زو اللاحس بالتاريخ، يؤدى إلى عدم الاهتمام بالمستقبل، لأن المتوقع أن يكون المستقبل، كشأن الحاضر، على صورة النموذج الخالد الكامل الذى حدث مرة واحدة، ولكل العصور ، ولا مغير له ولا معدل ولا مكمل. هذه بعض من أهم مواقف نفى الصفة التاريخية عن أفعال البشر وأقوالهم وإحساساتهم وقيمهم. وصاحب الحس التاريخى القوى يقف فى الجهة المقابلة، فله بالزمن ومروره إحساس حاد، يدرك التغير ويتوقعه على الدوام، ويقول بنسبية الحياة الإنسانية وما يصدر عن الإنسان بعامة، ويعلق نظره فى المحل الأول على المستقبل، ولكنه لا ينفى أهمية الماضى مدركا أن الحاضر ابن الماضى. من هذه الجهات كلها ، كان قاسم أمين ذا حس تاريخى حاد ، وقد انطبع كثير من مواقفه بهذه الحساسية

الخاصة، ولا شك فى أنه واحد من أكبر من طبعوا الذهن المصرى الحديث بها، ومرة أخرى نشير إلى أن طه حسين يُعد، من هذه الزاوية، نموذجا لهذا الانطباع. (علينا أن نلاحظ أن الذهن المصرى الحديث متجه إلى الأخذ بهذا الحس التاريخى فى مجمله، منذ لحظة ميلاده المؤلمة، وبسببها، على ضربات مدافع بونابرت وإجراءاته وتنظيماته على السواء، كما أن جدنا العظيم رفاعة الطهطاوى نموذج لبروز الحساسية التاريخية على طريقته ولأسبابه).

ومن المشهود أن قاسم أمين ينظر إلى أوضاع المرأة، سواء فى إطار ما يسميه بالإنسانية وأدوار تطورها، أو فى إطار المجتمع المصرى المعاصر له، نظرة تاريخية تهتم بتتبع الأطوار وبإدراك الاختلاف(٥٨). وهو، فى كتاب «المصريون»، ينظر إلى أحوال مصر نظرة تاريخية دائما، ويهتم بإثبات ألوان التغير منذ عهد محمد على إلى عصره. وهو يدرك أهمية الزمان فى ميادين بعينها، فينتبه إلى عامل السن فى التربية(٥٩)، ويقرر أن تكوين الثروات الهائلة فى أوربا إنما يتم عبر أجيال(٦٠)، وهو يستخدم نفس النظرة عند تناول تكون العلوم الإسلامية فى عصر الازدهار(٦١). إلا أن أخطر مجالى الحس التاريخى عند قاسم أمين إنما يظهر، فى رأينا، فى موقفين:

الأول هو نظرته التاريخية إلى التمدن الإسلامى فى أكثر من جانب(٦٢)، فى مقابل النظرة التاريخية المأثورة والتى تجلت عند جمال الدين الأفغانى، وهو صاحب عقلية لا تاريخية هو الآخر، والثانى هو ميل قاسم أمين إلى اعتبار أن الأحوال الاجتماعية إنما تنتج فى التاريخ وليس «بالطبيعة»: «لاريب أن المرأةإليوم أحط من الرجل فى الجملة، ولكن علينا أن ننظر هل هذه الحال طبيعية لها أو ناشئة عن طرق تربيتها؟ تلك هى المسألة التى يلزمنا لحلها أن نرجع إلى الأصول العلمية لنعلم ما تقرر فيها»(٦٣). ونفس هذا الموقف، أى الميل إلى إنكار سيادة ما هو «بالطبيعة» والقول بسيادة ما يحدث فى الزمان، وهو من أهم العلامات الدالة على الحس التاريخى، يؤدى بقاسم أمين إلى إثبات هذا النص العظيم النافى للنموذجية المطلقة لبعض من أطوار التاريخ السابق: «أى زمن من الأزمان السابقة كان منزها عن العيوب حتى يصح أن يقال إنه نموذج الكمال البشرى؟ الكمال البشرى لا يجب أن نبحث عنه فى الماضى، بل إن أراد الله أن يمن به على عباده فلا يكون إلا فى المستقبل البعيد جدا»(٦٤).

٦ - التوجه المدنى والوطنى:

نجمع بين هذين الأمرين لارتباطهما القوى، ولأن مقابلهما واحد. ونقصد من تعبير «التوجه المدنى» اعتبار أن المصالح المشتركة والروابط ذات الطبيعة البشرية هى مركز العلاقات الاجتماعية، ولا يؤدى هذا التوجه المدنى إلى إنكار أهمية الدين، ولكنه ينظر إليه من حيث هو أحد عوامل الترابط الاجتماعى، بينما كانت النظرة السابقة تجعل الدين هو المركز المهيمن على سائر الأنشطة، ما يتصل منها بالدنيا وما يتصل بالشعور الدينى على حد سواء. وينتج عن التوجه المدنى، فى بعض الحالات، ومنها حالة مصر، اتجاه نحو تقدير خاص للجماعة البشرية التى ينتمى إليها الشخص أو اهتمام شديد بها على الأقل، وللوطن الذى تعيش في إطاره، إلى حد تمجيد مصر ذاتا حضارية ووطنا يعشق. والوطنية اكتشاف مصرى جديد، ولم يرفع علمها جماعيا إلا جيل ١٨٧٦ - ١٨٨٢م فى عصر محاولة الوثبة، وإن كان رفاعة الطهطاوى هو أول الوطنيين، ومعها تحول الاهتمام شيئا فشيئاً، من الأمة الإسلامية وحدها، إلى الأمة المصرية أساساً، مع أفكار الحركة العرابية، ثم إلى الأمة المصرية وحدها، إما مع الانتباه إلى علاقاتها القائمة مع الأمة الإسلامية بسبب التاريخ السابق المشترك، وهو حال قاسم

أمين، وإما مطلقا مع أحمد لطفى السيد ثم عصر ١٩١٩ - ١٩٥٨م. وهكذا فإن ما يقابل التوجه المدنى، فى ميدان فهم طبيعة مركز الحركة الاجتماعية، من جهة، والتوجه الوطنى، فى ميدان انتقاء الكيان الذى تتجه إليه بالانتماء ونواتجه، من جهة أخرى، المقابل فى الحالتين هو التوجه الدينى. وما من شك فى أن قاسم أمين هو المؤسس الكبير الثالث للتوجه المدنى فى مصر، على مستوى التنظير، بعد رفاعة وعبد الله النديم، وأنه من دعاة التوجه الوطنى الموضوعى الرئيسيين، وعلى غير شاكلة مصطفى كامل وأشياعه، وكان نفوذ هذا الأخير قد أخذ فى البروز فى وقت إنتاج أهم كتب قاسم أمين، ولكنه لن يتسيد الموقف الوطنى إلا من بعد ذلك وخاصة مع ظهور جريدة «اللواء» (عام).

إن «الأمة المصرية» هو التعبير الذى يقابل عند قاسم أمين ما نسميه هذه الأيام باسم «الشعب»، ولكن الأول أقوى بكثير من الثانى من حيث الإشارة إلى التجانس وإلى الوحدة، ولا عجب فإن «الأمة» من «الأم». وهو يتحدث دائما عن تلك الأمة المصرية من «المصريون» إلى «المرأة الجديدة»، وسواء كان حديثه عن الحضارة أو الاجتماع أو السياسة. من جهة أخرى، جهة الوطنية، فإن جهد قاسم أمين اتجه إلى بيان أسس الشعور الوطنى بيانا عقلانيا يقوم

على أساس المنافع والمصالح المشتركة[٦٥]، وبياناً موضوعياً بوجه عام: «إن أهم شيء يحفظ الأمم ويزيد في رفعة شأنها هو احترام جملة أمورها الجوهرية الأساسية، مثل الدين والوطن والسلطة العمومية والعائلة... ونحن معاشر المصريين، وياللأسف، لا نحترم وطننا ولا نعرفه، وكثيراً ما نتكلم عنه بالاستخفاف والاحتقار، ونحكم عليه كما نسمع من الأجانب الذين لا يمكن أن يعرفوه كوطن لهم بحال من الأحوال، وفاتنا أن كل عيب منسوب له (هو) في الحقيقة لنا، حتى أن كلمة «فلاح» التي كان الأتراك يستعملونها في مقام الذم، عندما كانوا يتكلمون عن كل ما هو مصري، اتخذها المصريون عنوانا على احتقار بعضهم بعضا»[٦٦]. ويتصور قاسم أمين الوطن تصويراً طريفا فريداً، لأنه ذو طابع حركي تفاعلي وتاريخي وليس كمجرد مكان ساكن، حين يقول: «والوطن هو الذي يمثل للذهن هذه السلسلة (من تتالي الأجيال) مرتبطا بعضها ببعض، ولسنا إلا حلقة فيها»[٦٧]. ومن المعروف أنه ينظر إلى مصر كوحدة سكانية متجانسة، بدون الاهتمام بالفروق الدينية[٦٨].

وينعى قاسم أمين على ابن خلدون عدم انتباهه إلى عنصر «العائلة» كأساس لكل هيئة اجتماعية[٦٩]، بينما يرى هو أنها «أساس الأمة»[٧٠]. والحق أن كليهما متسق في موقفه مع الإطار

الذى يدور فيه، فالإطار الدينى يهتم بالمعتقد، وهو شأن الفرد من حيث هو فرد، ولذا فإن كل بقاع الأرض حيث يؤذن المؤذن للصلاة هى للمسلم أوطان، أما الإطار المدنى عند قاسم أمين فإنه يجد أن الأسرة هى أول وحدة متكاملة وقادرة على الانتاج، وهى فى النهاية صورة مصغرة للأمة الكبيرة. وإذا كان الدين، عقيدة وشريعة، هو الذى يؤسس وحدة المجتمع الدينى، فإن المصالح المشتركة من أول عناصر تأسيس المجتمع المدنى؛ ومن هنا كان تأكيد قاسم أمين المتكرر، وخاصة فى «أسباب ونتائج»، على مفهوم «المصلحة العامة» أو «المصالح العمومية» التى هى «منافع الأوطان»[٧١].

إن قاسم أمين لا يعتبر «المؤمن» أو «المسلم» هو الوحدة الإنسانية الأساسية التى يتحدث عنها، بل هى الفرد ثم العائلة ثم الأمة. فهو لا ينظر بمنظار الدين أو الطائفة حين يتحدث عن المجتمع. أكثر من هذا، فإنه يتعدى الوطن والأمة ليشير أحيانا كثيرة إلى «الإنسانية»، بحسب تعبيره، وخاصة فى معرض كلامه عن التشبه بالغرب. وفى المقابل، وكعنصر أساسى فى التوجه المدنى، فإن الإشارة لا تعود إلى سلطة الإيمان والوحى والنصوص، بل إلى سلطة العقل والعلم، كما سبق ورأينا عند الحديث عن العقلانية، مع ملاحظة أنه يعتبر أن فهم الدين نفسه يحتاج إلى أن

يتأسس على ما يسميه (نص العلوم الأزهرية)[٧٢]، وإلى أن الشعور الدينى عنده يتكامل مع العقل ولا يتعارضان. لقد كان الفقهاء أهم جماعة ثارت على قاسم أمين حين نشر كتابه «تحرير المرأة»، ليس فقط لانتقاده اللاذع لهم[٧٣]، بل لسبب أقوى وأقوى، وربما لم يرد على أذهانهم على نحو مباشر: ذلك أن مشروع قاسم أمين كان يعنى، ضمن ما يعنى ، أن التوجيه الفكرى للأمة لم يعد بأيدى الفقهاء، بل بأيدى المدنيين. وينبغى أن ننبه، فى هذا الصدد، إلى أن قاسم أمين يشير فى أكثر من مكان من كتبه إلى الانتقادات التى توجه إلى الكنيسة، وهى فى الغرب تلك الكاثوليكية فى العادة، ويكتب هذه السطور التى تحمل المعنى الذى أشرنا إليه للتو، وهو معنى تحول السلطة الثقافية عامة من رجال الدين إلى المدنيين: فبعد ظهور عدم ملائمة أحكام الكنيسة الكاثوليكية الخاصة بالزواج والطلاق فى أوربا، «اضطرت الحكومات ، فيما يقول قاسم أمين، إلى تقرير الطلاق والتصريح بجوازه على شروط بينتها، وأوسعت له محلا من قوانينها. وهكذا انحسر سلطان الكنيسة عما كان يتناوله فى هذه المادة، كما بطلت سيطرتها فى كل ما لم تتفق فيه أحكامها مع صالح تلك الأمم. وهذا هو الشأن فى كل شرع أو دين لا يراعى أهله فى أحكامه مقتضيات الزمان والمكان، ويغفلون

عن طبيعة الإنسان، ويقفون به فى مكان واحد، عندما قرره بعض من سبقهم بدون إنعام نظر فى أسراره وطرق تنفيذه»[٧٤].

إن قاسم أمين هو الذى يمثل القطيعة الفكرية الكاملة مع الماضى، وكل من سبقه من الكتاب المصريين كان يقف «بين بين»، مع درجات تميل إلى هذا الجانب أو ذاك، أما قاسم أمين فقد نزل بقلمه الصريح كالسيف: «هل نعيش للماضى أو للمستقبل؟»، «إنَّا لا نجد عقبة فى طريقنا إلى السعادة أصعب اجتيازاً من شدة تمسكنا بعادات من سلفنا، من غير أن نميز بين تلك العادات، صالحها وطالحها»، ولكنه يعود ليترفق، بنفسه وبقارئه: «نعم، إن الماضى لا يصح أن يطرح جملة، ولكن يجب أن يُنظر فيه بالتبصر والروية لمعرفة ما أظهر من منافع ومضار»[٧٥]. ولكن واقع الحال ومنطق السياق يقول إن قاسم أمين لا يرى فيه نفعا يذكر، ويشهد على هذا نقده الشديد للمدنية الإسلامية، من جهة حالتها الاجتماعية، فهو يختم هذا النقد بالنتيجة اللازمة:« إن تمسكنا بالماضى إلى هذا الحد هو من الأهواء التى يجب أن ننهض جميعا لمحاربتها، لأنه ميل يجرنا إلى التدنى والتقهقر»[٧٦].

ونعود إلى الوطنية، وإلى قمتها وهى الوعى بمصر ومكانتها المخصوصة بل الفريدة فى سجل الحضارة، لنجد قاسم أمين يثبت

هذا النص الشامل الدقيق النافذ، ومستخدما لهجة هادئة لا تعرف الانفعال، وفيه يُظهر ثقته في مستقبلها، أي مستقبل مصر: «من المعلوم أن الأمة المصرية من أقدم الأمم، ويعترف لها المؤرخون بالسبق إلى ابتكار كثير من العلوم والصنائع التي انتقلت منها إلى اليونان ثم إلى الرومان ثم إلى العرب ثم إلى أوربا. وظهر فيها أول دين كبير في العالم، وتمتعت مدة قرون بمدنية مشهورة لا تزال آثارها مشهودة إلى الآن، وستبقى خالدة فيما لا يزال. وحكمت نفسها ودبرت أمورها مدة أجيال، بل أتى عليها زمن غلبت فيه على ما جاورها وبعد عنها من الأمم العظيمة، وقهرتها وأخضعتها لحكمها. ثم بعد فقد استقلالها، حافظت على وجودها وهيئتها، رغما عما طرأ عليها من التقلبات والمظالم والمصائب التي توالت عليها. وهذا يدل على أنها وهبت في طبيعتها حياة قوية، وأنها مستعدة للمقاومة في المزاحمة مع الأمم الأخرى»(٧٧).

٧ - إعادة تقييم الجانب العاطفي في الإنسان:

ربما كان قاسم أمين أول من قدم، للعقل المصري الحديث، الصورة الثلاثية للحياة الإنسانية: أنها وجدان وعقل وإرادة، أو أنها، كما يقولون في المصطلح النفسي، ذات جانب انفعالي وآخر

إدراكى وثالث إرادى،. يقــول فى إهداء «المرأة الجــديدة»: «إلى صديقى سعد زغلول: فيك وجدت قلبا يحب، وعقلا يفتكر، وإرادة تعمل»[٧٨]. إن إعادة القيمة إلى الحب، وإلى السعادة، وإلى المتعة، وإلى اللذة، لهى من أهم إنجـازات مـا كـتب قـاسم أمـين. وتدرك العـين الفـاحـصـة أن إعـادة القـيمـة إلى المشـاعـر والعـواطف والوجـدانات، وكل هذه من مـصطلح قـاسم أمـين نفسـه، يوازى ويمـشى يدا بيـد مع التـوجـه المدنى ومـع إعـلاء قـيمـة العـمل ومع الاهتمام بالعالم ومع القول بـالإدراك الشامل لشتى جوانب الوجود. وفى مقابل اتجاه الحضارة التقليدية نحو إلغاء المشاعر أو تقييدها إلى أقـصى درجة[٧٩]، فـإننا نجد قـاسم أمين يتـجـه إلى المطالبة باحترام شتى القوى والملكات التى يتمتع بها الإنسان، رجلا وامرأة على حد سـواء[٨٠]، وإلى تأكـيد أن يكتـمل فـيـه العـقل والشـعور معا[٨١]، مع مراعاة «التوازن فى القوى الأدبيـة»، أى المعنوية[٨٢]. وهاهو نموذج الرجـال الجدد الذين سـتقـوم على تربيتـهم المرأة الجديدة: «رجـال ذوى إحسـاس شـريف وعـواطف كـريمـة وأخـلاق حسنة وهمم عالية، رجال يشعرون ويعملون»[٨٣].

٨ - **الاهتمام بالجماليات :**

إذا كان قاسم أمين يضم إلى العقل الشعور الحى فى نموذج الإنسان الجديد، فإنه يضم إليه أحيانا أخرى، وإلى الشعور أيضا، عنصر «الذوق». وربما كان هو ناشر تعبير «الذوق السليم»[٨٤]. ويأتى الحديث عن الذوق فى إطار تنظيم المنزل أحيانا، وفى إطار تنظيم السلوك، بوجه عام، أحيانا أخرى: «من أعظم ما يصاب به المرء أن يحرم من الذوق السليم. الذوق السليم هو هذا الإحساس الفطرى الذى ينمو ويتهذب بالتربية، هو الشعاع اللطيف الذى يهدى صاحبه إلى أن يقول ويفعل ما يناسب المقام ويتجنب ما لا يناسبه»[٨٥]. ولكنه يرتبط أيضا، أحيانا ثالثة، بالفنون: «لابد هنا من استلفات النظر إلى وجوب الاعتناء بتربية الذوق عند المرأة وتنمية الميل فى نفسها إلى الفنون الجميلة»[٨٦].

وكثيراً ما ترد على قلم قاسم أمين كلمة «الجمال»، وتتجاور فى العادة مع «الكمال»[٨٧]. وهو يقصد بالجمال حسن الأشياء حيناً[٨٨]، وجمال النظام حينا آخر[٨٩] وجمال الشكل فى الأفعال حيناً ثالثاً[٩٠]، والجمال الفنى أخيراً، كما رأينا فى تعبير «الفنون الجميلة». إن القارئ لقاسم أمين يخرج بفكرة قوية مؤداها أن الاهتمام بالعنصر الجمالى فى الحياة الإنسانية ضرورة لازمة، وإن

كانت كتابات قاسم أمين لا تضم تفصيلات طويلة عن الجمال الفنى، فضلا عن حديث مفصل عن الفنون ذاتها[٩١]. وربما لم يتسع له العمر ليفصل القول فى هذا الجانب الهام، الذى كان، على ما يظهر، يدرك عظيم خطره، إلى درجة أنه، فى مذكراته الخاصة التى نشرت من بعد وفاته بعنوان «كلمات»، يتراجع عن آرائه المشهورة حول إرجاع انحطاط المصريين إلى الجهل وإلى سوء التربية وإلى الحكم الاستبدادى، ليقول بالحرف: «لعل أكبر الأسباب فى انحطاط الأمة المصرية تأخرها فى الفنون الجميلة، التمثيل والتصوير والموسيقى هذه الفنون ترمى جميعها، على اختلاف موضوعها، إلى غاية واحدة، هى تربية النفس على حب الجمال والكمال، فإهمالها هو نقص فى تهذيب الحواس والشعور»[٩٢].

خاتمة:

إن قارئ مجموعة «كلمات» يدرك جانباً فريداً من جوانب ذهن قاسم أمين، ألا وهو جانب الملاحظ المثبتة لدقائق القلوب والعقول والسلوك معاً. وقد حاولنا فى هذا الفصل، الذى نقدم فيه مفهوما منهجيا جديداً هو مفهوم «الحساسية»، إثبات تجديد قاسم أمين فى ميدان «الاتجاهات الذهنية» الضرورية، فى رأيه، للإنسان -

الجديد، وكثير منها يساير المطالب العلمية التى عرضنا لها فى الفصلين السابقين، ولكن بعضها يضيف اتجاهات تأسيسية لها وأخرى إضافية عليها، وهى جميعا تصب فى مصب تكوين المجتمع الجديد والإنسان الجديد.

الهوامش

(١) «تحرير المرأة»، ص ٩.

(٢) نفسه، ص ١٢٣، ١٥٤.

(٣) على التوالي: «تحرير المرأة»، ص ٨٨، «المرأة الجديدة»، ص ٣، وقارن «أسباب»، ص ٥٣.

(٤) انظر مثلا «حكم العقل والحق» «المرأة الجديدة»، ص ١٥٥، «مقياس العقل السليم والعلم الصحيح» «تحرير المرأة»، ص ٨٨، وغيرذلك كثير.

(٥) راجع «المرأة الجديدة»، ص ١٤٥ - ١٤٦، و«تحرير المرأة»، ص ٩٥.

(٦) «تحرير المرأة»، ص ٨٩ - ٩١، ص ١١٣. ويستخدم قاسم أمين تعبير «الارتقاء العقلي» في «المرأة الجديدة» ، ص ١٩٨.

(٧) «تحرير المرأة»، ص ٩٥.

(٨) انظر مثلا «تحرير المرأة»، ص ٢٧، «المرأة الجديدة»، ص ١٣٦، ٢٢٠.

(٩) انظر على سبيل المثال «المرأة الجديدة»، ص ١٩١.

(١٠) انظر مثلا «تحرير المرأة»، ص ٤٣، ٥، «المرأة الجديدة»، ص ١٩٣، «أسباب»، ص ٢١، ٥٣.

(١١) انظر كتاب «أسباب ونتائج» بوجه عام.

(١٢) انظر على سبيل المثال «تحرير المرأة»، ص ٣ - ٨، «أسباب»، ص ٢٠، ٦٨، «أخلاق»، ص ٧١ - ٧٢.

(١٣) انظر مثلا «تحرير المرأة»، ص ٣، «المرأة الجديدة»، ص ٨٧ - ٨٩.

(١٤) انظر «تحرير المرأة»، ص ٧، «المصريون»، ص ٢٦٠ - ٢٦١.

(١٥) راجع «تحرير المرأة»، ص ٧، و«كلمات»، ص ٢٣.

(١٦) انظر «تحرير المرأة»، ص ١٢، ٩٨، «المرأة الجديدة»، ص ٨٧ - ٨٩.

(١٧) «المصريون»، ص ٢٦٠ - ٢٧٢، ولكن قارن «أخلاق»، ص ٧١.

(١٨) «المصريون»، ص ٢٣٨ - ٢٣٩.

(١٩) مثلا ، «المرأة الجديدة»، ص ٨٧ - ٨٨.

(٢٠) أي على هيئة الاسم، ولكن قارن «تحرير المرأة»، ص ١٠٠، في نص سنورده بعد قليل (انظر المتن المقابل لهامش ٣٧ فيما يلي).

(٢١) «تحرير المرأة»، ص ١٠١، ١٤١ - ١٤٣. وعن المصدر عن «المناقشات النظرية» التى تمتد بغير نتيجة عملية، راجع «المرأة الجديدة»، ص ١٠.

(٢٢) «تحرير المرأة»، ص ١٠١، وراجع كذلك ص ١٤١ - ١٤٣.

(٢٣) «المرأة الجديدة»، ص ٧١.

(٢٤) نفسه، ص ٧٢.

(٢٥) «تحرير المرأة»، ص ٧٤.

(٢٦) نفسه، ص ٨٩ - ٩٠.

(٢٧) نفسه، ص ٧١ - ٧٢.

(٢٨) انظر «تحرير المرأة»، ص ٧١ - ٧٤، «المرأة الجديدة»، ص ٣٥ - ٣٦، ١٥٤، ٢١٩، «كلمات»، ص ٢٣ - ٢٤.

(٢٩) «تحرير المرأة»، ص ٢.

(٣٠) «المرأة الجديدة»، ص ٦. وراجع «تحرير المرأة»، ص ١٢٩، حول «أهل المستقبل».

(٣١) راجع مثلا «تحرير المرأة»، ص ٢، و«أسباب»، ص ٢٠.

(٣٢) راجع «تحرير المرأة»، ص ٩٤.

(٣٣) نفسه، ص ٦٠.

(٣٤) نفسه، ص ١٢٩ - ١٣٠.

(٣٥) نفسه، ص ١٥٤.

(٣٦) «المرأة الجديدة»، ص ٣.

(٣٧) «تحرير المرأة» ، ص ١٠٠ - ١٠١.

(٣٨) «أسباب»، ص ٢٧.

(٣٩) راجع بوجه عام وكأمثلة، فى «تحرير المرأة»، ص ٨٧ عن الصعاب الدائمة وعن الأسفار والأخطار، ص ٩٥ عن المزاحمة والمغالبة وعن القتال.

(٤٠) راجع مثلا «تحرير المرأة»، ص ١٠٥.

(٤١) «المرأة الجديدة»، ص ٢٠٩.

(٤٢) «أسباب»، ص ٢٥.

(٤٣) نفسه، ص ٢٢.

(٤٤) «تحرير المرأة»، ص ٧٢.

(٤٥) نفسه، ص ١١٤.

(٤٦) نفس المكان.

(٤٧) «المرأة الجديدة»، ص ١٦٦.

(٤٨) «تحرير المرأة»، ص ٤٥.

(٤٩) نفسه، ص ٤٩.

(٥٠) مثلا، «أسباب»، ص ٢٢.

(٥١) نفسه، ص ٢٤ - ٢٥.

(٥٢) نفسه، ص ٢٧.

(٥٣) نفسه، ص ٢٨.

(٥٤) «تحرير المرأة»، ص ١٠٧.

(٥٥) «المرأة الجديدة»، ص ٣٨، وفى سياق هذا النص يظهر النجاح وكأنه الضد التام لشقاء المعيشة الذى هو نتيجة «للخمود والعجز عن العمل»، وللتعود على «لذة الكسل والخلود إلى الراحة». وقارن «أسباب»، ص ٢٨.

(٥٦) «أسباب»، ص ٢٣.

(٥٧) نفسه، ص ٥٧. ويظهر فى هذا النص اصطلاح «العامل» بمعنى «الفاعل».

(٥٨) انظر فى «تحرير المرأة» على سبيل المثال: ص ٤٦ - ٤٨، ٥٥ - ٥٦، ٧٧ - ٩٢، ٩٣ - ١١٣، وغير ذلك كثير فى الكتب الأخرى.

(٥٩) «تحرير المرأة»، ص ٧١.

(٦٠) «أسباب»، ص ٣٣ - ٣٤.

(٦١) «تحرير المرأة»، ص ٩٩.

(٦٢) مثلا، نفسه، ص ٩٨ - ١٠٠.

(٦٣) «المرأة الجديدة»، ص ٥٠. ولكن قارن حول حول «الطبيعة»، ص ١٥٩، وربما احتاج هذا المفهوم عند قاسم أمينإلى بحث خاص.

(٦٤) نفسه، ص ١٨٠ - ١٨١. وراجع ص ١٨٣ حول رفض النزعة إلى التمسك بالماضى إلى حد الإضرار.

(٦٥) «أسباب»، ص ٥٦.

(٦٦) نفسه، ص ٦٣.

(٦٧) نفسه، ص ص ٥٤.

(٦٨) «المصريون» ص ٢ - ٤.

(٦٩) «المرأة الجديدة»، ص ١٧٧.

(٧٠) «تحرير المرأة»، ص ١٠٧.

(٧١) راجع مثلا «أسباب»، ص ٥٧، ٣٧ وغير ذلك.

(٧٢) «تحرير المرأة»، ص ١٣، ١٤١ - ١٤٢.

(٧٤) نفسه، ص ١٣٢ - ١٣٣.

(٧٥) راجع حول كل هذا: «تحرير المرأة»، ص ١٥٤ - ١٥٥.

(٧٦) «المرأة الجديدة»، ص ١٨٣.

(٧٧) نفسه، ص ١٣٥.

(٧٨) نفسه، ص ٢.

(٧٩) نفسه، ص ١٤٤: «أعصابنا أصبحت لا تتأثر إلا بالإحساسات المادية التى تقع عليها مباشرة، وصارت غير قابلة للتأثر بالمعانى النفسية».

(٨٠) «تحرير المرأة»، ص ٣٧ - ٣٨.

(٨١) نفسه، ص ٩٠.

(٨٢) «المرأة الجديدة»، ص ٦١.

(٨٣) نفسه، ص ١٣٩.

(٨٤) راجع، مثلا، «تحرير المرأة»، ص ٣٦.

(٨٥) «كلمات»، ص ٢٩، راجع أيضا ص ٥٥.

(٨٦) «المرأة الجديدة»، ص ١٦١.

(٨٧) مثلا، «أسباب»، ص ٥٢.

(٩٠) «كلمات»، ص ٥٥.

(٩١) «المرأة الجديدة»، ص ١٦١ - ١٦٢، على سبيل المثال، وراجع كذلك «كلمات»، ص ٢٤ - ٢٥.

(٩٢) «كلمات»، ص ٢٤.

الفصل الخامس
الأخلاق الجديدة

المبحث الأول : مقدمات

أولا : الأخلاق القديمة وأسس انتقادها :

سبق أن رأينا، في الفصل المخصص لانتقاد قاسم أمين لمجتمعه، بعضاً من أهم معالم انتقاده لأخلاق العصر في مصر، أو ما يسميه هو نصا «الأخلاق القديمة»(١). ونوجز هنا أهم الصفات التي ندد بها قاسم أمين في مجمل كتاباته، وعلى غير ترتيب خاص: فهناك السلبية والكسل، وعدم الاهتمام بالعمل وبالسعي في الدنيا وتحصيل المنافع، وذلك إلى درجة الخمول والسكون وإلى ما يقرب من الموت، والاستسلام للحوادث والنفور من المخاطرة، والجبن، والشعور بالعجز واليأس وعدم الثقة بالذات، والنفاق، وما يظهر في أخلاق الأطفال من كذب وخوف وحمق، والهرب عند الكبار من ممارسة الحرية، وعدم الاستقلال في المعيشة، والتواكل، والسفه في الإنفاق، والأنانية المفرطة، والإفراط في الانقياد للدوافع الحسية بعامة، وفي ميدان السلوك الجنسي بخاصة(٢). ويندد قاسم

أمين بالتصور السائد القائل بأن «الرجل والمرأة هما دائما فى طوع شهواتهما»[٣]، وهو ما يجعل الزواج محوره «قضاء شهوة بهيمية»، ويدل «على فساد الأخلاق واختلال الحواس وشره في طلب اللذائذ»[٤]، ثم هناك فى المقابل فقد الشعور الزائد، واهمال تربية العواطف[٥]، واتباع الأهواء الخاصة فى كل شىء[٦]، وضعف الإرادة وقلة الهمة[٧]، والرضى بالعبودية لنصف المجتمع، بما يدل على أن ««أخلاقنا لا تزال أخلاق أمة مسترقة، وهو أمر مصدره نفاذ سلطان الأخلاق القديمة فى نفوسنا»[٨]، وتمسكنا بالماضى لمجرد أنه كذلك[٩].

ونحن نرى قاسم أمين يوجه انتباهه حينا إلى أوضاع أهل عصره ذاته وفى تفاصيلها، وهو ما يفعله على الخصوص فى «أسباب ونتائج وأخلاق ومواعظ»، ويوجهه حيناً آخر إلى ما هو أبعد من ذلك، أى إلى ما يرى أنه السند الأخير لتلك الأوضاع المنتقدة، ألا وهو الأحوال الأخلاقية التى وجد أن المسلمين استقروا عليها خلال تطور عصور المدنية الإسلامية ، وهو ما يفعله على الخصوص فى «المرأة الجديدة»، حيث يقوم بتركيز الانتقاد لأحوال المسلمين السابقة، والتى أراد البعض اعتبارها نموذج الكمال البشرى. ولعل إحدى قمم هذا الانتقاد ما يقوله فى نعى عنيف لا

يخلو من غلواء: «وأما من جهة عمل المسلمين على مقتضى تلك الأصول الأدبية، فالتاريخ يشهد على أن كل عصر لا يخلو من الطيب والردئ والحسن والقبيح. وقد وصلت إلينا أخبار العرب فى الكتب التاريخية والأدبية، فكشفت لنا الغطاء عن أخلاقهم ومعاملاتهم وأطلعنا على شعرهم.

ومن المهم أن نعرض أولاً، وقبل الدخول إلى تفصيل معالم الأخلاق الجديدة البديلة التى يقترحها قاسم أمين، أن نعرض للأسس الضمنية التى قام عليها انتقاده لتلك القديمة، وربما كان أبرزها هذه الأسس الثلاثة:

١ - نموذج الكمال الأخلاقي لا يقوم فى الماضى :

«أى زمن من الأزمان السابقة كان منزها عن العيوب حتى يصح أن يقال إنه نموذج الكمال البشرى؟ الكمال البشرى لا يجب أن نبحث عنه فى الماضى، بل، إن أراد الله أن يمن به على عباده، فلا يكون إلا فى المستقبل البعيد جدا». ويقوم من وراء هذا نفسه أخذ قاسم أمين بالموقف النسبى وقوله بالتغير(١١).

٢ - الأخلاق القديمة لا تليق بالإنسان :

بحسب حكم قاسم أمين عليها، وبحسب تصوره للإنسان الحق: إن هدف قاسم أمين هو : «إنشاء حال خاصة بنا تليق بزماننا

ويمكن أن تستقيم بها مصالحنا»[١٢]. فهناك عامل مراعاة العصر وعامل الالتفات إلى المصالح والمنافع الحقيقية[١٣]، حيث يقوم، من وراء إحلال أخلاق جديدة بدل تلك القديمة، هدف الإصلاح وتحسين الحالة الاجتماعية للأمة والوصول إلى الفوز والنجاح[١٤]. ثم هناك الهدف الأعم: أن نكون «أمة حية متمدنة»[١٥]. هذا كله يوجب التطهر من «العيوب التى تعهدونها فى أخلاقكم»[١٦].

٣ - الأخلاق القديمة لا تنتج إلا سئ النتائج :

إنَّا لا نجد عقبة فى طريقنا إلى السعادة أصعب اجتيازا من شدة تمسكنا بعادات من سلفنا»[١٧]، والتى لا نتمسك بها إلا «لأنها جاءت إلينا ممن سلفنا، ورثناها عمن تقدمنا، وذلك كل ما فيها من الحسن عندنا»[١٨]، بينما النظر الحق فى أمور الأمة يظهر أن «التزامنا بما وُجدنا عليه آباءنا، وعدم الخروج عن الدائرة التى رسموها لأنفسهم، [فيه] القضاء على الأمة الإسلامية بجمود القرائح وتقييد الأرجل وغل الأيدى عن كل عمل تحفظ به كونها وتدافع به عن وجودها وتتقدم به في سبيل سعادتها، بل قد يكون قضاء عليها بالمحو والاضمحلال»[١٩]. وهكذا فكأن شعار قاسم أمين هو : أخلاق، وحال جديدة، أو الفناء[٢٠].

ثانيا : الأخلاق : المعنى والمصطلح :

يستخدم قاسم أمين اصطلاحا «الأخلاق» و«الآداب»، منفردين أحيانا ومجتمعين معاً أحياناً أخرى (مثلا «الآداب والأخلاق»[٢١] أو «الأخلاق والآداب»[٢٢])، كما يستخدم المفرد منها، «الخلق» و«الأدب»، وإن كان استخدام «الخلق» أقل على نحو واضح. ويبدو أن الاصطلاحين «أخلاق» و«آداب» مترادفان إلى حد كبير فى كتابات قاسم أمين[٢٣]، لأن منظوره الأساسى هو المنظور الاجتماعى، وليس المنظور الفلسفى. والأغلب أن قاسم أمين يجعل مقابل «الأخلاق» الاصطلاح الفرنسى la morale، بينما ربما كان مقابل «الآداب» عنده هو les moeurs. والأول هو المستخدم فى اللغة الفلسفية، بينما نجد الثانى فى لغة دراسة المجتمع، وإن كان يبدو أن قاسم أمين سيستقر، في كتابيه الكبيرين، على الكلام عن «العوائد» و «العادات» بما يقابل ذلك المصطلح الفرنسى الثانى.

ويظهر مصطلح «الخُلق»، ليس بمعنى التكوين العام المعنوى لشخص ما[٢٤]، بل بمعنى الصفة المعنوية المحددة، كما فى قوله: «بأى خلق من الأخلاق تخلقن»[٢٥]، فهو يدل إذن على صفة مفردة خاصة. أما «الأدب»، فإنه قد يستخدم استخداماً مطلقاً فيكون عند ذلك مساويا للأخلاق، كما فى قول قاسم أمين عن المرأة: «إنها لا

يمكنها أن تحسن القيام بهذه الوظيفة الاجتماعية إلا إذا كانت على جانب عظيم من العقل والعلم والأدب»[٢٦]، ولكن هذا الاصطلاح يستخدم معظم الوقت على قلم قاسم أمين بمعنى طرق التصرف السليمة المقبولة اجتماعياً، والتى تدل على حسن التربية والتهذيب[٢٧]. وأما الصفة «أدبى» فهى قد تدل إما على معنى «الأخلاقى»، كما فى تعبير «التربية الأدبية»[٢٨]، وإما على معنى «المعنوى» بوجه عام، فى مقابل «المادى»، كما فى تعبير «شخصية الإنسان الأدبية»[٢٩]، وفى قوله: «لا يستطيع أحد أن يلم بجميع العوامل التى تتركب منها الذات الإنسانية بوجهيها الأدبى والمادى»[٣٠]، وقوله : «وردت على خاطرى... أحوال تنذر بوجود حالة أدبية سيئة عند الكثير عن شبابنا»[٣١]. ومن المفهوم أن عنصر الأخلاق هو أهم عامل فى ذلك الجانب المعنوى. ونشير سريعا إلى أن قاسم أمين يستخدم فى بعض الأحوال النادرة كلمة «معنوى» فى نفس هذا الإطار، كما فى قوله: «التقدم فى الماديات مما يقع تحت الحس، فلا يمكن إنكاره، أما التقدم فى الأمور المعنوية فهو مما لا يدرك إلا بالعقل»[٣٢]. ومن المعروف أن الكلمة الفرنسية la morle يمكن أن تستخدم بمعنى الأخلاق وبمعنى المعنويات على السواء ، من ضمن معانى أخرى للكلمة ، مع

إثبات التذكير فى حالة المعنى الثانى ، أى الجوانب المعنوية (le moral).

وأحيانا ما يصاحبِ مصطلح «العوائد» كلمة «الأخلاق»، كما فى «مادرجوا عليه من الأخلاق والعوائد»[٣٣]، وفى قوله :« عوائدنا وأخلاقنا وتربيتنا الحالية قضت عليهم بأن لا يثق بعضهم ببعض»[٣٤]. ويبدو أن قاسم أمين يستخدم تعبير «العوائد»، حين يربطه إلى ميدان الأخلاق، بمعنى السلوك الظاهر المعبر عن الاختيارات الأخلاقية، ويظهر أحيانا وكأنه يستخدم الكلمتين استخداما مترادفا[٣٥]، كما فى مقابلته، فى مفتتح مقالات «أسباب ونتائج»، بين «الأخلاق الرديئة» و «العوائد الحسنة»[٣٦].

ولا يحدد قاسم أمين تعريفاً صريحاً للأخلاق. ويبدو أنه يستخدم الكلمة فى الفصل المعنون بمقابلها الفرنسى (la morale)، فى كتاب «المصريون»[٣٧]، بمعنى المثل العليا العامة وأسس السلوك ومقاصده على نحو ما تحدده مجموعة من البشر لنفسها، حيث يقابل ما بين أخلاق الأوربيين، التى يهاجمها بشدة فى هذا الفصل، وأخلاق المسلمين، متحدثا عن مفهوم السعادة عند الطرفين، وعن الآداب الجنسية عندهما، فضلا عن العواطف والفضائل السائدة فى كل مجموعة منهما والموجهة للسلوك فيها.

أما إذا نظرنا إلى الكتابات العربية لقاسم أمين، من بعد كتابه الفرنسى، فإن اصطلاح «الأخلاق» يبدو دالا فيها على المعنيين التاليين:

أ – الصفات المعنوية التى تجسد النماذج المثالية (التى هى الفضائل)، أو ما يسميه أحيانا «الكمالات الأخلاقية الصحيحة»(٣٨).

ب – الميول والاتجاهات التى توجه طرق التصرف وتحددها(٣٩).

وربما نجد تعبيراً عن تصور قاسم أمين لموضوع الأخلاق وغايتها فى قوله: «تهذيب النفس وتطهيرها من الرذائل، والابتعاد بها عن المنكرات والخبائث، ونشر الفضيلة بين الناس»، وإن كان الحديث هنا يتناول «غاية التمدن»(٤٠). وبصفة عامة فإن ميدان الأخلاق هو «الأعمال والمقاصد»، بحسب قوله: «الأدب... واحد بالنسبة للرجال وللنساء، وموضوعه الأعمال والمقاصد»(٤١). أما محل الأخلاق، فهو «الوجدان» أو «الشعور» أو «الحس»، وكلها كلمات يستخدمها قاسم أمين، ولكن أقواها هى الأولى، وهى تظهر فى مثل قوله «الوجدان الذى هو المحرك الأول للعمل...»(٤٢)، أو : «الكمال الذى ينشده الإنسان ويلتمسه الوجدان»(٤٣)، فكأن «الوجدان» هو ملكة الأخلاق، فى مقابل ملكة العقل للمعرفة، وملكة الإرادة للفعل(٤٤). ويدرك قاسم أمين الصلة بين الأخلاق والإرادة

والعقل جميعاً، كما يظهر في هذا النص الذى تتزاحم فيه المصطلحات والأفكار، فيقول في صدد أهمية الخبرة المباشرة بالوقائع والتمرن على العمل: «وكذلك الحال فى الآداب والأخلاق، إذ لا شيء على الإنسان أسهل من أن يعلم مقدار الفائدة فى ضبط شهواته وقهره نفسه، ولكن لا شيء أصعب فى العمل من أن يأتى ذلك بالفعل. لأن قهر الإنسان لهواه وجعله تحت سلطان العقل يستدعى قوة عظيمة فى الإرادة، ولا توجد هذه القوة فى الإرادة بإقامة الحوائل المادية بينه وبين النقائص، ولا بمجرد حشو ذهنه بالقواعد الأدبية، وإنما تتولد بالعرض لملاقاة الحوادث والتعود على مغالبتها والتغلب عليها»[٤٥].

المبحث الثانى
أسس عامة

أولا : فى الطبيعة الإنسانية

يتحدث قاسم أمين تكراراً عن «طبيعة الإنسان» وعن «الطبائع البشرية»[٤٦]، ويهتم بتحليل «شخصية الإنسان الأدبية»[٤٧]، أى المعنوية أو الأخلاقية، وبمعرفة «القوانين الصحيحة التى ترجع إليها حركات الكائنات وأحوال الإنسان»[٤٨]، فوجب أن نقدم بتصوره عن الإنسان وجوانبه العامة، وما يتصل من قواه بالأخلاق على الخصوص.

سبق لنا أن رأينا كيف أن قاسم أمين يضع الإنسان والمجتمع فى إطار الكون ككل[٤٩]، والظاهرة الحيوية بخاصة[٥٠]، كما أنه ينظر إلى الظاهرة الإنسانية فى مجموعها، فيتحدث عن «تاريخ الإنسانية من عهد وجودها على الأرض إلى الآن»، [٥١]، وعن «طبيعة الإنسانية»[٥٢]، وعن «النوع الإنسانى» كجزء من «الأنواع الحية»[٥٣]، ليخصص الحديث عن «شخصية الإنسان الأدبية»[٥٤]. وبوجه عام، فإنه يرى أن فى كل إنسان جانباً وراثياً[٥٥]، وهو

يحوى «الخواص المميزة لنوعه، و... الصفات الخاصة بأبويه معا»، ففى الفرد «صورة نوعه الكلى، وفيه صورة والديه خصوصاً»(٥٦)، وهو يسمى هذا الجانب بأسماء متنوعة، منها «الفطرة»(٥٧) و«الغرائز»(٥٨) و «الوراثة»(٥٩) و «العامل الطبيعى»(٦٠)، وفيه أيضا جانب آخر هو الذى تضيفه التربية والتجارب، ويسميه قاسم أمين أحياناً باسم «العامل الصناعى»(٦١). أما من حيث الأنشطة، أى أعمال الإنسان، فإنها تنقسم إلى ثلاثة أنواع: أعمال يحفظ بها المرء حياته، وأعمال تفيد عائلته، وأعمال تفيد الوجود الاجتماعى، ويرى قاسم أمين أن هذا الترتيب «ترتيب طبيعى»، بحسب درجة الأولوية والضرورة ولزوم السابق للاحقه(٦٢). وأما من حيث المنظور القيمى، فإننا نرى قاسم أمين يتحدث أحيانا عن «منزلة [الشخص] من الإنسانية»(٦٣)، وعن «الغايات الشريفة التى يسعى إليها كل من عرف معنى الإنسانية»(٦٤)، وعن «مظهر الوجود الكلى»(٦٥)، وعن «منزلة الإنسان فى الوجود»(٦٦)، ولعل هذه التعبيرات كلها تدل على ما ينبغى للإنسان أن يكون عليه ويحققه. وليس من السهل أن نجد فى صفحات قاسم أمين تحديداً حاسماً لهذه «المنزلة» التى للإنسان، ويبدو أنها تدل على مبلغ الكمال الذى يمكن للإنسان أن يصل إليه، أو على إمكان «الارتقاء... إلى ما أعد له من الكمال

الإنساني»[٦٧]، والذى يرى قاسم أمين تجسيدا له فى أحوال الأمم المتقدمة فى أوربا وأمريكا، وخاصة من حيث نيل الاستقلال والحرية[٦٨]، وهى قد تشير أيضا إلى مجموع الصفات الكريمة التى ينبغى للإنسان تحصيلها، عقليا وأخلاقيا ووجدانيا[٦٩]. وربما نلمح غرض قاسم أمين حين يتحدث عن «مقصدنا من الحياة»، فإنه ليس أن يعيش كل منا بضع سنين يقضيها فى أى حال كان، إنما هو العز لا الذل، الغنى لا الفقر، الحرية لا الرق، العلم لا الجهل، والفضيلة لا الرذيلة[٧٠].

وليس من السهل، كذلك، أن نجد وضعاً لمعالم تكوين الإنسان وقواه وأنشطته، محددا ومعروضاً على نحو منظم، عند قاسم أمين. والانطباع الأقوى الذى تخرج به القراءة التلقائية هو أن ذلك التكوين ثلاثي، لأن بعضاً من أبرز النصوص تسير فى هذه الاتجاه. ولعل أهمها جميعا هو نص إهداء كتاب «المرأة الجديدة» إلى سعد زغلول، حيث يقول كما رأينا: «فيك وجدت قلبا يحب، وعقلا يفتكر، وإرادة تعمل»[٧١]. وأهمية هذا النص تقوم فى أنه يحدد مكونات التكوين الثلاثى للإنسان، قلبا وعقلا وإرادة، ويحدد أنشطتها المقابلة، الحب والفكر والعمل. وربما التقى مع هذا التحديد نص من «تحرير المرأة»، يرى أن للإنسان جوانب ثلاثة:

نفس وأخلاق وعقل[٧٢]، حيث ربما تقابل النفس والأخلاق فيه القلب والإرادة، على التوالى، فى النص السابق. ويأتى فى خاتمة «تحرير المرأة»، وهى نص لا شك تأمل عليه صاحبه طويلا، أن أنشطة الإنسان ثلاثية الجوانب: علم وعزيمة وعمل[٧٣]، وإن كان من الصعب أن نجد مقابل القلب هنا. ثم إذا بنا نجد فى بعض النصوص عاملاً رابعاً: هو الجسم، وهو يأتى ذكره فى نصوص التربية على الخصوص، حيث نرى قاسم أمين فى «تحرير المرأة» يتحدث عن «تربية الأولاد جسما وعقلا وأدبا»[٧٤]، كما يقسم التربية فى «المرأة الجديدة» إلى جسمية وأدبية وعقلية[٧٥]، حيث يقابل «الأدبى» هنا ما رأيناه تحت اسم القلب والإرادة معا فى النصوص الأسبق. فكأن تقسيم الإنسان إذن تقسيم رباعى، وإن لم ينص عليه قاسم أمين، وليس ثلاثيا: فهو جسم وعقل وقلب وإرادة.

وتزداد حيرة القارئ المدقق حين يجد بعض النصوص تستخدم التقسيم الثنائى لجوانب الإنسان إلى جانب مادى وآخر روحى، فالإنسان له حالتان مادية وأدبية[٧٦]، والنمو نموان: مادى وأدبى[٧٧]، وربما انقسم الجانب «الأدبى» هذا إلى جانب «عقلى» وآخر «روحى»[٧٨]. من جهة أخرى فإننا نجد توزيعات يبدو أنها توزيعات جزئية بحسب اعتبارات الموضوعات المحددة التى تعالجها

النصـوص، ومن ذلك: «وجـدان وعـقل»[٧٩]، «عـقل وقلب»[٨٠]، «عـقل وشعور»[٨١]، «عقل ونفس»[٨٢]، «عقل وروح»[٨٣]، «عقل وجسم»[٨٤]، إلى أن نقابل هذا التوزيع الرباعى الذى قد ينقلب ثلاثيا أو ثنائيا بحسب اختلاف الاعتبار: «روح وقلب ووجدان وحواس»[٨٥]. وربما نخلص إلى تصور عام يأخذ فى الاعتبار مجمل هذه الإشارات، وإن لم يأت على قلم قاسم أمين نصاً: ذلك أن فى الإنسان جانبين أساسيين، جانب مادى، وهو يشير إلى الجسم، وجانب أدبى، وهو يتفرع الى العقل والقلب والإرادة.

ومن المفردات المتصلة بالجسم عند قاسم أمين: مادى، بدنى، حواس، عمل. ومما يتصل بالعقل: القوى،الملكات العقلية، العلم. ومما يتصل بالقلب: نفس، روح، وجدان، القوى الأدبية، الشعور، الإحساس، العواطف، الأخلاق، العمل. ومما يتصل بالإرادة: القوى الأدبية، والأخلاق، العزيمة، العمل. أخيراً، فإننا نجد ذخيرة واسعة من المصطلح المتصل بالقوى الإنسانية، نشير من بينها إلى ما يلى : ميول، اتجاهات، ملكات، وجدانات، نزعات، غرائز[٨٦].

ومن المهم أن نؤكد هنا على عدد من الملاحظات:

١ - إن قاسم أمين يعى، فى نفس الوقت الذى يشير فيه إلى إمكانات الإنسان العظيمة فى توجهه نحو الكمال، يعى «عجز

الإنسان الضعيف»[٨٧].

٢ - إنه يجدد تجديداً بارزاً فى مفاهيم أهل العصر حين ينقل النتائج العلمية الغربية التى انتهت إلى أهمية الجهاز العصبى الإنسانى وخاصة المخ[٨٨]، ويتحدث عن الأعصاب والمراكز العصبية[٨٩]، ويهتم بالربط بين العوامل الجسمية وتلك النفسية[٩٠].

٣ - إنه من أوائل المفكرين المصريين الذين سيؤكدون على أهمية الجسم والحواس والعواطف والخبرة بأحوال الدنيا.

ونفصل بعض الشىء فى موضوعات هذه المسألة الأخيرة، ثم نتحدث عن مفهومى العقل والقلب عند قاسم أمين، لنكون بهذا قد غطينا أموراً هى أسس عامة ستقوم عليها، وبها، نظرته الجديدة إلى الأخلاق.

وربما نبدأ من مفهوم الحياة لأنه يشكل إطاراً عاماً جداً عند قاسم أمين، ويبدو أنه يتحدث عن نفس الأمر حين يشير إلى الدنيا والعالم والتجارب الفعلية والحياة. فهو يعلق على نص يورده فيه إشارة إلى «الحياة الحقيقية»، بقوله: «فالتجارب هى أساس العلم والأدب الحقيقى»[٩١]، ويشير إلى الإنسان «الحى العامل» بأنه الذى «يتفكر فى كل شىء، ويلاحظ كل شىء، ويجرب كل شىء»[٩٢]، نشاط الأمة هو الذى يمكنها من بلوغ «الحظ فى الدنيا»، بينما

الكسل والجهل يؤديان بها إلى «الشقاء فيها»[٩٣]. ويتكرر الربط بين الحياة والعمل على مستوى الأمة، حيث الهدف أن «تكون جميع أعضاء المجتمع عندنا حية عاملة قائمة بوظائفها»[٩٤]، وأحد أهداف قاسم أمين فى «تحرير المرأة» أن تصير المرأة «نفسا حية فعالة تنتج بقدر ما تستهلك»[٩٥]. وربما كان يتصل بالتأكيد على الحياة الفعالة الإشارة إلى أهمية مجرد «الحركة والتمتع بالشمس والهواء»[٩٦]. فالحياة عند قاسم أمين قرين الفعل والنشاط، فلا عجب أن نراه يقول: «جميع أعمال الإنسان، مهما اختلفت وتنوعت، هى صادرة عن أصل واحد، وهو عمله وإحساسه»[٩٧].

ولا تأكيد على الحياة والفعالية والنشاط والعمل بدون إعادة الاعتبار إلى الجسم الإنسانى وما يتصل به: «المرأة لا تكون خلقاً كاملاً إلا إذا تمت تربيتها الجسمية والعقلية. أما تربيتها الجسمية، فلأنها لازمة لها فى استكمال صحتها وحفظ جمالها، فيجب أن تربى، كما يجب أن يربى الرجال، على تمرين الجسم بالحركة والرياضة لأن الجسم الضعيف لا يسكنه إلا عقل ضعيف، لأن ما يكثر عروضه للنساء من الاضطرابات العصبية والمخية، إنما هو ناشئ عن عدم انتظام وظائف أعضاء الجسم. فسلامة العقل فى جميع مظاهره تابعة لسلامة الجسم»[٩٨]. ويمتد تأثير حالة الجسم

من الأحوال العقلية والنفسية فى الإنسان إلى الجانب الأخلاقى المتصل بالإرادة فيه: «لاشك أن قوة البنية وسلامة الأعصاب هما من أهم أعوان الإنسان على ضبط نفسه، وإن ضعف البنية واعتلال الأعصاب هما من أهم الأسباب التى تجعل الإنسان آلة تلعب بها الشهوات والأهواء»(٩٩). ويفصل قاسم أمين بعض الشيء فى «التربية الجسمية»، مؤكدا على فكرة «التوازن» داخل الجسم وعلى الاهتمام بالحركة(١٠٠)، كما يشير إلى أهمية «النمو الجسمانى»(١٠١).

والحواس من أهم مظاهر الجسم الإنسانى، وهى حين تعمل تنتج «الإحساس»: «بالتربية يمتلئ ذهن الطفل بالصور الواردة عليه من الاحساس، ويأثرها فى نفسه ألما كان أو لذة. وتَعَرُّضُ حسِّه لقبول هذه الصور موكولٌ إلى إدارة مربيه، فهو الذى يربيه ويسمعه ويذيقه ويفيده كل معلوم»(١٠٢). والحواس بهذا تقوم فى مقابل العقل: «الكمال شيء يدركه عقلنا، لكنه لا يقع تحت حواسنا»(١٠٣).

ولكن قاسم أمين أحيانا ما يستخدم كلمتا «الحس» (فى المفرد) و «الاحساس» فى معانى مختلفة بعض الشيء عما أشرنا إليه. فهو يستخدم «الحس» بمعنى الشعور العام: «مضت تلك الأزمان الطويلة على المرأة ولم يمس عقلها شيء من التربية الصحيحة

فضعفت منها القوة العاقلة والمفكرة، وانفرد الحس بالتصرف فى إرادتها، فحسبها هو المميز عندها بين الخير والشر»[١٠٤]، ويستخدم «الإحساس» بمعنى المشاعر، فيتحدث عن «إحساسات الطفل وأمياله»[١٠٥]، وعن ميل الإنسان بإحساسه إلى الجميل[١٠٦].

أما عن «العواطف»، فإنه أحيانا ما يستخدم الكلمة مساوية للهوى، كما فى قوله: إذا ترك القارئ نفسه لعواطفه...»[١٠٧]، ولكنه يستخدمها أحيانا أغلب للإشارة إلى الجانب الوجدانى فى الإنسان، فيشير إلى «الملكات العقلية والأدبية» ثم إلى «ما يسمى عقلا أو عاطفة»[١٠٨]، وفى هذه الحالة فإن العواطف تشير إلى مضمون ما يعبر عنه قاسم أمين بالوجدان والقلب والشعور.

ولكن العامل الأبرز في التصور الأخلاقى عند قاسم أمين، ورغم هذه الاهتمامات بالعواطف والحواس والجسم، يظل هو عامل العقل، الذى يتكرر ذكره وذكر الصفة «عقلى» فى نصوصه أكثر من ذكر أى مصطلح آخر مما أشرنا إليه، كما يعالجه قاسم أمين من نواحي عديدة تجعل معالجته له أوفى من معالجته لأى عامل آخر من عوامل الحياة الإنسانية.

وربما كان التعرف شبه المباشر للعقل، الذى نجده فى كتب قاسم أمين، هو الذى يجعل منه، من حيث هو «القوة العاقلة

والمفكرة»، «قوة التميـيـز» «من جهـة»، وقـوة الحكم «من جـهـة أخرى»[١٠٩]. ويبدو أنه يساوى ما بين العقل و «الفكر السليم»[١١٠]. وهو ينظر إلى العقل حينا من حيث هو ملكه أو «قوة» أو قدرة[١١١]، وهنا فإنه يسميه أيضا باسم «الموهبة» («موهبة العقل»[١١٢])، وأحيانا ما يتناوله من المنظور الفزيولوجى باعتباره وظيفة من وظائف المخ[١١٣]، أو هو قد ينظر إليه، حينا آخر، من حيث مضمونه، فيكون مساويا للفكر السليم، وللمدارك، وهنا نجده يتحدث عن «الحالة العقلية» التى للأمة و «درجتها» أو «مرتبتها» فى العقل[١١٤]، أى من حيث العقل، وهو ما يجعل «عقل الإنسان يختلف باختلاف الأماكن والأزمان» والأمم[١١٥]، ويكون ضده من هذه الناحية الأوهام والخيالات[١١٦]، وهو ما يجعل قاسم أمين يقول: «وكان لا يغش نفسه بالتزويق والتزيين الوهميين، وإنما يسمع صوت وجدانه السليم»[١١٧]، حيث التعبير الأخير يقوم مقام «العقل» أو «الفكر السليم». وهكذا فإن مقابلات العقل هى الخرافة والهوى والوهم والخيال[١١٨]، بينما تكون صلات العقل مع العلم[١١٩] والجدال[١٢٠] والفضيلة[١٢١] والمنفعة[١٢٢]. والعقل، من حيث هو مضمون، قابل للترقى والتهذيب[١٢٣]، ومعه يكون: «التقدم فى العلوم» مساويا «للارتقاء العقلى»[١٢٤]، ويكون معنى «تربية

«العقل» هو توجيه «مدارك الإنسان إلى اكتشاف حقائق العالم[١٢٥]، أو هى «تعلم العلوم والفنون» من أجل إدراك الحقيقة وتحقيق المنفعة، لأن المعرفة تنتج لذة بذاتها كما تنتج النفع أيضاً، وبهما تتحقق السعادة[١٢٦].

وعلى عكس مصطلح «العقل» يكون حال مصطلح «القلب»، فهو إن أتى أحياناً على قلم قاسم أمين واحتل مكاناً مركزياً فى تقسيمه لملكات الإنسان، إلا أن ذكره أقل في عدد المرات من ذكر «العقل» بكثير، كما أن استخدامه لا يصحبه تعريف بدلالته يشير إلى مضمونه[١٢٧]. وربما يدل على معناه ويساويه مصطلح «الوجدان»[١٢٨].

ثانيا : الكمال (غاية النشاط الإنسانى) :

ربما كان مفهوم «الكمال» هو حجر الأساس فى تصور الأخلاق عند قاسم أمين، لأنه غاية النشاط الإنسانى، مأخوذا على المحمل الفردى، أى فى خلال حياة كل فرد، وعلى المحمل الإنسانى العام، أي فى خلال تطور حياة الإنسانية على ما كان يتصور قاسم أمين[١٢٩]. إن ما ينشده الإنسان ويلتمسه الوجدان هو الكمال[١٣٠]. «ولا يشك أحد فى أنه مع مرور الزمن وانتشار

المعارف وتحسين طرق التربية فى طبقات الأمة، عاليها ودانيها، تتهذب النفوس شيئا فشيئا، وتقرب من الكمال الذى هو ضالتها»(١٣١). إن السير على طريق الكمال هو أمر حتمى للأمم، والفرق هو أن هناك أمما تقترب منه أكثر من غيرها، بينما هناك أمم تغفو عن إدراك هذا الطريق وعن السعى عليه. «إنما نحن على يقين من أمر واحد، وهو أن الإنسانية سائرة فى طريق الكمال، وليس علينا بعد ذلك إلا أن نجد السير فيه ونأخذ نصيبنا منه»(١٣٢). أما إذا كان هذا الطريق له حد أقصى يكتمل عنده الكمال، إن أمكن استخدام هذا التعبير ، أم أنه طريق لانهائى، «فالجواب أن ذلك سر مجهول، ليس فى طاقة أحد من الناس أن يعلمه. وكما أننا نجهل ماذا يكون حال الرجل بعد مائتى سنة، كذلك لا يمكننا أن نعرف ماذا يكون حال المرأة بعد مرور هذه المدة»(١٣٣). وإنما الأمر اليقينى هو أن الإنسانية سائرة على هذا الطريق بنوع من الضرورة(١٣٤).

ما هو هذا الكمال؟ وما مضمونه؟ ولمن يكون على التدقيق؟ أما عن تعريفه، فقد سبق أن رأينا أن «الكمال شيء يدركه عقلنا، لكنه لا يقع تحت حواسنا»(١٣٥). ونمضى فى بيان خواصه الصورية، وهو حال هذه الخاصة السابقة، لنجد أن قاسم أمين أحيانا ما

يستخدم المصطلح فى استخدام مطلق، مثل حال النص الذى أثبتناه منذ قليل، والمتحدث عن «طريق الكمال» الذى تسير فيه الإنسانية، ومثل حديثه فى أول صفحة من «تحرير المرأة» عن «تحويل النفوس إلى وجهة الكمال»[١٣٦]، ولكننا نراه يستخدمه أحيانا أخرى استخداما نسبيا، مثلما يحدث فى قوله: «وبديهى أن التوجه إلى الإصلاح والكمال لا يكون إلا بعد الشعور بالنقص»[١٣٧]، أو فى تخصيصه للكمال فى جانب ما، وليكن مثلا «كمال العقل» عند المرأة[١٣٨]، وهو ما يقترب من إشارات قاسم أمين إلى أنواع للكمال، أو «ضروب من الكمال»[١٣٩]، أكثرها انتشاراً على قلمه نوع الكمال العقلى ونوع الكمال الأدبى[١٤٠]، كما أن هناك الكمال الخاص بالمرأة[١٤١]، و «كمال النفس الإنسانية»[١٤٢]. أما حين نصل إلى نوع «الكمال الإنسانى»[١٤٣] على التعميم فإنه يعود بنا إلى المعنى المطلق للكمال. ويجعلنا هذا نضع أيدينا على خاصية شكلية للكمال عند قاسم أمين، وهى أنه متعدد وواحد فى نفس الوقت، فهناك كمالات متعددة نوعية، ولكنها نصب جميعها فى قناة نهائية هى «الكمال الإنسانى». من جهة أخرى، فإنه يبدو، كما سبق وألمحنا، أن تحقق الكمال للإنسان، أو على الأدق تحقيق الإنسان للكمال، هو أمر إجبارى عليه، أو على

الأقل هو ضرب من الضرورة، لأن الإنسان «قد أعد» لهذا الكمال، ويظهر هذا كله في إشارة قاسم أمين إلى «جميع الكمالات التي تولدت في نفوس أفراد هذا النوع، عند ارتقائه من أدنى درجاته من الحيوانية إلى ما أعد له من الكمال الإنساني»[١٤٤]. ويدل هذا التصور نفسه على أن الكمال أمر يتحقق على مراحل ودرجات، وعبر الزمن. لهذا نجد قاسم أمين يقول في مذكراته الشخصية: «لا يتطلب الكمال من المرء، وإنما يطلب منه أن يكون في كل يوم أحسن منه في اليوم الذي مضى». ويتصل بهذا، مع استخدام تشبيه بيولوجي، أن الكمال يظهر أولا على هيئة أولية، أو قل جنينية، ليتطور من بعد ذلك وينمو، وهو ما يظهر من إشارة قاسم أمين إلى وجود «أوائل وجراثيم من الكمال العقلي والأدبي في نفس الطفل، «تصل بالتنمية والتربية إلى تلك الغايات الشريفة التي يسعى إليها كل من عرف معنى الإنسانية»[١٤٦]. وكل هذا يربط الكمال إلى معنى الحركة والتغير والدرجات مع وجود غاية يتم التحرك نحوها[١٤٧]. يقول قاسم أمين: إن المرأة «مستعدة بضروب من الاستعداد إلى ضروب من الكمال، وإنها سارت وتسير في طريق الكمال التدريجي، متنقلة من منزلة إلى أرقى منها، ومن مرتبة إلى أرفع منها»[١٤٨].

كل هذه سمات شكلية لا تدلنا على تعريف الكمال، فعلينا أن نتجه إلى البحث عن مضمونه فيما بين سطور قاسم أمين، لكى نعرف على نحو أقرب وأدق ما يقصده بالكمال. وربما نبدأ من معنى «التحسن» الذى التقينا به منذ قليل. ولكن أى تحسن؟ وتحسن فى أى شأن؟ وهل نستطيع العثور على مضمون الكمال فى إشارات قاسم أمين المتكررة إلى التقدم[١٤٩] وإلى «الترقى والتهذيب»، ترقى العقول وتهذيب النفوس؟[١٥٠] أو فى إشاراته المتعددة إلى «تنمية القوى المودعة فى الإنسان؟»[١٥١] وهل نقبل تعريفاً للكمال قوله إنه «التغير والتحول، بل الحركة المستمرة، إلى جهة الترقى [التى] هى قانون الحياة الإنسانية التى خلقها الله ووهبها أعظم وسائل الارتقاء»؟[١٥٢]وهل نجد عناصر لهذا التعريف فى قوله: «إن لسير الإنسانية قوانين خاصة، يجب مراعاة أحكامها فى نمو الحياة واستكمال قواها، سواء فى الأفراد أو فى الاجتماع؟»[١٥٣].

لا شك أن هذه الإشارات جميعها تقربنا من معنى «الكمال» عند قاسم أمين، ولكننا نضع أيدينا عليه حين ندرك فى النهاية أنه يقصد بذلك «الكمال» الحالة التى وصلت إليها الحضارة الغربية، وخاصة على المستوى الاجتماعى والسياسى والأخلاقى، أو قل إنه

الطريق الذى أخذ الغرب يسير عليه الخطى. هذا هو ما تدل عليه نصوص صريحة، وإن تكن قليلة، نظراً لاعتبارات حساسية الرأى العام فى عصره بإزاء مثل هذا التوجه، والذى فهم على أنه ترك لطريق حضارتنا السابقة وتعلق بأذيال حضارة أخرى(١٥٤)، ولكنها ليست مجرد حضارة «أخرى» فى نظر قاسم أمين، بل هى النموذج والدليل وهى قمة تطور الإنسانية. يقول: «لا نرى مانعا من السير فى تلك الطريق التى سبقتنا فيها الأمم الغربية، لأننا نشاهد أن الغربيين يظهر تقدمهم فى المدنية يوما فيوما... [وأن بلادهم] هى التى تسير كالدليل أمام الأمم الأخرى، وتهديها فى سبيل الكمال فى المدنية»(١٥٥). وهو يقصد الحضارة الغربية حين يقول: «وهاهو الإنسان لم يزل صاعدا مرتقيا متنقلا من دور إلى دور، حتى وصل إلى هذه المدنية الجميلة، التى جعلته سيد الكون وأشرف المخلوقات، وسيستمر كذلك بإذن الله، إلى حد لا يعلمه إلا هو»(١٦٥). وفيما يخص المرأة على الخصوص فإنه، بعد الإشارة إلى ما تطور إليه وضعها فى الغرب، يقول: «غاية ما نسعى إليه هو أن تصل المرأة المصرية إلى هذا المقام الرفيع، وأن تخطو هذه الخطوة على سلم الكمال اللائق بصفتها، فتمنح نصيبها من الرقى فى العقل والأدب، ومن سعادة الحال فى المعيشة»(١٥٧).

ولمن يكون الكمال؟ لا يكفى أن نقول إنه للإنسان، فهو تعبير عام وشبه فارغ. صحيح أن الكمال إمكان قائم أمام «كل» إنسان، ولكن يبقى تحديد الجهة أو الجهات التى سيتجسد فيها الكمال. إننا نجد قاسم أمين أحيانا ما يقول إن الكمال يكون للنفس الإنسانية(١٥٨)، أو هو يكون للعقل فى أحيان أخرى(١٥٩)، أو للوجدان(١٦٠). وهناك نص طريف يجمع فيه قاسم أمين بين دور العقل ودور الشعور أو الوجدان فى التوجه نحو الكمال، أو فى تنمية «الميل» إليه: «فن التصوير والرسم له فائدة لا تقل عن فائدة العلم، لأن العلم يعرفنا الحقيقة، وهذا الفن يحببها إلينا، لأنه يبديها لنا على الشكل الأكمل الذى يتخيله صاحب الفن، فيبعث فينا بذلك الميل إلى الكمال»(١٦١). ونشير أخيرا، إلى أن قاسم أمين يجعل من الوصول إلى الكمال حقا لكل إنسان: «لكل نفس حق طبيعى فى تنمية ملكاتها الغريزية إلى أقصى حد ترمى إليه باستعدادها»(١٦٢).

والحديث عن أداة البحث عن الكمال عند قاسم أمين موضوع له ما يبرره، لأن النصوص تتطرق إليه، ولو على نحو غير مباشر معظم الوقت. ويبدو أن القوة أو الملكة التى فى الإنسان والتى تقابل غاية الكمال وتدفع إلى الميل إليها، هى بالفعل، على نحو ما أشرنا للتو، الشعور أو الوجدان، خاصة وقد سبق لنا أن رأيناه يقول:

«الكمال الذى... يلتمسه الوجدان»[١٦٣].

خامسا: معياران للمفاضلة فى الاختيار والسلوك:

إذا كان الكمال هو قطب الرحى فى الحياة الإنسانية، فإن الحرية والمنفعة العامة هما المعياران اللذان يقبلهما قاسم أمين لقياس المناسب وغير المناسب فى اختياراتنا الأخلاقية والاجتماعية عامة، وفى شتى ألوان السلوك فى الحياة. والقاعدة عند قاسم أمين أنه حين يظهر قولان فى صدد مسألة ما، «فمن الصواب أن يرجح القول الموافق للحرية الإنسانية وللمصلحة العامة»[١٦٤].

وحديث قاسم أمين عن الحرية حديث طويل، ولكنا لن نشير منه هنا إلا إلى أهم عناصره وما يتناسب منها مع منظور الحديث عن الأخلاق الجديدة[١٦٥]. ويمتاز هذا الحديث بأنه مباشر، فأهمية الحرية أنها «قاعدة ترقى النوع الإنسانى ومعراجه الى السعادة، ولذلك عدتها الأمم التى أدركت سر النجاح من أنفس حقوق الإنسان»[١٦٦]. وأما تعريفها، فإنه ينص عليه نصاً: «من المعلوم أن المقصود من الحرية هنا هو استقلال الإنسان فى فكره وإرادته وعمله، متى كان واقفا عند حدود الشرائع محافظا على الآداب، وعدم خضوعه بعد ذلك فى شىء لإرادة غيره، اللهم إلا فى أحوال مستثناه، كالجنون والطفولية»[١٦٧]. ومن المفهوم أن الحرية حق

طبيعى، بل هى فطرية فى الإنسان[١٦٨]. وقاسم أمين يعتبر الحرية من غايات الكمال الإنسانى: «صارت غاية التمدن أن ينال الفرد أقصى ما يمكن من الاستقلال والحرية»[١٦٩]. وأما الملكة المقابلة للحرية فإنها الوجدان[١٧٠]. ويطبق قاسم أمين معيار الحرية فى مسألة هامة من مسائل بحثه، وهى حجاب المرأة، فيقول: «لو لم يكن فى الحجاب عيب إلا أنه مناف للحرية الإنسانية... لكفى وحده فى مقته وفى أن ينفر منه كل طبع غُرز فيه الميل إلى احترام الحقوق والشعور بلذة الحرية»[١٧١].

وأما المنفعة كمعيار للاختيار فى الحكم والسلوك، فإنه يقصد بها المنفعة العامة للجماعة ككل، ويستخدم فى نفس المعنى تعبير «المصلحة» و«المصالح»، وهى الاصطلاحات المعروفة فى الفقه الإسلامى. وهو يطبق هذا المعيار، هو الآخر، على نفس المسألة، وذلك من أجل الفصل بين من يقول بالتمسك بالحجاب على ما كان عليه شكله فى مجتمعه ومن يقول بإبطاله: «فأى هذين المذهبين يجب أن نختاره؟ وما هو رائدنا فى الاختيار حتى لا نقع فى عاقبة الخطأ؟ إذا استخدمنا عقولنا، واتخذنا الفكر السليم رائدا لنا، فلا شك أن نختار المذهب الذى يتفق مع مصلحتنا وتتوفر به منافعنا... لأن المنافع الصحيحة التى تقوم على قواعد الفكر السليم هى من

الحق الذى يدافع عنه الشرع، ومن المستحيل أن ما من الحقوق التى يدافع عنها الشرع يكون منشأ لضرر يعود على الناس، أو أن فضيلة من الفضائل يكون شرها أكبر من نفعها»(١٧٢). ونرى من العبارة الأخيرة مصداقا للقول بأن المنفعة العامة معيار للاختيارات الأخلاقية(١٧٣).

سادسا : السعادة وما يتصل بها :

إذا كان الكمال هو الأفق المحيط للحياة الإنسانية، فإن السعادة هدف مباشر، وهو هدف يصاحب تحققه الكمال أو ينتج عنه، ويصبح بهذا معياراً آخر من معايير الاختيار والحكم، بل هو يبدو أحياناً معياراً له من القوة مثل المعيار الحرية، أو أعلى: «إن الإنسان ترقى فى فكره، فهو يرى فى تسليم نفسه إلى تصرف الحاكم أمر لا تسلم به منزلته من الإنسانية، ولا يتفق مع راحته وسعادته، ولهذا فهو لا يقبل أن يتنازل لأحد عن حريته»(١٧٤). ونلاحظ أن «الترقى» هنا يشير إلى طريق الكمال، وأن رفض التنازل عن الحرية هو نتيجة للحفاظ على السعادة. وتبدو السعادة أيضا عنصراً ملازماً للكمال على الأقل، وأنها غاية هامة لها من الأدوات الهامة ما لها : «حسن التربية واستقلال الإرادة هما

العاملان فى تقدم الرجال فى كل زمان ومكان، وهما مطمح كل أمة تسعى إلى سعادتها، وهما من أشرف الوسائل لإبلاغها من الكمال ما أعدت له»[١٧٥]. ونرى من هذا أن السعادة تكون للفرد[١٧٦]. وتكون للأمة أيضا[١٧٧]، كما أنها على علاقة قوية بالعلم والتعليم عامة[١٧٨]، وبالعقل خاصة[١٧٩]. وهناك سعادات نوعية، منها مثلا سعادة الطفل[١٨٠]، ولكن أهم تقسيم للسعادة عند قاسم أمين، وإن لم يفصل فيه، هو ذلك الثنائى إلى مادية وروحية[١٨١]. ونلاحظ أن قاسم أمين يهتم بالتأكيد على المنبع الذاتى للسعادة: «يجب أن تربى المرأة على أن تجد أسباب سعادتها وشقائها فى نفسها، لا فى غيرها»[١٨٢]. أخيراً، فإن قاسم أمين لا يتحدث عن الخير إلا فى مرات معدودة[١٨٣]، بينما إشاراته إلى السعادة عديدة ومتكررة، ويبدو على كل حال وكأنه يعتبرها أمرين مترابطين: «فريق المحافظين وفريق المصلحين، كلاهما يريد الخير ويطلب السعادة للنوع، ولكنهما يختلفان فى طريق الخير وسبل السعادة»[١٨٤].

من جهة أخرى، فإن السعادة والتمتع من الأمور المترابطة فى ذهن قاسم أمين، ومعهما اللذة هى الأخرى، وما يرتبط بكل هذا من سرور ومحبة. انظر إلى هذا النص القصير الذى تجتمع فيه كل هذه المفهومات إلى جوار مفهوم الكمال: «أيتم كمال الرجل إذا

كانت المرأة ناقصة؟ وهل يسعد الرجال إلا بالنساء؟ نحن حرمنا أنفسنا من أكبر لذة فى الدنيا، وهى التمتع بمحبة ذوى القربى من النساء. كل منا يذوق حلاوة الساعات التى تمر به بدون أن يشعر بها حينما يطول الحديث بينه وبين صديق له... فهذا السرور يتضاعف بلا شك إذا وجد هذا التوافق بين رجل وأمه أو أخته أو زوجته»(١٨٥). ويدل هذا النص على المضمون الواسع للسعادة والمتعة واللذة والمحبة عند قاسم أمين(١٨٦). إن هذا كله يتوافق مع اهتمامات قاسم أمين الأساسية، والتى عرضنا لها من قبل عند حديثنا عن تأكيده على مفاهيم الحياة والدنيا والجسم والحواس والعواطف والوجدان، وهو فى هذا مجدد أقوى تجديد فى توجهات الفكر المصرى الحديث، بل والحساسية المصرية الحديثة، وربما كان وراء هذا كله مسلمة ينطلق منها تفكيره بأسره، ضمن مسلمات أخرى، وقد أثبتها إثباتا على نحو عرضى أثناء حديثه عن الحجاب حين قال: «خلق الله هذا العالم، ومكن فيه النوع الإنسانى، ليتمتع من منافعه، بما تسمح له قواه فى الوصول إليه»(١٨٧).

المبحث الثالث

مبادئ الأخلاق الجديدة

أولا : الذات الإنسانية واستقلالها :

ليست كلمة «الذات» من المصطلح المختار المتكرر عند قاسم أمين، ولكنها هي التي تعبر، بلغتنا، أكثر من غيرها عن تصوره للكيان الإنساني المأمول، ومع ذلك فإنها موجودة على قلمه على نحو مباشر مرتين على الأقل، كما في قوله: «العوامل التي تتركب منها الذات الإنسانية[١٨٨]، ومرات عدة في تعبيرات غير مباشرة، من مثل «نفس تحترم ذاتها»[١٨٩]، و«قيمة الشخص في ذاته»[١٩٠]. وهو كثيراً ما يستخدم مجرد «الفرد»[١٩١]، أو «الإنسان»[١٩٢]. واستخدامه لهذه الكلمة الأخيرة أكثر تكراراً في المواضع الاصطلاحية، ولكن يبدو أن المضمون الأقوى يذهب إلى كلمة «النفس»، وهي تقابل عنده استخدامنا لكلمة «الذات». إن الكيان المأمول هو «الإنسان الشاعر بنفسه»[١٩٣]، أي الذي يعي إنسانيته مع ما تحمله من واجبات وحقوق وقوى قابلة للتنمية إلى درجة

الكمال، على أن يضاف إلى هذه السمة أن يكون الإنسان «نفسا تحترم ذاتها»[١٩٤]. ويستخدم قاسم أمين أيضا كلمة «الشخص»، ولكن على نحو أقل وروداً، مثلما هو الحال فى حديثه عن «قيمة الشخص فى ذاته»[١٩٥]، ثم هناك الصفة منها فى تعبير هام مثل «الحقوق الشخصية»[١٩٦]. أما «الصفوة»، ولا نعتقد أن هذه الكلمة مما يستخدمه قاسم أمين، فإنه يستخدم للدلالة على معناها، تعبير «ذوو النفوس الممتازة»[١٩٧].

هذه النفس الواعية بذاتها والمحترمة لها تتسم بسمة هى أولى سمات الذات الإنسانية الكاملة، وهى الاستقلال. يقول عن المجتمعات التى وصلت إلى أعلى درجات المدنية، وعن الصفات التى أصبحت للنساء فيها: «كلها نفوس شعرت أنها حقيقة بالاستقلال، فهى تبحث عن الوسائل لنيله، وأنها جديرة بالحرية، فهى تسعى للوصول إليها، وأنها من نوع الإنسان، فهى تطالب بكل حق للإنسان»[١٩٨]. وأنت ترى كيف أنه وضع الاستقلال فى الموضع الأول[١٩٩]، وإن لم يكن لهذا الترتيب من مغزى حاسم، لأننا نرى قاسم أمين يستطرد بعد سطور ليقول: «سبق الشرع الإسلامى كل شريعة سواه فى تقرير مساواة المرأة للرجل، فأعلن حريتها واستقلالها يوم كانت فى حضيض الانحطاط عند جميع

الأمم، وخولها كل حقوق الإنسان»[٢٠٠]. وهناك أيضا الرجل المستقل، وهو تجسيد لمعنى بلوغ الرشد: «حتى يبلغ الطفل رشده، أو بعبارة أخرى حتى يكون رجلا مستقلا بنفسه، ثم يتولى هو تربية أخلاقه»[٢٠١]. ويستخدم قاسم أمين تعبيرا أقوى، هو «الاستقلال الذاتى»، ويجعل فى مقابله الخضوع للسلطات، وخاصة تلك السياسية، فضلا عن الأفراد الآخرين، مما يجعل مضمون الاستقلال واضحا: فهو ألا يتدخل أحد غير الفرد فى أمور الشخصية. يقول: «إذا أرادت الحكومة، أو أى فرد من الناس، أن يتدخل فى عمل من أعماله أو شأن من شئونه الخاصة، فإنه يشعر بثقل الضغط عليه، ويجد فى نفسه ألم الظلم»[٢٠٢]. ومن الواضح من كل ما سبق وثاقة الصلة بين صفة الاستقلال وصفة الحرية[٢٠٣]. وسنعود من بعد إلى تفصيل خصائص نموذج الإنسان الجديد، ولكن كان لابد من إبراز صفة الاستقلال، لأنها تبدو فى كتابات قاسم أمين ذات أهمية خاصة، كيف لا، وهى عنده غاية التربية: «الاستقلال فى النساء، كالاستقلال فى الرجال، يرفع الأنفس من الدنايا ويبعد بها عن الخسائس، لذلك يجب أن يكون هو الغاية التى نطلبها من تربية النساء»[٢٠٤].

ثانيا : أخلاق باطنية :

يمكن أن تثبت الدراسات المقارنة أن قاسم أمين ربما تأثر تأثيراً مباشراً إلى درجة أو أخرى، بالفكر واتجاهات الحضارة عند الإنجليز أو غيرهم، وفى القرن التاسع عشر الميلادى بخاصة، فى صدد أمور من مثل مفهوم الكمال أو مفهوم الترقي أو مفهوم المنفعة العامة وغيرها، ولكننا نستطيع أن نقول إن من المواضع التى يظهر فيها طابع قاسم أمين الشخصى فى فكره هو هذا الموضع الذى نتناوله الآن، ألا وهو ميله إلى التأكيد على قيمة الأخلاق الباطنية على تلك الخارجية، أى على أخلاق المشاعر والدوافع الداخلية بإزاء أخلاق التصرفات الظاهرة.

وكما هى العادة معظم الأحيان، فإن قاسم أمين لا يقدم تعريفا مباشراً للمفاهيم التى ندرسها، والتى نعيد نحن صياغتها فى كثير من الأحيان ابتداء من معطيات نصوصه، كما هو الحال مع المفهوم الحالى. ولذلك، ومع هذه الحالة بصفة أخص، يصعب أن نحدد تحديداً قاطعاً مضمون هذا المفهوم إلى أبعد من الإشارتين اللتين اختتما الفقرة السابقة. وسنلجأ هنا إلى استعراض أمثلة على توجهه هذا، على غير تنظيم مخصوص، وبمتابعة محض تتالى كتبه على التقريب.

سبق أن أشرنا، أثناء الحديث عن السعادة وما يتصل بها، إلى النص الذى يتحدث عن التمتع بمحبة ذوى القربى من النساء، وفيه يشير قاسم أمين إلى نموذج الحديث مع صديق حقيقى، ولم نثبت هناك سطراً لم يكن دالاً على المقصود حينذاك، ولكنه دال كثيراً على مفهوم الأخلاق الباطنية، وهو الذى يقول: «وتختلط أنفسنا بعضها ببعض حتى يذهل كل عن أيهما يتكلم وأيهما يسمع»(٢٠٥)، فليس المهم هو الكلام، أى السلوك الظاهر وما فيه من سيطرة على الآخر، إنما المهم فى العلاقات الإنسانية التفاهم المتبادل والتوافق الذى يكتفى فيه أحياناً بمحض الصمت، ولكنه الصمت المليئ بالتواصل. ويترجم عن نفس التفضيل للباطنى دون الظاهرى نص يتحدث هو الآخر عن التواصل، ولكنه هذه المرة بين الرجل والمرأة فى حالة الحب الحقيقى، وهو يبدأ حسياً، أو مادياً على ما يقول أحيانا قاسم أمين، ولكنه يتحول ليستقر «روحانيا». ومن الواجب إثبات هذا النص الطويل بعض الشىء لأهميته ولدلالاته المباشرة على مقصدنا، فضلا عن كونه أحد المواضع العديدة التى يتحول فيها قاسم أمين من مفكر إلى مفكر أديب، وربما كان وراء هذا كله رنة تعبير شخصى إلى درجة أو أخرى. يقول عن الانجذاب الغريزى الذى هو الحب وهو فى الطريق إلى أن يتحول إلى «عشق»

«يرجح ويستمر قاسم أمين، وفي نفس هذا السياق ، لكي يميز بين اللذة الجسمانية وتلك المعنوية، وهي الأعلى، وهي ذات مزايا عظيمة تمتاز بها على سابقتها، من أهمها أنه يمكن تجددها في كل آن، بينما ليس الحال كذلك مع اللذة الجسمانية. وأداة اللذة المعنوية هي «الروح»، ومظهرها العقل والذوق والعاطفة على السواء، على ما يبدو من حديث قاسم أمين، كما أن اللذات المعنوية تتوالد على نحو تلقائي وتغتني بمحض وجودها(٢٠٧). ويختم قاسم أمين هذه المعالجة الدقيقة اللطيفة بإثبات أولوية «الحب الشريف»، «الحب الحقيقي»، أي ذلك المعنوي، على الحب الغريزي ذي المظهر الظاهر البادي للعيان: «من هنا يعلم مقدار سلطان الحب الحقيقي على الإنسان، وكيف أن العارف يعتبر العثور على ذلك الحب الشريف من أكبر السعادات في هذه الدنيا»(٢٠٨). بل ويختم على الفور بجملة تشكل هي بذاتها برنامج التعارض بين الخارجي والباطني والظاهر والروحاني: «فإذا كان المال زينة الحياة، فالحب هو الحياة بعينها»(٢٠٩). وكان قد أشار من قبل إلى نوعين من «النظافة، أي الطهارة على ما يبدو، هما «نظافة الباطن والظاهر»، فكأن مفهوم «الأخلاق الباطنية»، ينبع، على كل حال، من داخل النص القاسمي ذاته، فضلا عن توافقه التام مع مقاصد فكر قاسم أمين.

ونحن نجده يقابل ما بين قشور تعلم الفرنسية، أو ظن الترقى بوسيلة القدرة على الإمساك بالسيجارة ومتابعة دخانها، عند بعض فتيات الطبقة العالية فى عصره، وبين التعليم الحقيقى: «أين هذه القشور من الحقائق العلمية التى يتغذى منها العقل ويتقوى بها على مطاردة الوهم؟»(٢١١). فهنا أيضا تجدنا أمام مظهر وحقيقة، خارجى وباطنى(٢١٢). ونفس التقسيم نجده بصدد طبيعة حالة العفة، فهناك العفة القهرية التى تقال عن امرأة محبوسة لم تختبر، والعفة الحقيقية التى تثبتها المرأة التى اختلطت بالناس، بل إن العفة الحقة إنما هى «خلق للنفس» فى المحل الأول. يقول فى كل هذا: «بديهى أن المرأة التى تحافظ على شرفها وعفتها وتصون نفسها عما يوجب العار، وهى مطلقة غير محجوبة، لها من الفضل والأجر أضعاف ما يكون للمرأة المحجوبة، فإن عفة هذه قهرية، أما عفة الأخرى فهى اختيارية، والفرق كبير بينهما. ولا أدرى كيف نفتخر بعفة نسائنا ونحن نعتقد أنهن مصونات بقوة الحراس واستحكال الأقفال وارتفاع الجدران؟ أيقبل من مسجون دعواه أنه رجل طاهر لأنه لم يرتكب جريمة وهو فى الحبس؟... إن العفة هى خلق للنفس تمتنع به من مقارفة الشهوة مع القدرة عليها»(٢١٣). ثم ينتهى قاسم أمين إلى المقابلة بين العفة المظهرية وتلك الباطنية، أى

العفة الروحية: «ماذا يفيد الرجل أن يملك جسم امرأته وحده إذا غاب عنه قلبها؟ أيستطيع أن يمنعها أن تتصرف فيه وتبذله لأى شخص تريد؟ فإذا رأت امرأة من الشباك رجلا فأعجبها، ومالت إليه بقلبها، وودت أن تواصله لحظة، أفلا يعد هذا، فى الحقيقة، من الزنا؟ ألم يتمزق حجاب العفة فى هذه اللحظة؟ وهل بعد المسافة بينها وبين الرجل وعدم تمكنها من مواصلته يسمى عفة؟ نعم، إن الشرائع لاتعاقب ولا تقيم الحد على زنا العين والقلب، لأن العقوبات والحدود لا سلطان لها على الخواطر والقلوب»(٢١٤). ثم يهاجم فى الصميم الأخلاق المظهرية التى تقبل بظاهر الحجاب وحسب، وتتغافل عن الوقائع المخزية التى تجرى فيما وراء حجاب: «ما الذى فعل الحجاب؟ ألم نسمع بما يجرى فى داخل البيوت مما ينافى العفة ويخل بالشرف؟ هل منع البرقع وقصر النساء وراء الحجاب والاقفال سريان الفساد إلى ماوراء تلك الحجب؟ كلا»(٢١٥).

ويعود إلى العلاقة بين الزوجين ليعلى من الرابطة الروحية فوق العلاقة الجسدانية: «متى تهذب العقل ورق الشعور فى الرجل والمرأة، لا تقتنع نفوسهما بالاختلاط الجسدانى وحده، بل يصير أعظم همها طلب الائتلاف العقلى والوحدة الروحية»(٢١٦).

أما عن السعادة، فإن مصدرها ينبغى أن يكون داخليا وليس

خارجيا، سواء عند الغير أو فى حيازة أشياء: «يجب أن تربى المرأة على أن تجد أسباب سعادتها وشقائها فى نفسها، لا فى غيرها»[٢١٧]. ثم إن تربية الشعور عامة والذوق خاصة من الأمور الواجبة التى لا تكتمل التربية إلا بها، وعنها ينتج الميل إلى الاهتمام بالفنون الجميلة[٢١٨]. والتعريف المباشر الذى يثبته قاسم أمين للذوق، وفى مذكراته الخاصة، يتم فى إطار المقابلة بين الظاهر والباطن، والمظهرى والحقيقى، والخارجى والداخلى: «من أعظم ما يصاب به المرء أن يحرم من الذوق السليم. الذوق السليم هو هذا الإحساس الفطرى الذى ينمو ويتهذب بالتربية. هو الشعاع اللطيف الذى يهدى صاحبه إلى أن يقول ويفعل ما يناسب المقام ويجتنب ما لا يناسبه»[٢١٩]. ونلاحظ، كما سنرى من بعد فى مكانه، أن قاسم أمين يقابل ما بين التعليم وبين التربية، ويعلى من شأن هذه الأخيرة[٢٢٠]، وهى مقابلة بين ما هو أقرب إلى الظاهر وما هو أقرب إلى الباطن. بل إنه ينص على الاهتمام «بتربية الروح»، ويجعل مجرد «إدراك» الحسن والقبيح، وهو أمر تعليم، درجة أدنى من التطبع بطبع الميل إلى فعل هذا وتجنب ذاك[٢٢١]. أخيراً، فإن القارئ لمذكراته الشخصية المطبوعة فى «كلمات» يرى فى الكثير من خواطره، ومن الحِكَم التى يثبتها، سواء كانت من سكّه أم

منقولة عن آخرين، هذا التوجه نحو الإعلاء من شأن ما هو باطني وداخلي وحقيقي.

ثالثا : أخلاق إرادية :

كان فشل الحركة العرابية سبباً عظيماً في سيادة روح اليأس بين المصريين، وهو ما أضيف إلى ماكانت الثقافة التقليدية قد انتهت إلى تكريسه من روح التواكل والقول السلبي بالقضاء والقدر والنكوص عن السعي إلى حد إلغاء الإرادة، لأن العبد يريد والألوهية تريد، وشتان ما بين القدرتين. ونلاحظ أن عودة عبد الله النديم إلى الحياة العامة في مصر، مع إصداره لمجلته «الأستاذ» (١٨٩٢ - ١٨٩٣م)، قد تزامنت مع الانتباه إلى ضرورة إصلاح هذا الوضع والدعوة إلى نزع روح اليأس، مع ما يصاحب هذا من استثارة الإرادة، وهو لحن سيعزف عليه، كل من جهته، قاسم أمين ومصطفى كامل على السواء، في السنوات التالية على ذلك التاريخ[٢٢٢]. ويظهر من الآن الترابط القوي ما بين الدعوة إلى قوة الإرادة من جهة، وهو ما نعالجه في هذا القسم، وإلى الإقبال على العمل من جهة أخرى، وهو ما سنعالجه في قسم تال.

والإرادة قوة نفسية ، ولكنها تظهر وتتجسد ، بشكل خاص، عند

الاختيار بين بدائل متعارضة. ولهذا، فإن مفهوم الإرادة عند قاسم أمين كثيراً ما يرتبط بعملية الصراع مع قوى نفسية أخرى، من مثل الهوى والشهوة: «الإنسان أسير الشهوات مادام حيا، وإنما تختلف شهواته باختلاف سنه، فشهوة اللعب عند الطفل، وشهوة الحب عند الشاب، وشهوة الطمع عند رجل الأربعين، وشهوة السلطة عند شيخ الستين، جميعها تعرض صاحبها للهفوات واقتراف الخطايا. متى وقع فيها أحدنا يجب عليه أن لا يترك نفسه إلى تصرفها، ولا يستصعب الخلاص منها، ولا ييأس من نفسه، بل عليه أن يقاومها كما يقاوم المريض علته. عليه أن يوجه إرادته إلى مصارعتها والتغلب عليها»[٢٢٣].

وأحيانا ما تبدو الإرادة على هيئة ملكة الحكم، وهو ما يظهر من تعبير «استقلال الإرادة»[٢٢٤]، أى عدم خضوع الحكم لتوجيه من مصدر ما. ونتذكر أن تعريف الحرية هو «استقلال الإنسان فى فكره وإرادته وعمله»[٢٢٥]. فاستقلال الإرادة هو ضد الخضوع[٢٢٦]. كما أن الإرادة تعمل فى نطاق الممكن، وهناك أمور لا تستطيع إرادتنا التدخل فيها، من مثل قوانين الطبيعة وقوانين الحياة الإنسانية[٢٢٧]. فللإرادة حدود.

ويستخدم قاسم أمين كلمتى «العزيمة» و«الهمة» إلى جوار كلمة

«الإرادة» وكمرادف لها، كما يبدو من هذا النص الذى ربما كان أقرب النصوص إلى توضيح ما يقصده قاسم أمين بالإرادة: «وأما العزيمة فهى حث الإرادة إلى كل خير أرشدنا إليه العلم والعرفان، والفرار بها من كل شر دل عليه البحث والتنقيب. العزيمة هى أشرف قوى الإنسان وأجلها وأعظمها أثراً فى أعماله... ولهذا كان ضعف الإرادة أكبر عيب فى الإنسان»(٢٢٨).

ونرى من هذه السطور أن الإرادة قد تحمل فكرة أو تحرك عملا، وربما كان من وراء هذا كله أمر أعم، وهو تحقيق الخبر بوجه عام، حيث يعرف قاسم أمين «تربية الروح»، فى مقابل «تربية العقل»، بأنها «توجيه الإرادة إلى الخير»(٢٢٩)، فكأن الخير هو مقصد الإرادة الأخير.

ونرجع إلى نحو عمل الإرادة. وقد رأينا أنها تفترض فى المعتاد طرفا آخر تتصارع معه، سواء كان من خارج النفس أم من داخلها، وفى هذا الميدان الأخير تدور معظم الأمثلة التى نقابلها فى نصوص قاسم أمين. ولعلنا نجد وصفا تعريفيا عاما لعمل الإرادة عند مستوى أولى، ربما نسميه مستوى «المداولة»، حيث يشير قاسم أمين، بدون استخدام كلمة «الإرادة»، إلى حالة من «يهم» أن يعمل عملا مخالفا للآداب، فيجد «نازعا» فيه يدفعه إلى النظر فى ذلك

الأمر من حيث آثاره ومزاياه ومضاره، ثم نراه يرجع إلى نفسه من بعد هذا ليرى إن كان ذلك الفعل يصح لها أو لا يصح، ثم يتخذ قراره(٢٣٠). ويهتم قاسم أمين كثيراً بمفهوم «ضبط النفس»، وهو أهم أركان الأدب عنده(٢٣١)، ويسميه أحيانا «قوة الحكم على النفس»(٢٣٢)، أو هو «جهاد النفس»(٢٣٣)، بل هو «مصارعتها والتغلب عليها»(٢٣٤). ومن الواضح أن قاسم أمين يجعل ضبط النفس هذا عملا مشتركا بين الإرادة والعقل، أو أنه عمل تقوم به الإرادة تحت توجيه العقل، حيث نراه يتحدث عن انفلات «زمام هوى النفس من سلطة العقل»(٢٣٥)، بدون أن يشير هنا إلى الإرادة مباشرة، وإن كان دورها مفهوما أو ضمنيا. وهو يشير إلى دور الإرادة تصريحا في مجال «ضبط الشهوة» و «قهر النفس» و «قهر الهوى»، حيث أن وضع كل ذلك «تحت سلطان العقل» يتطلب «قوة عظيمة في الإرادة». وقوة الإرادة هذه ليست نتيجة لحِكَم أخلاقية يحشى بها الذهن، ولا لإقامة الحوائل المادية بين الإنسان والنقائص، وإنما هي تتولد بالتعرض للتجارب وتعود مغالبة الحوادث والتغلب عليها(٢٣٦).

وهذا الموقف الأخير هو مما يهتم قاسم أمين بالتأكيد عليه مرارا، وخلاصته أن الإرادة لا تتكون إلا في العمل وعن طريق

خوض التجارب والانتصار فيها، بل إن قاسم أمين يستخدم أحيانا فى هذا الصدد لغة الحرب صراحة، حيث أن ثبات الجأش فى ميدان الحرب لا يكون إلا لرجل حضر وقائع حربية سابقة، ورأى العدو رأى العين، وقاتل فعلاً إما مهاجماً أو مدافعاً. وكذلك الحال مع «جهاد النفس» بإزاء «استهواء الشهوات وخدائع اللذات»، فالانتصار هنا لا يكون إلا لمن مر بالتجارب الفعلية أمام تلك الشهوات واللذات، «واختبرها وتغلب عليها»، فتتكون عنده قوة الحكم على نفسه، بعد كل ذلك وليس قبله(٢٣٧). وفى مقابل انتصار الإرادة ، هناك «تلاشى الإرادة وسقوطها»(٢٣٨). إن «ضعف الإرادة أكبر عيب فى الإنسان» كما سبق ورأينا، والإنسان الكامل هو الذى يعقل ويريد معا(٢٣٩). ونحن نرى الربط بين العلم والعزيمة فى خاتمة «تحرير المرأة»، ونراه أيضا فى مفتتحه، مما يدل على أهمية الحديث عن الإرادة مع ربطه إلى أحوال المجتمع المصرى فى عصر المؤلف، حيث يقول قاسم أمين، وهو بسبيل الحديث عن «مسئولية» «المتعلمين»، إنه «لا يليق بمعارفهم ولا بعزائمهم أن يسجلوا على أنفسهم وعلى أمتهم العجز واليأس والقنوط، فإن ذلك صورة من صور الكسل، أو مظهر من مظاهر الجبن، أو حال من أحوال من لا ثقة له بنفسه ولا بأهله ولا بملته ولا بشرعه وبإلهه، وأراهم بهذا

يستسلمون إلى تيارات الأحداث، تتصرف فيهم كما تتصرف فى الجماد والنبات، وتقذف بهم إلى حيث يحبون ولا يحبون»[٢٤٠]. وفى هذه السطور إشارات إلى ارتباط المعرفة والعزيمة، وإلى أضداد الإرادة ومصاحبات ذلك، وتلميحا إلى أن استخدام الإرادة يعنى التحكم والضبط والسيطرة والتوجيه القصدى.

رابعا : أخلاق عقلية :

نظرية الأخلاق، التى تتناثر عناصرها فى كتابات قاسم أمين، هى فى جوهرها نظرية عقلية، تربط دوما بين الأخلاق والعقل[٢٤١]، وتهدف إلى وضع الحياة الإنسانية تحت توجيه «حكم العقل»[٢٤٢]. وقد سبق لنا أن عرفنا استخدامات قاسم أمين لمصطلح «العقل»، ويمكن أن نقول إن العقل عنده له وظائف الفكر والحكم والعلم على المستوى النظرى أو التصورى أو الذهنى المحض، ولكن له أيضاً، على المستوى العملى أو مستوى الحياة الفعلية، وظيفتى ضبط النفس خاصة وتوجيه العمل عامة، وعن هاتين الوظيفتين الأخيرتين يدور حديثنا الآن.

أما عن ضبط النفس، فإن قاسم أمين يتجه خاصة إلى الجانب الانفعالى فى النفس، الذى يميل إلى المغالات والهياج والاندفاع،

بغير تدبر ولا ترو، ليجعل من العقل حاكما عليه وضابطا لسلوكه، وهو فى هذا المجال قد يشير تخصيصا إلى «الشهوات» و«الهوى»، أو قد يشير عموما إلى «الحس» أو «القوى الحسية»، وقد نراه يجمع ما بين تخصيص الشهوات وتعميم القوى الحسية: فالأخلاق التأسيسية للمرأة، وللرجل كذلك ولا فرق، هى التى تجعلها تتعود على «أن تقيم من عقلها حاكما على قواها الحسية، (فيصبح) من النادر أن تحيد عن الطريق المستقيم، وأن تلقى بنفسها فى غمرات الشهوات، التى لا تسلم، مهما كانت، من الخطر والعذاب والألم»[٢٤٣]. إن الحس معرض لأن يهيج دائماً، وأحياناً ما يكون ذلك إلى أمر غير لائق[٢٤٤]، والحس، أو الإحساس، فى تصور قاسم أمين، هو الميل بغير استخدام العقل. وهو يرى أنه هو الذى كان يوجه حياة المرأة فى السابق، «فضعفت منها القوة العاقلة والمفكرة، وانفرد الحس بالتصرف فى إرادتها. فحسها هو المميز عندها بين الخير والشر، وهو الرائد لها فى الاختيار بين النفع والضرر. فهى تنفر أو تميل، فإن أحبت أخلصت لا عن عقل، وصدرت منها الأعمال الجميلة فيما تحب ولمن تحب، بمحض الهوى لا بأصالة رأى، وإن نفرت ارتكبت أكبر الجرائم غير بصيرة بالعواقب ولا عارفة بالمصائر»[٢٤٥]. وهاهى النتيجة المثبتة لعقلانية

الأخلاق عند قاسم أمين: «فلو كانت العناية أدركتها بتربية عقلها وتنمية الملكات الفاضلة فيها، لنمت بذلك قوة الحكم على إحساسها، ولتصرفت فى أعمالها على مقتضى الحكمة وقواعد الأدب»[٢٤٦]، واصطلاحاً الحكمة والأدب هنا بديلان للعقل والأخلاق. والواقع أن قاسم أمين أحياناً ما يتجه إلى ما يشبه الإدانة للحس، أو هو يدنى من مكانته كثيرا، كما فى مقابلته بين «لذة الحس» التى لا بقاء لها» و«لذة العقل والوجدان التى لا تنتهى أطوارها ولا تفنى مظاهرها»[٢٤٧].

ونأتى الآن إلى الوظيفة العملية الثانية للعقل، وهى توجيه العمل. وربما كان المجلى الجوهرى لوظيفة توجيه العمل قائما فى فعل أساسى يقوم به العقل، ويصدر على هيئة حكم، ألا وهو «حسن الاختيار». فعندما يكون المرء «تحت حكم العقل»، وبعد وصول التربية، إلى حالة «كمال العقل»، عندئذ تكون اختياراته فى الحياة بمأمن من الخطأ، فلا يخشى انتقاداً من جانب أحد[٢٤٨]. إن العقل هو الحاكم على النفس، وهو المرشد فى الحياة إلى الأعمال الطيبة النافعة[٢٤٩]، وقد رأينا أنه المرشد أيضا إلى «الطريق المستقيم»[٢٥٠]. وبوجه عام، إن العقل هو أحد موجهين كبيرين للحياة العملية فى نظر قاسم أمين، والآخر فهو الشرع الدينى، وهو

يرى عموماً أنهما لابد أن يتفقا، لأن منافع البشر واضحة[٢٥١]. إن العقل هو الملكة العليا التى تتداخل فى أعمال سائر الملكات والقوى الإنسانية الأخرى، فهى على علاقة بالإرادة»[٢٥٢] وبالشعور[٢٥٣] وبالذوق»[٢٥٠]، وبالنفس عموما»[٢٥٥]، وكذا بالجسم[٢٥٦]. إن من ثوابت مواقف قاسم أمين فى كتابيه الكبيرين تقرير تلازم «العلمى والأدبى»، أى تلازم الأحوال العقلية وتلك الأخلاقية للشخص وللأمة، صعودا وهبوطا، ومن الظاهر أنه يؤسس الثانية على الأولى[٢٥٧]. ومن نافلة القول أن قاسم أمين يقصد بالعقل دوما تلك القوة الناشطة الفاعلة العارفة المفكرة، وليس ملكة سلبية، يشبهها حينا «بالأرض البائرة التى لا يصلح فيها نبات» بعد أن «أهملنا خدمة عقولنا»[٢٥٨]، أو حينا آخر «بالمخازن»[٢٥٩].

خامسا : العمل :

الأخلاق القاسمية ليس أخلاقاً تأملية تقنع بحالات ذهنية مهما تسامت، وإنما هى أخلاق تتجسد فى أعمال وأفعال، وهى إذا كانت أخلاقا عقلية من حيث التأسيس، وأخلاق إرادة من حيث الأداة، فإنها أخلاق عملية من حيث الميدان والنتيجة، ومن حيث ارتباطها الوثيق بالحياة وبالدنيا، وبكل ما يتصل بالحركة وعالم الوقائع. ولا

شك أن شرارة انطلاق أفكار قاسم أمين حول الأخلاق كانت فحصه لدعاوى الدوق داركور، حيث عقد فى كتاب «المصريون»، فصلا، هو الفصل الحادى عشر[٢٦٠]، خصصه للرد على الكاتب الفرنسى، وعنوانه: «الأخلاق». وقد جعلته هذه الدراسة يستقصى أحوال المصريين، بل والمسلمين والشرقيين، فى عصره، وأدى به هذا التأمل والاستقصاء إلى مقالات «أسباب ونتائج وأخلاق ومواعظ» التى نشرت فى المؤيد ابتداء من عام ١٨٩٥م، وإلى اطراد تأملاته الأخلاقية فى كتابيه الكبيرين وفى مذكراته الشخصية من بعد ذلك.

وربما كانت نقطة الانطلاق النظرية فى هذا كله هى تقريره لفقد المصريين «الملكة الإقدام على العمل والمخاطرة فى الشغل»، بما يؤدى إليه هذا من «عدم تشغيل الجسم وتحريك الأعضاء»، ومن «كسل وخمول»، حتى ضعفت قوانا، «ولا نلبث أن نشعر ونحس بعجز أنفسنا»[٢٦١]. فأراد قاسم أمين أن يعيد تقييم العمل والنشاط، سواء فى مقالات «أسباب ونتائج»، والتى عنون الثالث منها بعنوان : «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا» (ص ٢٥ – ٢٨)، أو فى كتابى «تحرير المرأة» و «المرأة الجديدة»، حيث يتسع تصوره عن مفهوم «العمل» ليصير أوسع من مجرد «الشغل»، على ما

سنرى على الفور.

ذلك أن اصطلاح «العمل»، وهو كثير الورود في كتابات قاسم أمين في حالتي المفرد والجمع على السواء، يحمل عدداً من المعاني المنوعة تختلف بحسب المواضع والسياقات في تلك الكتابات. ويمكن أن نرد هذه المعاني إلى أربعة:

أ - فقد يكون المقصود من «العمل» هو محض الفعل أو مطلق المعنى، كما في حديث قاسم أمين عن البعض أنهم «يريدون التخلص من مشقة العمل»[٢٦٢]، أو في تقريره أن «الإرادة تعمل»[٢٦٣]، أو في تعداده «حرية القول والكتابة والعمل»[٢٦٤]، وغير ذلك كثير.

ب - وقد يكون المقصود هو «الشغل»، أي القيام بنشاط منتظم من أجل كسب العيش، كما هو الحال في مقال «اعمل لدنياك...» المذكور.

جـ - وقد يكون المقصود هو المرور بالتجارب الفعلية والخبرة بالدنيا، حيث «المعاملات والاختبار وممارسة الأعمال»، التي تؤدي إلى احراز معارف كثيرة[٢٦٥].

د - وقد يكون المقصود أخيراً إنتاج الجديد في دنيا الإنسان بما ينفعه، كما في إشاراته إلى الرجل المهتم بمصالح أمته، «وله

عزيمة تدفعه إلى العمل فى جلب ما ينفعها ودفع مايضرها»[٢٦٦].

وجماع هذا كله هو معانى النشاط والحركة والفعل والتفاعل مع الأشياء والبشر وإظهار الجديد، وذلك فى مقابل السكون ومحض التأمل أو حتى مجرد الكلام.

ويظهر من طريقة تناول قاسم أمين لهذا المفهوم أنه يعتبر أن العمل قيمة بذاته، ولهذا فإنه يمجد كل ما يتصل به على نحو إيجابى. فهو يمجد «الجهد» و«الجهاد»[٢٦٧]، وينص على الآية القرآنية: «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى»[٢٦٨]، أما حديث «اعمل لدنياك...»، فإنه «أجزل وصية نطق بها الإنسان للإنسان»[٢٦٩]، وهو ينص على أن العالم الحقيقى الحى إنما هو «عالم الفكر والحركة والعمل»[٢٧٠]، بل إن التربية عنده إنما هى «العمل المستمر الذى تتوسل به النفس إلى طلب الكمال من كل وجوهه»[٢٧١]. وهاهى صورة الفرد النموذجى: إنه «يشتغل فى النهار ويفكر فى شغله بالليل.. وتربى على أن يعتمد على نفسه.. فالتربية والعادة قد أوجدتا فيه الإقدام على الشغل والعمل. فهو يتفكر فى كل شىء، ويلاحظ كل شىء، ويجرب كل شىء... فهو على كل حال حى ثابت عامل، جسمه يتحرك، ومخه يؤدى وظيفته...»[٢٧٢]. ثم هاهى صورة المجتمع

الجديد العامل: «أقبل أفراد الأمة رجالا ونساء بعضهم على بعض يتنافسون... فمنهم المتنافسون في المجد بالعلم، ومنهم المتسابقون إليه بالثروة، وفيهم المجدون في طلبه بالصناعة والتجارة والزراعة، واتسع الميدان لتجادل العقول... ثم تتبع هذه الحالة كثرة الحاجات، وأصبح المقصر في سعيه، الساقط في عزمه، القاعد في كسله وجهله مهدداً بالموت، محفوفاً بخطر العدم. وفتح على الناس بذلك باب جهاد جديد: فأهل البلد الواحد يتزاحمون في طرق الكسب، ويتدافعون في سبيله بوسائل العمل وحيل العقل... وما هذا الجهاد بالهيِّن السهل، بل هو مما يحتاج إلى إعمال القوى العقلية والبدنية... »[٢٧٣]. إن المجتمع النموذجي هو الذى تكون جميع أعضائه «حية عاملة قائمة بوظائفها»[٢٧٤].

لقد انتبه قاسم أمين إلى فكرة طريفة قوية تؤكد أهمية العمل باعتباره قيمة مطلقة، وهي أن التعلم لا يكفى بحد ذاته، إذا أردنا به وضع المعارف فى الادماغ، وإنما هو يتثبت ويكتمل بالعمل، أى بالنشاط الفعلى فى العالم، بل إن أكبر فائدة يخرج بها الناشئ من طور تعليمه الأول «إنما هى التعود على العمل وحب استطلاع الحقائق»[٢٧٥]. وهناك ما هو أطرف: إن قاسم أمين يرى أن هناك علما أسمى مما يتعلمه المرء فى المدارس، ألا وهو «علم الحياة»،

والذى وسيلته الاختلاط مع الناس واختبارهم واستعراف أخلاقهم[٢٧٦]، أى العلم الناتج عن العمل والممارسة، ثم إن هذه التجارب والاختبارات هى أساس الأخلاق الحقيقية[٢٧٧]، على ما مر بنا[٢٧٨]. ولكن للعمل أهمية فوق هذا كله، هى أنه أساس كبير لسائر جوانب حياة الإنسان: «إن جميع أعمال الإنسان، مهما اختلفت وتنوعت، هى صادرة عن أصل واحد، وهو عمله وإحساسه»[٢٧٩].

وقد مر بنا ترتيب قاسم أمين لشتى أشكال أعمال الإنسان، بحسب الجهة التى تتصل بها، فهناك أعمال تتجه إلى ذاته وإلى حفظ حياته، وأعمال تفيد أسرته، وأعمال تفيد المجتمع[٢٨٠]. أخيراً، فان قاسم أمين يؤسس تأكيده على قيمة العمل الإنسانى برفض التصور الشائع عن القضاء والقدر، الذى يرى أن «ليس للإنسان أن يعمل لمصلحة نفسه»، وأثبت نصا للشيخ محمد عبده يبدأه بقوله : «طالب الإسلام بالعمل كل قادر عليه...»[٢٨١].

سادسا : الفضائل :

يستخدم قاسم أمين كلمات الفضيلة والفضائل و «خلال الفضائل»، من «الخلة» أى الصفة، والفاضل، وكذا «محاسن

الآداب»، و «الآداب الحسنة»، و «الطريق المستقيم»، بل ويستخدم اصطلاح «الأدب» بما يدل على مجموع الفضائل[٢٨٢]، ويستخدم «كمالات ونقائص» بما يقابل الفضائل والرذائل[٢٨٢]، ويستخدم مرة على الأقل تعبير «الملكات الفاضلة»[٢٨٣].

ولن تجد عند قاسم أمين تعريفاً مباشراً للفضيلة، وإنما المعنى المفهوم أنها فى الأساس صفات وعادات للنفس راسخة مستحسنة، وربما كان مصدر استحسانها هو جماعة «*العقلاء*»[٢٨٤]. ويبدو أن قاسم أمين كان يميل إلى اتجاه قديم يقول بوحدة الفضائل، حيث نجده يقول بإن الفاضل «يحب الفضيلة» و«يحترمها أيا كان شكلها، ونظن أن اختيار كلمتى «يحب» و«يحترم» لم يأت على قلم قاسم أمين عبثا، شأنه في كل ما يكتب، ثم ينص: «إنما الفاضل من يجل *الفضيلة* أينما كان مظهرها»[٢٨٥].

ويبقى لنا، من أجل التعرف على طبيعة مفهومه عن الفضيلة، أن نلجأ إلى تعداد الفضائل التى يأتى ذكرها على قلمه. فنجده يذكر «العفة»[٢٨٦]، و«الكرم»[٢٨٧]، و«الشعور الوطنى»[٢٨٧]، و«الاستقلال» عند الفرد[٢٨٨]، و«احترام الذات»[٢٨٩]، و«حياء النفس»[٢٩٠]، بل هو يصف الحرية بأنها فضيلة كما يدل على ذلك سياق الكلام[٢٩١]. وفى مكان واحد على الأقل من كتاباته، نرى تعدادا متصلا لبعض

الفضائل: «التربية هى التى أنتجت كل الرجال الذين نسمع عنهم ونشاهدهم متحلين بمزايا الاستقامة والصدق والكرم والشجاعة والشفقة وحب الوطن واحترام الحق والدفاع عن الحقيقة والخضوع للواجب وبذل النفس والمال فى خدمة العلم والدين والجامعة الوطنية»[٢٩٢]. ومن جهة أخرى، فإن قاسم أمين كان يدرك اندراج الفضائل تحت أنواع، ويبدو أنها تقوم على نفس تقسيم الأعمال الثلاثى الذى مر بنا:

أ - «الفضائل التى تكمل بها النفس الإنسانية فى ذاتها».

ب - «الفضائل التى لها أثر فى معاملة الأهل وحفظ نظام القرابة».

جـ - «الفضائل التى يظهر أثرها فى نظام الأمة»[٢٩٣].

أخيراً، فإن قاسم أمين يهتم اهتماماً مخصوصاً بفضيلة معينة يذكرها عدة مرات، ويميزها عن سائر الفضائل، بأن يجعلها، مرة، «الفضيلة الحقيقية»، وأخرى «أهم أركان الأدب»، ألا وهى «ضبط النفس» (أو قوة الحكم على النفس»)[٢٩٤].

وكان من الطبيعى أن يهتم قاسم أمين بكيفية تكون الفضائل، وهو بسبيل الحديث عن أهمية المرأة فى العائلة، وأهمية العائلة فى تكوين النشء، وأهمية التربية بوجه عام، وعن صورة الإنسان

الجديد التى يبتغيها. وعلى الرغم من أن قاسم أمين لم يتعرض مباشرة وعلى نحو مقصود لتناول هذه المسألة، إلا أن استقراء أفكاره المتناثرة بشأنها يجعل من الممكن أن نقول إنه رد تكونها إلى العوامل التالية :

أ – التربية : «التمييز بين الفضيلة والرذيلة ليس بالشيء المهم فى فن التربية، لكن كله ينحصر فى اكتشاف وإظهار وتنمية جميع الملكات الطيبة فينا، أو غرسها فى نفوسنا وتقويتها وإحيائها حتى تمسك فى النفس بجذورها، فلا تستطيع قوة قلعها بعد ذلك أبدا. ومتى وجدت التربية بهذا المعنى لازمت النفس الفضائل وتجافت الرذائل، بقدر تلك الملازمة»(٢٩٥).

ب – التعود على الفضائل من خلال تكرار التجارب: فيرى قاسم أمين، على ما مر بنا، أن مزاولة الأعمال واختبار الأمور ومخالطة الناس واكتساب التجارب هى المنابع الحقيقية «للآداب الصحيحة»، حيث أن «القواعد الأدبية... إنما تتولد بالتعرض لملاقاة الحوادث والتعود على مغالبتها والتغلب عليها»(٢٩٦).

جـ – القدوة الحسنة : ينص قاسم أمين على هذا العامل نصاً، حيث يقول، بعد تقسيم الفضائل ثلاثيا على نحو ما رأينا منذ قليل، إن السبيل إلى أن «تكون تلك الفضائل جميعها ملكات راسخة» فى

النفس، يكون بأمرين معا: «الإرشاد القولى والقدوة الصالحة»(٢٩٧).

ولكن ربما كان التصوير الحق لموقف قاسم أمين هو القول إنه يجعل هذه العوامل الثلاثة تتفاعل معاً، مع التأكيد على هذا العامل أو ذاك بحسب المقام. والدليل على هذا هو أن النص الذى أثبتناه فى شأن التربية يستمر على الفور ليقول: «وبديهى أن التربية بهذا المعنى لا يمكن أن تكتسب فى المدارس والمكاتب أو من قراءة وحفظ قواعد علمية، بل تجب ممارستها مع الطفل من يوم يعى الخطاب ويفهم الكلام، بل وقبل ذلك كما سنبينه بالبرهان. وأول من يطلب منهم القيام بهذه الوظيفة هم طبعا الذين يعاشرون الطفل من نشأته معاشرة مستمرة، والذين يؤثرون عليه بأعمالهم وأقوالهم وسلوكهم»(٢٩٨).ومن الواضح أن فى هذه السطور ما يشير إلى دور «الممارسة» من جهة و«القدوة الحسنة» من جهة أخرى. كذلك فإن إشارة «تحرير المرأة» إلى أهمية «القدوة الصالحة»، والتى أثبتناها فى مكانها، إنما تأتى بعد سطور من قول قاسم أمين: «على من يتولى تربية المرأة أن يبادرها من بداية صباها بتعويدها على حب الفضائل»(٢٩٩)، حيث الإشارة إلى التربية وتكرار العادة معاً.

ونلاحظ أن قاسم أمين يكرر الإشارة إلى الفضائل الحقيقية وتلك الزائفة، وقد مر بنا الآن شيء من هذا. وربما كانت الرسالة

التى يريد قاسم أمين أن يؤكدها هى أهمية الممارسة والتعود فى مقابل محض المعرفة أو الإدراك على مستوى التصور الذهنى. ونحن نعرف أن هذه المسألة كانت مدار انتقاد أرسطو لنظرية الأخلاق السقراطية، ويبدو لنا أن هناك عند قاسم أمين آثاراً لهذا الانتقاد، إما من خلال قراءته الممكنة لأرسطو، أو من خلال اتصاله بالمصادر الإسلامية التقليدية المتفلسفة أو تلك الفرنسية، وذلك فى هذه السطور من مقالات «أسباب ونتائج»: «أما تربية الروح، فإنها تكون بتعويد الطفل، لا على أن يفهم هذا الطيب طيباً وذاك الخبيث خبيثاً، بل على أن يعمل الطيب ما قدر ويجتنب الخبيث ما استطاع. لأن إدراك الحسن حسناً والقبيح قبيحاً أمر سهل، وقد لا يكاد يوجد إنسان يفعل أمراً مذموماً وهو يعتقد أنه ممدوح، والسارق والقاتل والخائن والبخيل كلهم يفهمون أن ما يرتكبونه رذيلة من الرذائل، ولكنهم تعودوا استعمالها كما تعودوا أن يجفوا الفضائل»(٣٠٠).

ومما يدخل فى باب التمييز بين الفضيلة الحقة وغيرها إشارة قاسم أمين إلى فضيلة الجاهل، وهنا نجد قاسم أمين يؤكد على الركن الآخر من أركان الفضيلة، وهو المعرفة، بحيث أن التعود على الفعل الفاضل وحده ليس كافياً، بل ينبغى أن يكون التعود قائماً

على المعرفة والعلم: «الجاهل... إن كان فاضلا، لم تكن الفضيلة فيه إلا عادة مجردة، وهو مستعد للإذعان إلى ما يتأثر به... ومائل إلى قبول ما يرى أغلب الناس عليه بدون بحث. فإذا انقطعت العادة مرة، وذاق لذة الرذيلة، انفلت قياد نفسه من يده...»[٣٠١].

وما عمل الفضائل؟ هناك في المحل الأول «تكميل النفس» بالكمالات[٣٠٢]، وهناك ثانيا «ضبط النفس»، وهو أهم أركان الأدب[٣٠٤]، وهو «المحكمة الباطنة التي يحاكم الإنسان نفسه أمامها»[٣٠٥]. أخيراً فإن للفضيلة «لذة» يعرفها من مارسها ووصل معها «إلى تلك الغايات الشريفة التي يسعى إليها كل من عرف معنى الإنسانية»[٣٠٦].

سابعا : نموذج التكوين الأخلاقي الجديد:

قاسم أمين مفكر مصلح، ولهذا فإنه يرشد دوما إلى النموذج الأخلاقي الجديد الذي يبتغيه، أو ما يسميه أحيانا باسم «الرجل الكامل»[٣٠٧]. ولا شك أن ملامح من هذا النموذج قد مرت بنا، سواء في هذا الفصل أو في فصل الحساسية الجديدة أو في فصل الانتقاد، على وجه الإشارة إلى الصورة السلبية، ولكننا سنحاول في هذا القسم تجميع أهم عناصر الصورة الأخلاقية الإيجابية معاً.

وهناك أولاً عدد من الصفات العامة، من مثل التسلح بقوة العقل وقوة المعرفة، بعد توافر التهذيب والأميال الحسنة والغرائز الطيبة، ثم يضاف إلى هذا كله توافر العزيمة الناتج عن قوة الإرادة(٣٠٨). وربما يتلخص جماع الصفات فيما يسميه قاسم أمين بتربية الروح وتربية العقل معاً(٣٠٩).

وإذا أتينا إلى ملامح الشخص النموذجي، رجلا كان أو أمرأة، أي من حيث هو إنسان، وبصرف النظر عن ملامح المرأة النموذجية من حيث هي امرأة ولها وظائف نوعية تختص بها في داخل تنظيم العائلة، فإننا ربما نبدأ من ملمح نرى أنه كان في بؤرة اهتمامات قاسم أمين، ألا وهو الاهتمام بالدنيا وخبرة الحياة. فالشخص النموذجي هو الذي تعلم وتربى معاً، وتربى بالقدوة الحسنة وبالمرور في تجارب الحياة الفعلية معاً، وقد مر بنا أن الإرادة أمر لا يكتسب إلا بالمران والتعود والمغالبة الفعلية للنفس وللمتنافسين على السواء. إن الأفراد النموذجيين هم الذين «يتسابقون إلى منابع السعادة وموارد الرفاهية ومعاهد القوة»(٣١٠).

وفي المقابل، فإن الشخص النموذجي هو الذي يمتاز في نفس الوقت بحساسية وجدانية عالية، لك أن تسميها برقة الشعور ودقته: «الرجل المتعلم يحب النظام والتنسيق في منزله. وله ذوق مهذب

يميل إلى الأشكال اللطيفة والإحساسات الدقيقة والالتفاتات الرقيقة... يفهم بكلمة، ويود لو يفهم بالإشارة، يسكت فى أوقات، ويتكلم فى أخرى، ويضحك فى غيرها... له لذائذ وآلام معنوية، فيبكى مع الفقير، ويحزن مع المظلوم، ويفرح بالخير للناس»(٣١١).

وأضف إلى صفة الإحساس الدقيق صفة الاتزان، التى نجد تطبيقا لها فى كثير من جوانب التجربة الإنسانية، على ما يبدو من سطور قاسم أمين ومما بينها على السواء، ولعلنا نرى مقدمات لها فى اهتمامه بضبط النفس على ما رأينا، وربما نجد الوصف النظرى لهذه الصفة فى تعبير قاسم أمين عن الضد الإيجابى للشخص الذى تربى بحيث صار «سريع الاندفاع مع أول خاطر يبدو له، كما يفعل الطفل والمتوحش والمجنون»، الضد الإيجابى لمثل هذا الشخص هو النموذج الذى يتمناه قاسم أمين هدفاً للتربية الأخلاقية الجديدة تغرسه فى الناشئة : «إن كانت معلوماته كثيرة... وكان وجدانه رقيقاً لطيفاً، كان الناشئ كثير التأمل شديد التبصر بطئ الاندفاع مع أول انفعال يتأثر به من الحس والشعور، فينشأ وبيده ميزان يزن به أعماله، ويقدر به حركاته، ويشاهد فيه، وهو فى صباه، الميل إلى النافع والنفرة من الضار». إن هذه «أوائل وجراثيم من الكمال العقلى والأدبى، تصل بالتنمية والتربية إلى... الغايات الشريفة»(٣١٢).

ومن الناحية الاجتماعية، فإن هناك مبدأ أول، يتمثل فى أن الشخص النموذجى هو الذى يهتم بذاته، ويرعى مصالحه، نعم، ولكنه فى الوقت نفسه يرعى مصالح الجماعة التى ينتمى إليها، عائلة كانت أم مجتمعاً كبيراً، وعلى هذا الأساس تم توزيع أنواع الأعمال وتم توزيع أنواع الفضائل، على ما رأينا فى صفحات سابقة. إن الصورة النموذجية للأخلاق الاجتماعية تتركز فى هذه السطور التى يتحدث فيها قاسم أمين عن مدى تأثير المرأة على عائلتها: فهى إن كانت «على جانب من العقل والأدب، هذبت جميع العائلة، واحترمها أفرادها، واحترموا أنفسهم، وعاش الجميع فى نظام تام تحت لواء محبتها، متضامنين، أقوياء باتحادهم، وهذه الصفات التى تشاهد فى العائلة هى الصفات التى تشاهد فى الأمة، إذ كل منا يسلك فى أمته مسلكه فى عائلته»[٣١٣]. ويؤكد قاسم أمين فى مكان آخر على تطبيق اجتماعى لأخلاق الاتزان، وهو المتمثل فى نموذج أن نميز كمال التمييز بين ما لنا وما علينا، وأن نوازن بين حقوقنا وواجباتنا[٣١٤]. ثم هو ينص نصا على وجود «الفضائل الاجتماعية»، ويعتبرها الركن الأقوى لبناء الأمم، ومما يتبعها «بذل الأنفس والأموال فى سبيل تعزيز الوطن أو الدفاع عنه»[٣١٥].

أخيراً، فإن نموذج الأخلاق السياسية، على المستوى الشخصى، هو نموذج الرجل المستقل الحر، الذى لا يقبل تسليم نفسه إلى

تصرف الحاكم، ولا يقبل أن تتدخل الحكومة فى أعماله وشئونه الخاصة، ويجاهد في دفع هذا وذاك عنه(٣١٦).

خاتمة :

يشير هذا الفصل إلى الإضافة الإيجابية، والعملية، التى تؤدى إليها النظرة العلمية الشاملة إلى المجتمع والإنسان، ألا وهى إقامة أخلاق عقلانية تضع أرجلها على أرض الواقع، وتقوم من حول مفاهيم يمكن أن تتجسد فى العمل، من مثل النفع والسعادة والعقل والحرية والكمال. هذه الأخلاق العقلانية، التى عرضنا لمبادئها فى المبحث الثالث من مباحث هذا الفصل، تقوم، فى جانب منها، على أساس علمى، هو تحديد «طبيعة الإنسان» بحسب ما توصلت إليه المعارف التى توافرت أمام عقل قاسم أمين وارتضاها وارتضى لها صفة «العلمية»، بحسب ما بيناه فى القسم الأول من المبحث الثانى. أخيراً، فإن التوجه العلمى لقاسم أمين تأدى به إلى ألا يقترح أخلاقا جديدة قبل أن يقوم بالانتقاد المنظم والعلمى للأخلاق القديمة لمجتمعه، وقبل أن يحدد بوضوح معانى المصطلحات التى سيستخدمها فى اقتراحه الجديد، وهذا هو ما عرضنا له فى المبحث الأول من المباحث الثلاثة التى تكون مجموع هذا الفصل.

الهوامش

(١) «المرأة الجديدة»، ٣٠.

(٢) انظر فى كل ما سبق الفصل المذكور (الفصل الأول).

(٣) «المرأة الجديدة»، ٦٠.

(٤) «تحرير المرأة»، ١٢٨.

(٥) «المرأة الجديدة»، ٤٤.

(٦) نفسه، ٢٢٠.

(٧) «تحرير المرأة»، ١٥٩.

(٨) «المرأة الجديدة»، ٣٠ – ٣١.

(٩) نفسه، ١٨٣.

(١٠) نفسه، ١٧٩ – ١٨٠.

(١١) نفسه، ٦٠، ١٨١، ١٨٣، و «تحرير المرأة»، ١٥٤.

(١٢) «المرأة الجديدة»، ١٨٣.

(١٣) حول هذا التعبير الأخير، المرجع السابق، ٢١٢.

(١٤) انظر على التوالى، المرجع السابق، ٢٦١، ٢٠٩، ٢٢٣.

(١٥) نفسه، ٢٢١.

(١٦) نفسه، ٢٢٣.

(١٧) «تحرير المرأة»، ١٥٤ – ١٥٥، وراجع «المرأة الجديدة»، ١٧٠.

(١٨) نفسه، ١٥٤.

(١٩) نفسه، ١٥٨، وللمقارنة مع اليابان، نفسه، ١٥٥.

(٢٠) يتحدث قاسم أمين مراراً عن خطر العدم، للأمة والأفراد، فيقول مثلا عن مواطن عصره، القاعد عن السعى والجهاد والمغالبة، إنه «مهدد بالموت محفوف بخطر العدم»، من الناحية الاجتماعية ومن المنظور الدولى، «المرأة الجديدة»، ٩٣ – ٩٤ ، وراجع «أسباب»، ٢٦.

(٢١) «المرأة الجديدة»، ١٦٦.

(٢٢) نفسه، ١٨٦.

(٢٣) نفسه، ٢٠١ - ٢٠٢.
(٢٤) راجع نفس المرجع، ١٦٥.
(٢٥) «تحرير المرأة»، ٨٢ - ٨٣.
(٢٦) «المرأة الجديدة»، ١٥١. وحول الأدب بالمعنى الفنى، نفسه، ١٧٩. وهو استخدام نادر جدا على قلم قاسم أمين.
(٢٧) انظر مثلا، نفس المرجع، ٦٧، ٣٦ - ٤٠.
(٢٨) نفسه، ١٥٩، «كلمات»، ٧٢، ١٠٣.
(٢٩) «المرأة الجديدة»، ١٣٠.
(٣٠) «كلمات»، ١٠٣.
(٣١) نفسه، ٧٩.
(٣٢) «المرأة الجديدة»، ١٨٧ - ١٨٨.
(٣٣) «تحرير المرأة»، ١٥٤.
(٣٤) «المرأة الجديدة»، ٦٧.
(٣٥) قارن «المصريون»، ١٨٩.
(٣٦) «أسباب»، ١٩، وانظر أيضا آخر سطرين من نفس الصفحة، حيث تحل «العوائد» محل «الأخلاق».
(٣٧) ص ١٨٧ وما بعدها.
(٣٨) «المرأة الجديدة»، ١٧٨.
(٣٩) حول الربط بين «أخلاق المصريين» (القدماء) و«أحوالهم فى معيشتهم»، نفسه، ١٩٢.
(٤٠) نفسه، ١٨٨.
(٤١) «تحرير المرأة»، ٦٣.
(٤٢) «المرأة الجديدة»، ١٤٠.
(٤٣) نفسه، ١٦٩.
(٤٤) قارن استخدام «القلب» فى نفس المرجع، ٢.
(٤٥) نفسه، ١٦٦.
(٤٦) مثلا، «تحرير المرأة»، ١٣٣، «المرأة الجديدة»، ٣٤، ٣٧ - ٣٨.
(٤٧) «المرأة الجديدة»، ١٣٧.
(٤٨) نفسه، ١٦١.
(٤٩) نفسه، ١٦٠.
(٥٠) مثلا، «تحرير المرأة»، ٣٦، ٣٧.
(٥١) نفسه، ٣٧.
(٥٢) «المرأة الجديدة»، ٧٣، ١١٩، وقارن المعنى التقويمى فى ٣٦، وفى «تحرير المرأة»، ٣٩.

(٥٣) «تحرير المرأة»، ٣٧، وعن الإنسانية نوعاً، «المرأة الجديدة»، ٦٠.

(٥٤) نفسه، ١٣٠، وعن شخصية الطفل، «تحرير المرأة»، ٣٨.

(٥٥) راجع «أسباب»، ٤٧ – ٤٨.

(٥٦) «تحرير المرأة»، ٣٧.

(٥٧) نفس المصدر.

(٥٨) نفس المصدر، و«المرأة الجديدة»، ١٣٠.

(٥٩) «تحرير المرأة»، ٣٧ – ٣٨.

(٦٠) «المرأة الجديدة»، ١٣٠.

(٦١) نفس المصدر.

(٦٢) المرجع السابق، ٨٢ – ٨٣ .

(٦٣) نفسه، ٣٦.

(٦٤) «تحرير المرأة» ، ٣٩.

(٦٥) «أسباب»، ٤٧.

(٦٦) «المرأة الجديدة»، ٦٩.

(٦٧) «تحرير المرأة»، ١٢٤.

(٦٨) «المرأة الجديدة»، ٣٦.

(٦٩) راجع «تحرير المرأة»، ٦٩ – ٧٠، ١٥٩، «المرأة الجديدة»، ٩، ١٦٧.

(٧٠) «المرأة الجديدة»، ٢٢٠.

(٧١) نفسه، ٢.

(٧٢) «تحرير المرأة»، ٤٦.

(٧٣) نفسه، ١٥٤ – ١٥٩، وعن ثلاثية «الفكر والإرادة والعمل»، «المرأة الجديدة»، ٣٨.

(٧٤) «تحرير المرأة»، ٣٦، ٩١.

(٧٥) نفسه، ١٢٠، «المرأة الجديدة»، ١٥٧ – ١٦٠.

(٧٦) «أسباب»، ٢٦.

(٧٧) «المرأة الجديدة»، ٧٨، وقارن ١٨٧ – ١٨٨ حول «المعنويات» و «الروحانيات».

(٧٨) نفسه، ١٤٥.

(٧٩) «تحرير المرأة»، ٢٩.

(٨٠) نفسه، ٩٠ – ٩١.

(٨١) نفسه، ٧٥.

(٨٢) نفسه، ١٢٤.

(٨٣) «المرأة الجديدة»، ١٤٥.

(٨٤) «تحرير المرأة»، ١٠٦، ١١٣.

(٨٥) نفسه، ٨٠.
(٨٦) راجع مثلا، «المرأة الجديدة»، ٤١، ٦١، ٧١، ١٢٤، وغير ذلك من النصوص كثير.
(٨٧) مثلا، «أسباب»، ٤٧.
(٨٨) «تحرير المرأة»، ٣٧.
(٨٩) مثلا، «تحرير المرأة»، ٢٨ – ٢٩، ٤١، «المرأة الجديدة»، ٦١ – ٦٢، «كلمات»، ١٠٤.
(٩٠) «المرأة الجديدة»، ٦١ – ٦٢.
(٩١) نفسه، ١٦٧ – ١٦٨.
(٩٢) «أسباب»، ٢٢.
(٩٣) نفسه، ١٩.
(٩٤) «تحرير المرأة»، ٩١.
(٩٥) نفسه، ١٩ – ٢٠.
(٩٦) «المرأة الجديدة»، ١٥٨.
(٩٧) نفسه، ١١٤.
(٩٨) «تحرير المرأة»، ١٠٥.
(٩٩) «المرأة الجديدة»، ٦٢.
(١٠٠) نفسه، ١٥٧ – ١٥٨.
(١٠١) نفسه، ١٢٢.
(١٠٢) «تحرير المرأة»، ٣٨.
(١٠٣) «المرأة الجديدة»، ١٦٢، «وهى آلات الادراك»، «تحرير المرأة»، ٢٣.
(١٠٤) «تحرير المرأة»، ٢٤.
(١٠٥) «المرأة الجديدة»، ٦٥.
(١٠٦) نفسه، ١٤٥.
(١٠٧) «تحرير المرأة»، ٦٩.
(١٠٨) نفسه، ٣٨، وراجع، ٣١، ٧٠.
(١٠٩) نفسه، ٢٤ – ٢٥، وقارن ٤٥.
(١١٠) «المرأة الجديدة»، ٦٩، وقارن «تحرير المرأة»، ١٢٣.
(١١١) «تحرير المرأة»، ٢٤ – ٢٥، ٣٧.
(١١٢) «المرأة ادجديدة»، ٩٣.
(١١٣) «تحرير المرأة»، ٣٧.
(١١٤) نفسه، ٨.
(١١٥) نفسه، ٧ – ٨.
(١١٦) نفسه، ٤٤ – ٤٥.

(١١٧) نفسه، ٦٩ – ٧٠.
(١١٨) نفسه، ٢٥، ٤٥، ٦٩ – ٧٠.
(١١٩) نفسه، ٩٥.
(١٢٠) «المرأة الجديدة»، ٩٣.
(١٢١) نفسه، ٤٩.
(١٢٢) نفسه، ٦٩.
(١٢٣) «تحرير المرأة»، ٩٠.
(١٢٤) «المرأة الجديدة»، ١٩٨.
(١٢٥) نفسه، ١٤٥.
(١٢٦) نفسه، ١٦٠، وراجع ٢.
(١٢٧) مثلا، «تحرير المرأة»، ٨٠، ٩٠.
(١٢٨) راجع، نفسه، ٣٨، «المرأة الجديدة»، ١٦، ١٣٢، ١٦٩، ١٩٧.
(١٢٩) راجع مثلا، «تحرير المرأة»، ١٢٤.
(١٣٠) «المرأة الجديدة»، ١٦٩.
(١٣١) «تحرير المرأة»، ١٩٥.
(١٣٢) «المرأة الجديدة»، ١٥٥.
(١٣٣) نفس المصدر، وراجع ٢٠٣، حيث يميل إلى اللانهائية، وراجع «المصريون»، ٢٩٠.
(١٣٤) راجع «تحرير المرأة»، ٧٨، حيث الحديث عن «سنة الفطرة».
(١٣٥) «المرأة الجديدة»، ١٦٢.
(١٣٦) «تحرير المرأة»، ٢.
(١٣٧) «المرأة الجديدة»، ١٩٣.
(١٣٨) «تحرير المرأة»، ٨٦.
(١٣٩) «المرأة الجديدة»، ٢٣.
(١٤٠) مثلا، «تحرير المرأة»، ٣٩.
(١٤١) «المرأة الجديدة»، ٥.
(١٤٢) «تحرير المرأة»، ٨٦.
(١٤٣) نفسه، ١٢٤.
(١٤٤) نفس المصدر ، وقارن فى ٨٥ تعبير «ماأعدت له».
(١٤٥) «كلمات»، ٥٤.
(١٤٦) «تحرير المرأة»، ٢٨.
(١٤٧) انظر حديثه عن «غايات الكمال»، «المرأة الجديدة»، ١٩٣.
(١٤٨) نفسه، ٣٣.

(١٤٩) نفسه، ١٥١.
(١٥٠) مثلا، «تحرير المرأة»، ١٢٤، «المرأة الجديدة»، ١٦، «كلمات»، ١٠٤.
(١٥١) «أسباب»، ٤٢.
(١٥٢) نفسه، ٤٣.
(١٥٣) «المرأة الجديدة»، ١٥٤.
(١٥٤) قارن «المرأة الجديدة»، ١٦٩.
(١٥٥) نفسه، ١٥١.
(١٥٦) «أسباب»، ٤٣.
(١٥٧) «المرأة الجديدة»، ٥.
(١٥٨) مثلا «تحرير المرأة»، ٨٦.
(١٥٩) نفس المصدر.
(١٦٠) «المرأة الجديدة»، ١٦٩.
(١٦١) نفسه، ١٦٢.
(١٦٢) «تحرير المرأة»، ٢٢.
(١٦٣) «المرأة الجديدة»، ١٦٩.
(١٦٤) نفسه، ٧، وراجع ٦٩ - ٧٠.
(١٦٥) تراجع دراسة لنا عن «العدالة والحرية عند قاسم أمين»، تنشر قريباً.
(١٦٦) «المرأة الجديدة»، ٣٨.
(١٦٧) نفس المصدر.
(١٦٨) نفس المرجع، ٧٠.
(١٦٩) نفسه، ٣٦.
(١٧٠) نفسه، ١٦.
(١٧١) نفسه، ١٥٦.
(١٧٢) نفسه، ٦٩ - ٧٠.
(١٧٣) من المفهوم أننا لا نقوم، في هذه الدراسة، بعمل رد بعض أفكار قاسم أمين إلى أصول لها محتملة، والواضح أن تأثير الفكر الإنجليزى واضح فى صدد الموضوع الحالي.
(١٧٤) «المرأة الجديدة»، ٣٦ - ٣٧.
(١٧٥) «تحرير المرأة»، ٨٥.
(١٧٦) «أسباب»، ٣١.
(١٧٧) نفسه، ١٩.
(١٧٨) راجع مثلا «تحرير المرأة»، ٢٢.

(١٧٩) قارن مثلا، «المرأة الجديدة»، ٥، «تحرير المرأة»، ٨٨.
(١٨٠) «أسباب»، ٥١.
(١٨١) «تحرير المرأة»، ٢٢.
(١٨٢) «المرأة الجديدة»، ١١١.
(١٨٣) نفسه، ٧٠، ١٤٥، وقارن «تحرير المرأة»، ١٥٨.
(١٨٤) «المرأة الجديدة»، ٢٣، وقارن «تحرير المرأة»، ١٥٨.
(١٨٥) «تحرير المرأة»، ٤٦.
(١٨٦) قارن «المرأة الجديدة»، ٢. ونشير إلى أن بعض النصوص قد يكون وراءها ملامح شخصية ومواقف ذاتية عند الكاتب.
(١٨٧) «تحرير المرأة»، ٦٠.
(١٨٨) «كلمات»، ١٠٣، وراجع «المرأة الجديدة»، ١١١، حيث يشار إلى المرأة من حيث هي «ذات كاملة»، وليست «مادة» يشكلها الرجل كما يشاء.
(١٨٩) «أسباب»، ٢٣.
(١٩٠) نفسه، ٣٠، وقارن «المرأة الجديدة»، ٤٥، حيث يرد تعبير: «هل هذه الذات الحقيرة متمتعة بحريتها؟».
(١٩١) مثلا، «أسباب»، ٢٣.
(١٩٢) مثلا، نفس المرجع، ٢٥.
(١٩٣) «المرأة الجديدة»، ٧٨.
(١٩٤) «أسباب»، ٢٣، وراجع «تحرير المرأة»، ١٩ - ٢٠: «نفس حية فعالة».
(١٩٥) «أسباب»، ٣٠.
(١٩٦) «المرأة الجديدة»، ١٧.
(١٩٧) «كلمات»، ٧٥.
(١٩٨) «تحرير المرأة»، ١٠.
(١٩٩) ويؤكد عليه أيضا في نفس المرجع، ٩٢.
(٢٠٠) نفسه، ١١.
(٢٠١) «أسباب»، ٤٨.
(٢٠٢) «المرأة الجديدة»، ٣٧.
(٢٠٣) «تحرير المرأة»، ٧٠، وراجع «المرأة الجديدة»، ٣٩: «كل من لم يملك قياد فكره وإرادته وعمله ملكا تاما فهو تاما.
(٢٠٤) «تحرير المرأة»، ٨٤ - ٨٥.
(٢٠٥) نفسه، ٤٦.
(٢٠٦) نفسه، ٢٨ - ٣٠.

(٢٠٧) نفسه، ٣١.
(٢٠٨) نفس المصدر.
(٢٠٩) نفس المصدر .
(٢١٠) نفسه، ٣٠.
(٢١١) نفسه، ٤٤.
(٢١٢) قارن «المرأة الجديدة»، ١٦١، للمقابلة بين البحث عن الحقيقة وحشو الذهن بالمواد، و«تحرير المرأة»، ٧٤ – ٧٥، للمقارنة بين الريفية والحضرية.
(٢١٣) «تحرير المرأة»، ٧٩.
(٢١٤) نفسه، ٨٠ – ٨١.
(٢١٥) نفسه، ٨١.
(٢١٦) نفسه، ٩١.
(٢١٧) «المرأة الجديدة»، ١١١.
(٢١٨) نفسه، ١٦١.
(٢١٩) «كلمات»، ٥٧.
(٢٢٠) «أسباب»، ٤٥.
(٢٢١) نفس المصدر.
(٢٢٢) تحتاج صلة قاسم أمين بعبد الله النديم إلى دراسات مفصلة دقيقة.
(٢٢٣) «كلمات»، ١٠٣ – ١٠٤.
(٢٢٤) «تحرير المرأة»، ٨٥.
(٢٢٥) «المرأة الجديدة»، ٣٨.
(٢٢٦) نفسه، ٣٦ – ٣٧.
(٢٢٧) نفسه، ٢٢٠.
(٢٢٨) «تحرير المرأة»، ١٥٧ – ١٥٨.
(٢٢٩) «المرأة الجديدة»، ١٤٥.
(٢٣٠) نفسه، ١٩٨ – ١٩٩.
(٢٣١) نفس المصدر.
(٢٣٢) «كلمات»، ٧٢.
(٢٣٣) نفس المصدر.
(٢٣٤) نفسه، ١٠٤.
(٢٣٥) «تحرير المرأة»، ٦٣.
(٢٣٦) «المرأة الجديدة»، ١٦٦.
(٢٣٧) «كلمات»، ٧٢، وقارن ١٠٤.

(٢٣٨) «تحرير المرأة»، ١٥٩.

(٢٣٩) نفسه، ٢٠.

(٢٤٠) نفسه، ٣ – ٤.

(٢٤١) راجع نفس المرجع، ٥٢ خاصة.

(٢٤٢) نفسه، ١٢٠.

(٢٤٣) نفسه، ٥١ – ٥٢. حول «الشهوات»، راجع أيضا ٩٠ – ٩١، ولكن قاسم أمين يستخدم أحيانا فعل «يشتهى» بمعنى محايد، مثلا، نفس المرجع، ٤٥.

(٢٤٤) نفسه، ٥١.

(٢٤٥) نفسه، ٢٤ – ٢٥.

(٢٤٦) نفسه، ٢٥.

(٢٤٧) نفسه، ٢٩.

(٢٤٨)، ١٢٠.

(٢٤٩) نفسه، ٤٥.

(٢٥٠) نفسه، ٥٢، كما أن العلم، وهو نتيجة لعمل العقل، شرط للسعادة، نفسه، ٢٢.

(٢٥١) نفسه، ١٢٣، ٤٦، «المرأة الجديدة»، ٦٩ – ٧٠.

(٢٥٢) مثلا، «تحرير المرأة»، ٢٠، ١٥٣ – ١٥٩.

(٢٥٣) نفسه، ٧٥، ٩٠ – ٩١.

(٢٥٤) «المرأة الجديدة»، ٧٤، ٧٥.

(٢٥٥) نفسه، ١٤٥، «تحرير المرأة»، ٩١.

(٢٥٦) نفسه، ١٠٦، ١١٣، ١٢٠.

(٢٥٧) راجع مثلا «المرأة الجديدة»، ٥، ٤٩، ٧٣، ١٥١، ١٥٤، ١٩٧، ٢٠١، ٢٠٣.

(٢٥٨) «تحرير المرأة»، ٦، «أسباب»، ٢٨.

(٢٥٩) «كلمات»، ٧٠ – ٧١.

(٢٦٠) ٢١٧ – ١٨٧.

(٢٦١) «أسباب»، ٢٨.

(٢٦٢) «تحرير المرأة»، ١٠١.

(٢٦٣) «المرأة الجديدة»، ٢.

(٢٦٤) نفسه، ١٥٣.

(٢٦٥) الأمثلة كثيرة، منها فى «تحرير المرأة»، ٧٥، وعموما ٧٢ – ٧٥.

(٢٦٦) «المرأة الجديدة»، ١٥٩.

(٢٦٧) «تحرير المرأة»، ٦ – ٧.

(٢٦٨) «أسباب»، ٢٣.

(٢٦٩) نفسه، ٢٥.
(٢٧٠) «تحرير المرأة»، ٧٢.
(٢٧١) نفسه، ٧٤، وقارن ٧١.
(٢٧٢) «أسباب»، ٢٢.
(٢٧٣) «المرأة الجديدة»، ٩٣ - ٩٤.
(٢٧٤) «تحرير المرأة، ٩١.
(٢٧٥) نفسه، ٧١.
(٢٧٦) نفس المصدر.
(٢٧٧) «المرأة الجديدة»، ١٦٨.
(٢٧٨) راجع هامش (١٧٣) من هذا الفصل.
(٢٧٩) «المرأة الجديدة»، ١١٤.
(٢٨٠) نفسه، ٨٢.
(٢٨١) «تحرير المرأة»، ١٠١.
(٢٨٢) «المرأة الجديدة»، ١٩٨.
(٢٨٢ مكرر) «تحرير المرأة»، ١٥٤.
(٢٨٣) نفسه، ٢٥.
(٢٨٤) نفسه، ٤٣.
(٢٨٥) «المرأة الجديدة»، ٣٢.
(٢٨٦) نفسه، ٦١.
(٢٨٧) نفسه، ٢٠١.
(٢٨٧ مكرر) نفسه، ١٤٥ «أسباب»، ٥٤.
(٢٨٨) «أسباب»، ٢٣، ٢٥، ٤٩.
(٢٨٩) نفسه، ٢٣، ٦٢.
(٢٩٠) «كلمات»، ١٠٢.
(٢٩١) «المرأة الجديدة»، ٣٢.
(٢٩٢) «أسباب»، ٤٣، وقارن «المرأة الجديدة»، ١٣٧.
(٢٩٣) «تحرير المرأة»، ١٩.
(٢٩٤) «كلمات» ٧٢، «المرأة الجديدة»، ١٩٨.
(٢٩٥) «أسباب»، ٤٦، وراجع كذلك ٤٣.
(٢٩٦) «المرأة الجديدة»، ١٦٦، انظر «كلمات»، ٧٢.
(٢٩٧) «تحرير المرأة»، ١٩، وراجع «المرأة الجديدة»، ١٤٥.
(٢٩٨) «أسبابه»، ٤٦.

(٢٩٩) «تحرير المرأة»، ١٩.

(٣٠٠) «أسباب»، ٤٥.

(٣٠١) «المرأة الجديدة»، ١٩٩.

(٣٠٢) «تحرير المرأة»، ١٩، ٩١. وربما كان المقصود هو «تهذيب الأخلاق»، الذى هو مقدم على التعليم، نفسه، ٤٣.

(٣٠٣) «المرأة الجديدة»، ١٩٨.

(٣٠٤) «أسباب»، ٥٤.

(٣٠٥) نفس المصدر، ورغم عدم ذكر الفضائل بالاسم فى هذا النص، إلا أن إطاره هو الإطار المتناول فى هذه الفقرة.

(٣٠٦) «تحرير المرأة»، ٣٨ - ٣٩.

(٣٠٧) نفسه، ١٥٩.

(٣٠٨) نفسه، ٩٥، ١٥٩.

(٣٠٩) «المرأة الجديدة»، ١٤٥.

(٣١٠) «تحرير المرأة»، ٦٩.

(٣١١) نفسه، ٢٦ - ٢٧.

(٣١٢) نفسه، ٣٨.

(٣١٣) نفسه، ١٠٧ - ١٠٨.

(٣١٤) نفسه، ٧٣.

(٣١٥) «المرأة الجديدة»، ١٩٥.

(٣١٦) نفسه، ٣٦ - ٣٧.

الفهرس

قسيمة اشتراك

إصدارات الهيئة العامة لقصور الثقافة

الاســـــم : ....:

العنـــــوان : ....

رقم التليفـــون : ....

حوالة بريدية رقم : .... باسم الهيئة العامة لقصور الثقافة بمبلغ :...........

التوقيع :

م	اسم السلسلة	موعد الاصدار	قيمة الاشتراك ٦ أشهر		قيمة الاشتراك سنة كاملة	
١	أصـــوات أدبيـــة	نصف شهرية	١٢		٢٤	
٢	إبـداعـــات	نصف شهرية	٦		١٢	
٣	كـتـابات أدبيـة	شـهـرية	١٢		٢٤	
٤	آفـاق التـرجـمـة	شـهـرية	١٢		٢٤	
٥	آفـاق الكتـابة	شـهـرية	٦		١٢	
٦	الـذخـــائـر	شـهـرية	٣٠		٦٠	
٧	ذاكـرة الكتـابة	شـهـرية	١٨		٣٦	
٨	مطبـوعـات الهيـئة	شـهـرية	١٢		٢٤	
٩	الدراسـات الشعـبية	شـهـرية	١٢		٢٤	
١٠	عـين صـــقـــر	شـهـرية	٦		١٢	
١١	مجلة الثقافة الجديدة	شـهـرية	٦		١٢	
١٢	مـجلة قطر النـدى	نصف شهرية	١٦		٣٢	
١٣	مـجلة آفـاق المسـرح	فـصلية	٤		٨	
١٤	آفـاق الفن التـشكيلي	شـهـرية	٢٤		٤٨	
١٥	الجـــوائـز	شـهـرية	٦		١٢	
١٦	آفـاق السـينمـا	فـصلية	١٨		٣٦	

ضع علامة (✓) أمام السلاسل التي تريد الاشتراك فيها في المربع الخاص بمدة ستة أشهر أو سنة كاملة

- -

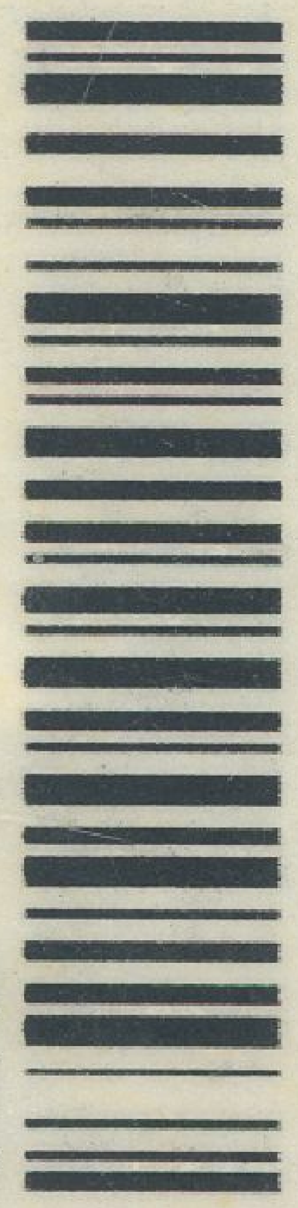
ترسل على عنوان الهيئة العامة : ١٦ أ ش أمين سامي - قصر العيني - القاهرة

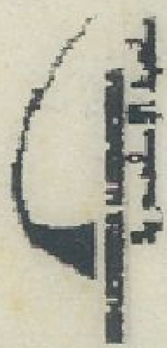
ت : ٢٥٦٤٨٤١ - ٢٥٦٤٨٤٢ - فاكس : ٢٥٦٤٢٠٢

الرقم البريدي : ١١٥٦٢

الأمل للطباعة والنشر

اللوحة للفنانة جاذبية سرى





الثمن : جنيهان

شركة الأمل للطباعة والنشر